

TIGHT BINDING BOOK

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_I 190250

UNIVERSAL
LIBRARY

مقدمة التصدير للناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ
مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ، وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ
فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَاكُلُوا مِنْهَا
وَأَطِيعُوا أَلْبَائِسَ الْإِنْفِيرِ *

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنَظُرُوا لَهَا قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ، أَوْ
أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ
الَّتِي فِي الصُّدُورِ (الآيات من سورة الحج)

يحج بيت الله الحرام، ويؤد مسجدا رسول الله وروضته عليه أفضل الصلاة
والسلام، ألوف كثيرة من مسلمي الاتفاق، أكثرهم من العوام والفقراء، وبعضهم
من العلماء والادباء والكتاب والشعراء، ويقل في جملتهم من يفقه ما يعمل، ومن
يعي ما يسمع، ومن يعقل ما ينظر، ويقل في هؤلاء من يكتب لأخوانه المسلمين
ما يفيدهم شيئا لا يجدونه في كتب الفقه أو التاريخ والرحلات والادب
بل نرى من حجاج إخواننا المصريين من يكتبون في كل عام ما يفض
الله تعالى ويسوء جيرانه في حرمه ، وجيران رسول الله (ص) في روضته،

وخدام قاصدي هذين الحرمين من المطوفين والمزورين ، وحكامهما
الحافظين لأمن السكان ، وآمين البيت الحرام ، وأطباءهما الحافظين على
صحة أهلها ، وصحة من يتشرف بإداء المناسك والزياره فيها ، بل يكتبون
ما ينفر المسلمين عن إقامة هذا الركن العظيم من أركان الاسلام ، ويصدّم
عن إحياء هذه الجامعة العامة التي امتاز بها على جميع الاديان ، - فهذا يشكّو
من شدة الحر ، وذلك يتملّل من كثرة النفقة ، وآخر يتبرّم بما نزعهم
من تقصير المطوفين وطعمهم

وأغرب من كل هذا أن منهم من ينتقدون منع البدع والخرافات ،
والطواف بالقبور والاستغاثه بالاموات ، وان منهم من كتب في هذا
الشهر مشنعا على حكومة الحجاز التقصير في عمارة مسجد الرسول (ص)
وتجديد فرشه ، وهو يعلم ان حكومة الحجاز الحاضرة على فقرها ، قد
فعلت ما لم تفعله حكومة قبلها ، من حفظ الامن ، وتسهيل السبل ، وتوفير
المياه ، والاسعادات الصحية للحاج ، فان هذا قد صار متواترا ،
ويعلم أيضا ان حكومته هو قد منعت ما كانت ترسله الى الحرمين وأهلها
من الاموال ، والحقوق المقررة لهما التي كانت ترسلها في كل عام ، وان
هذه الحقوق هي بمض ما وقفه الملوك والامراء ، وأهل البر من الاغنياء ،
ويعلم ان وزارة الاوقاف نجبي من أوقاف الحرمين في كل عام مثات
الالوف من الجنيهاً ، وتصرفها في غير ما وقفت عليه - ويعلم أيضا ان
الحكومة التركية ، قد استحالت حكومة لا دينية ، وضمت أوقاف الحرمين

الى أملاهما ، بل هي تمنع من يريد الحج من شعبها ، وحجتها الظاهرة على هذا المنع ان الترك أحق بأمرهم أن تبقى في بلادهم من أن تصرف في بلاد العرب !!

وخير من هؤلاء الصادين عن سبيل الله ، والمنهزين عن شعائر الله ، والمؤذين لجيران الله ، من يؤلفون كتباً في رحلاتهم الحجازية ، ينقلون فيها أحكام المناسك الفقهية ، وبعض الاخبار التاريخية والأدبية ، ومن كتبوا في رحلاتهم وفي الصحف ما أملاه الحق من وصف أمن الحجاز ، وتوفير أسباب الراحة للحاج ، والثناء على الحكومة السعودية ورجاء الخير العظيم للإسلام فيها .

بيد أنك قلما ترى فيما كتبوا عبرة جديدة ، أو شيئاً من الاقتراحات المفيدة ، أو ترغيباً في البذل لعمارة المسجد الحرام ، ومسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو لتسهيل السبيل على الحاج والزائر ، وتوفير المياه لهم والمقيمين ، اقتداء بما كن من فعل السلف الصالحين

دع ما هو أعلى من ذلك منزعا ، وأروى مشردا ، وأبعد في الإصلاح غاية ، وأقوى في درء الخطر من الإسلام وقاية ، فقد علم الواقفون على سياسة الاستثمار الأوروبي أن خطره قد أحاط بجزيرة العرب ، ونفوذ بعض دوله تغفل في بعض أنحائها ، ثم طفق يوغل في أحشائها ، ويأبغ في دمائها ، فإن المستعمرين قد استولوا على سكة الحديد الحجازية ، التي كان الفرض الظاهر القريب من انشائها تسهيل أداء الفريضة ، والباطن البعيد حفظ

الجزيرة نفسها من الاستعمار الاوربي ، ومن قتل الاسلام في عقر داره ،
وإزاحته عن قراره ، تمهيداً لحدوده من الارض كلها ،

كذلك كان شأن المسلمين في حجهم وزيارتهم ، وكذلك كان مادونوا
في رحلاتهم ومقالاتهم ، الى أن أذن الله تعالى لعبده المجاهد في سبيله
بماله ونفسه ، ولسانه وقلمه ، وعلمه وعمله ، الامير شكيب أرسلان ، الذي
بحق لقبته أمته بأمر البيان ، أن يستجيب لأذان ابراهيم خليل الرحمن ،
فيؤدي فريضة الحج ، ويمرض مرضاً يضطره بمعداء المناسك ، إلى الالتجاء
إلى الطائف ، والتوقف في جبالها وذراها ، والتنقل في مزارعها وقراها ،
والهبوط في أخفافها وأوديتها ، فينال الشفاء والعافية من مرضه ، ومن
مرض سابق له ، بما شتم من هواء نقي ، وشرب من ماء روي ، وجنى من
ثمر شهي ، ويشاهد ما ثم من قابلية للعمران ، لا يكاد يفضلها مكان ، في عصر
عم الحجاز فيه العدل والامان ، وأن يصف ذلك بقلمه السيل ، ويأينه الساسال ،
الذي يجري فتكبو في غاياته جياد الفرسان ، ومن ذا الذي يطعم في لحاق
أمير البيان ، في مثل هذا الميدان ؟ ميدان التاريخ وعلم الاجتماع والعمران ،
وما فيه من دبر السياسة في هذا الزمان ، ولا سياسة الامة العربية والاسلام
أحمد الله تعالى أن وفق أخى شكيباً لأداء المناسك ، وشهود ما قرنه
بها القرآن من المنافع ، وانما هي منافع أمته ، لا منافع شخصه وأسرته ،
وأن يسر له السير في تلك الارض ، لفقه ما أرشد إليه عقله ، وهدى له

قلبه ، فيعرف بنفسه جبالها ووهادها ، وأغوارها وأنجادها ، وسهوبها
وصفانصفا ، ومجاهلها ومعارفها ، ثم يبعث ماذن في بطون الكتب من تاريخ
عمرانها ، وكنوز معادنها ، مع بيان أماكنها ، ووسائل استخراجها من
مكائنها ، ويجلي للعقول ما فيها من العبر البالغة ، ويقرن بها وصف حالتها
الحاضرة ، ويستنبط منها ما يجب على الأمة العربية وحكوماتها ،
والشعوب الإسلامية وزعمائها ، من توجيه أصدق ما أوتوا من إرادة
وعزيمة ، وأفضل ما أعطوا من علم وثروة ، في سبيل عمران الحجاز ،
وصيانتها من خطر الاستعمار ، وإن ذلك لا يتم لهم إلا بعمران جزيرة
العرب كلها ، لأن انتقاصها من أطرافها ، يفضي إلى الإحاطة بسائر أكنافها
تلك الغاية البعيدة المرعى ، هي التي وضع لها الأمير رحلته الحجازية
التي سماها (الارتسامات اللطاف ، في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف)
وقد أقام الدلائل على إمكان ما دعا إليه وسهولته ، من قابلية في المكان ،
ومواتاة من الزمان ، وأشار إلى ما يسترض به على ذلك من شبهات داحضة ،
وكر عليها بما ينقضها من حجج ناهضة ، بما لم يبق لمعتذر عذرا مقبولا ،
ولا لمقصر قولاً مقبولا

ثم انه لم يقف في ارتساماته دون هذا المقصد الاسمي ، بل ألم فيها
بكل ما يهم المسلم من حال الحجاز وأهله وحكومته ، فأفاض القول في تعظيم
شأن المياه فيه ، وما يرجى من زيادتها بالوسائل العصرية ، ولا سيما الآبار

الارتوازية ، واستشهد التاريخ على ما كان من عناية السلف الصالح بعمرائه ،
وحبس الاوقاف الواسعة عليه ، وعناية الخلف الطالح بتخريب ماعمره واهله
واضاعة أكثر ما وقفوا ، وتمهيد حكماءهم الفاسقين ، سبيل ذلك لسالبي ملكهم
من المستعمرين . وضرب لذلك الامثال ، بتاريخ أكبر المعمرين من الملوك
والامراء والوزراء ، وأسهب في بيان أحوال المطوفين والمزورين وقناعتهم ،
وما يجب من اصلاح حالهم ، ونوه فيها بفضل الحكومة السعودية الحاضرة .
وخدمة ملكها للحجاز ، وأعظمها والمقدم منها تعميم الامنة في بدو البلاد
وحضرها ، قريتها وبعيدها ، وما يرجى بحكمته من سائر اركان الاصلاح فيها .

وقد منّ عليّ ، بان عهد بنشر هذه الارتسامات إليّ ، بان أطبعها
بمطبعة المنار ، وأشرف على تصحيحها بنفسي ، لتعذر ارسال مثل الطابع
اليه في أوردية ليتولى تصحيحها بنفسه ، بل منّ دليّ بالاذن لي بتعليق بعض
الحواشي على بعض المواضع التي أرى التعليق عليها مفيداً لقارئها ، ليكون
اسمي مقروناً باسمه في هذا الاثر الخالد له في خدمة العرب والاسلام ،
كما منّ عليّ قبله بمثله في رسالته التي جعل عنوانها (لماذا تأخر المسلمون
ولماذا تقدم غيرهم) وهي الرسالة التي

سارت بها الركبان تطوي نفثنا فنحننا وسببنا فسببنا
فاضطربت بها بعض دول الاستعمار وزلزلت زلزالاً شديداً ،

حتى قيل لنا انها أغرت حكومة سورية بمنع نشرها فيها ، وهي أحق بها وأهلها ، فانقردت بهذه العداوة للاسلام دون من أغروها بها

ولقد كان سماح الامير حفظه الله لي بهذا وذلك اعلاما لقارئي الرسالة والرحلة بما بيننا من الاخوة الاسلامية الصادقة ، والاتفاق في المقاصد الاصلاحية النافمة ، للامة العربية ، والشعوب الاسلامية ، التي نفخ روحها في كل منا شيخنا الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده) بالتبع لاستاذة . ووقف الشرق وحكيم الاسلام (السيد جمال الدين الافغاني) قدس الله روحهما ، وأجزل ثوابهما

هذا وان الامير أمتع الله بعلمه وعمله ، ولسانه وقلبه ، قد وضع المرحلة حوائشي كثيرة عزوتها اليه في مواضعها ، وكان يجب أن أشير إلى ذلك في ديباجتها ، ولكنني ما علمت بها إلا عند بلوغ أول حاشية منها وقد كاذلي وقفة ونظر في اقتراحه على الحكومات المختلفة في الدين والسياسة أن تشدد على حجاج بلادها الفقراء ، فيما ترضه من الشروط للسماح لهم بالسفر إلى الحجاز ، لا لأن هذا الاقتراح منكر في نفسه ، بل لأن الحكومات الاستعمارية التي تكره للمسلمين المرزوقين بسبب طرتها عليهم أن يؤدوا هذه الفريضة ، لم تقصر في ارهاقهم بالشروط المالية والصحية ، بل أنا أعلم علم اليقين أن جميع الدول الاستعمارية تمتعت قيام المسلمين بهذه الفريضة ، وتعاون على صدم عنها بما تستطيع من حول وحيلة ، ولولا ما لبوا آخرها وتجارها من المنافع من نقل الحجاج لكان تشديدهم في البصد

أكبر ، ولكن ما وضعوه من العوائير والعقاب في سبيل الحج باسم المحافظة على الصحة ، قد أنالهم بعض مرادم منه بقلة من يتحمل مشقته من ملوك المسلمين ، وأمرائهم المترفين ، وأغنيائهم المحسنين ، وزعمائهم المفكرين وقد كانوا حاولوا أن يقرروا في مؤتمر طبي عقد بمصر في أوائل عهد الاحتلال البريطاني أن الحجاز بيثة وبائية بطاعمه ، يجب جملة تحت سلطة الحجز الدولي دائماً لذاته ، فجاهد المرحوم سالم باشا سالم كبير اطباء مصر (والطبيب الخاص لسمو الخديو توفيق باشا وأسرتة) يومئذ جهادا كبيرا دون ذلك ، حتى دحض كل شبهة تؤيد هذا الاقتراح ، وأثبت بالادلة الفنية الطبية والتاريخية ، أن الحجاز ليس بوطن لوباء الهیضة البوائية ، (الكولرة) ولا لنيرها من الأوبئة السارية المعدية . ولكنني لم أضع لهذه المسألة حاشية ، بل أدعها الى علم الامير الواسع ، ورأيه الناضج ، لعله يستدرك ما يرى استدراكه ممحصا لهذا الرأي (١)

(١) ارسلنا الى الامير مثالا من هذه المقدمة قبل طبعها فكتب إلينا هذا الاستدراك :-

« اقتراح تشديد الحكومات على الفقراء بدم الحج لم يكن مرادي به إلا منع الفقراء المعدمين الذين لا يستطيعون الى الحج سبيلا ، والذين اذا جاءوا الى مكة صاروا وقرأ على أهلها وحكومتها

وأما الفقراء الذين لم يبالغ فقرهم هذه الدرجة فليسوا المراد بكلامي . واني أوافق الاستاذ على كون دول الاستعمار تشدد الشروط عمداً على من يريد الحج المستطيع وغير المستطيع ، وذلك قطعا لصلاة المسلمين بمكة وعزلا لهم عن اخوانهم في الدين . واذا سمحت احبانا بالحج فيكون على كره منها وتمناض من ذلك باكره =

وها أنا ذا أؤف إلى قراء العربية هذه الرحلة النفيسة ، والارتسامات اللطيفة ، ولا ريب عندي في أنهم يقدرونها قدرها ، ويعنون معي بنشرها ، وبت الدعاية إلى العمل بما فيها من النصيحة الثمينة ، التي تتوقف عليها حياة هذه الأمة المسكينة ، التي كانت هي الناصرة لدعوة الاسلام ، والمفيضة لنور هدايته ، والمنجزة لأنهار حضارته ، وباحيائها وعمران بلادها يناط بقاءه ، وبعود رواؤه ، وينضر إهابه ، ويتجدد شبابه ،

= الحجاج على ركوب بواخرها ، وتفرض عليهم أجرة فاحشة ونحصرهم فيها حشر أيزيد قهرهم ، وفي السنة الفائتة لم تزل فراسة تتنوع في الشروط وتتمت على الحجاج حتى لم يقدر على الحج إلا ٣٠ شخصاً من كل جزائر الغرب مع أن الذين كانوا اتوا الحج هم أكثر من ألف وتسعمائة

ولا يكثر على الفرنسيين بعد ذلك أن ينوا بكرة واصيلا على مسلمي المغرب بالحريية الدينية التي امتعوم بها ، وان يملأوا جرائدكم بما منحوم منها ، حتى يحال من لم يطلع على الحقيقة ان مسلمي المغرب راتون في مجامع الحريية الدينية كما يصفها هؤلاء الخطباء والكتاب

والحقيقة أن أهل المغرب جميعاً في عناء شديد من كل جهة ولا سيما من جهة حرية الاجتماع بسائر المسلمين بل من جهة حرية اجتماعهم بعضهم مع بعض ومنذ نحو شهر نادى النادي في أسواق فاس بأنه ممنوع ذهاب التجار للبيع أو للاشراء بين قبائل البربر . وجميع الناس يعلمون انه لا يقدر أحد من الفقهاء ولا من حملة القرآن ولا من مشايخ الطرق الصوفية ان يدخل قرى البربر ولا أن يجول في الخيال التي هم فيها إلا باذن خاص من الحكومة على حين مئات من الرهبان والراهبات والاقسة والمبشرين يجولون في بلاد البربر كيف يشاؤون وينوب المدارس والكنائس

فهذا هو كنه الحرية الدينية التي تمن بها فراسة على مسلمي المغرب . ومن كان في شك من كلامنا هذا فليذهب إلى تلك البلاد أو فليسأل الثقات من أهلها

وأختم هذا التصدير لها بما يؤيد قولي هذا من الاحاديث النبوية في شأن الحجاز ومستقبله ، وكونه مأرز الاسلام وممقله ، وحصنه وموئله ، عند ما يشتد على المسلمين البغي والمدوان ، وبركبون المناكير فيناكرهم الزمان ، او تستباح بيضتهم بما أعرضوا عن هداية القرآن

قال رسول الله (ص) « ان الايمان ليأرز الى المدينة كما تأرز الحية الى جحرها » (١) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة .

وأعم منه وأدل على المراد قوله عليه الصلاة والسلام « إن الاسلام بدأغريباً وسيمود غريباً كما بدأ ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها » رواه مسلم من حديث ابن عمر

وأعم منه وأظهر قوله (ص) « ان الدين ليأرز الى الحجاز كما تأرز الحية الى جحرها ، وليعقلن الدين من الحجاز ممقل الأروية » (٢) من رأس الجبل . ان الدين بدأ غريباً ويرجع غريباً فظوئوا للغرباء الذين يصاحون ما أفسد الناس بعدي من سنتي »

وأوسع من ذلك كله وأدل على الباعث عليه ما رواه أحمد والبخاري ومسلم

(١) أرز كمل انضم واجتمع وانكمش (وورد لغة من بابي ضرب وقعد) والمعنى انه سيعود الى المدينة والحجاز كله ويأوي اليه كما تعود الحية الى جحرها ولا سيما اذا خافت

(٢) الاروية بضم الهمزة وكسر الواو وتشديد الياء أنثى الوعول وهي تنعم في أعالي الجبال . والمعنى أن الاسلام سيضعف ويصير غريباً ومضاهداً في الاقطار فلا يجد له حصناً ومقلاً إلا الحجاز فيتمهم فيه كما تنعم الاروية في شناخيل الحبال

من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ أوصى عند موته بثلاث أولها « اخرجوا المشركين من جزيرة العرب » وما رواه أحمد ومسلم والترمذي عن عمر (رض) أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « لا تخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها الا مسلما » وما رواه أحمد من حديث عائشة (رض) قالت آخر ما عهد به رسول الله ﷺ أن قل « لا يترك بجزيرة العرب دينان » وروى عن أبي عبيدة عامر بن الجراح قل: آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ « اخرجوا يهود أهل الحجاز ونصارى نجران من جزيرة العرب » والمراد انه آخر ما أوصى به عند موته ، وأما آخر كلمة نطق بها ﷺ فهي « اللهم الرفيق الاعلى »

وقد بينت في مواضع من جزء التفسير المائس وغيره حكمة هذه الوصايا النبوية، وهي ما أطعم الله تعالى عليه رسوله وأخبر به كافي حديث ثوبان (رض) وغيره، من تداعي الامم على المسلمين كما تتداعي الأكلة على قصعتها، وسلبهم ملكهم، واضطهادهم لهم في دينهم، إلى أن يضطروا إلى الالتجاء إلى مهد الاسلام الاول، وممقله الاعظم، ومأرزه الآمن، وهو الحجاز وسياجه من جزيرة العرب. ولذلك أوصى بأن يكون هذا الممقل خاصا بالمسلمين لا يشاركون فيه غيرهم، فهذه الوصية من دلائل نبوته ﷺ قد ظهر سرها في هذا العصر

وهأنحن أولاء نرى أعداء الاسلام مازالوا يطاردون المسلمين حتى

انتقوا بهم إلى جزيرة العرب ، وطفقوا ينازعونهم فيها ، بل وصلوا إلى الحجاز واستولوا بمساعدة بعض أمرائه دلى أعظم موقع من معاقلة البرية والبحرية (ما بين العقبة ومعان) وصاروا باستيلائهم على سكة الحديد الحجازية على مقربة من المدينة المنورة التي خصها الرسول ﷺ من هذه الوصايا بالذكر ، وأنشأوا يؤسسون وطنا لليهود في جوارها من فلسطين التي يدعون أنها لهم وحدهم ، وسيطلبون ضم خيبر إليها ، بأنها كانت لهم وأخرجهم عمر بن الخطاب منها .

فاذا لم تتعاون جميع الشعوب الاسلامية على مساعدة حكومة الحجاز بالمال والنفوذ الصوري والمعنوي على حفظ الحجاز وعمرانه ، بل إلجائها الى ذلك واضطرارها اليه ، فستقطع قلوبهم اسفا وندما ، ويذرفون بدل الدموع دماء ، إذ لا ذات مندم ، ولا متأخر ولا متقدم ، ولقد كنت في حيرة لا أهددي السبيل إلى أقرب الوسائل لهذا العمران ، حتى وجدته مرسوما في هذه الارتسامات ، داحضة أمامه جميع الشبهات ، فبادروا اليه أيها المسلمون (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات)

وكتبه ناشر الارتسامات .

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلّة المنار

الآنسة فاطمة اللطيفة

في خاطر الحاج إلى أفدس مطاف
وهي الرحلة الحجازية لأمة البيان ونادى الزمان

الأمير شكيب أرسلان

وقف على تصحيحها وعاق حواشيها

السنية محمد بن بشير بن فضا

منشئ مجلته

الطبعة الأولى في سنة ١٣٥٠

مطبعة المنبر العربي

شارع الأنشاس رقم ١٤

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الخلاق، وسبحان الله وبحمده في العشي والإشراق،
ونشهد أن لا إله إلا الله شهادة الإخلاص التي نرجو بها الخلاص يوم
التلاق، وتهون بها سكرات الموت إذا حشرجت الأنفس في التراق،
ونشهد أن محمداً عبد الله ورسوله أشرف الخلق على الإطلاق، المبعوث
لإقامة الحق والعدل وإتمام مكارم الأخلاق، بكتاب باهر الحجة، وسنة
واضحة المحجة، وبراهين كالصبح في الأفلاق، والشمس في الأثلاق،
صلى الله عليه وعلى آله الغطاريف، وعلى أصحابه الصناديد، وعلى
انصاره الكرام العتاق، الذين نشروا التوحيد المحض في الآفاق، وجمعوا
كرم الأفعال إلى كرم الأعراق، ما هبت نسائم الأسجار، وفتقت
كأثم الأزهار، وسجعت الورق على الأوراق، وسلم تسليمًا كثيرًا

(وبعد) فقد مضت علي حجاج كثيرة وأنا أعمّ باداء فريضة الحج،
والعوائق تعوق، والله! من حول إلى حول تحول، إلى أن يسر الله
باطافه وحسن توفيقه بي أداء هذا الفرض في سنة ١٣٤٨ أي منذ سنتين
كاملتين. فكان قصدي إلى الحجاز من لوزان بسويسرة، عن طريق نابولي.

بايطالية، اذ ركبت منها البحر على باخرة انكليزية الى بورسعيد حيث
 تزلت، وفي اليوم التالي ذهبت الى السويس، ومنها ابجرت الى الحجاز، في
 باخرة مكتظة بالحجاج، فأحر منا ولبينا من بحر رابغ، ووصلنا الى جدة
 من السويس في اليوم الرابع، على ما وصفت في رحلتي الحجازية التي
 سيقراها المطالع. وفي مساء يوم وصولي الى جدة يسر الله دخولي الى البلد
 الامين. مبادرا الى البيت العتيق بالطواف، والى المروة والصفاء بالسمي،
 وبعد ذلك بيومين صعدنا الى منى فعرفة، ثم افضنا منها الى المزدلفة،
 حيث بتنا ليلة، ثم عدنا الى منى حيث لبثنا ثلاث ليال، وودنا الى البيت
 الحرام، وتمنا مناسك الحج، والله يتقبل منا، ويتوب علينا، انه قابل
 التوب غافر الذنب العلي الكبير، لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون
 ذلك لمن يشاء ويعفو عن كثير.

ولقد وجدت مناسبا ان انشر ما ارتسم في مخيلتي من هذه المشاهد،
 وما انطبع في لوح دماغي من مناظر تلك المشاعر المباركة والمعاهد،
 مقرونا بما يعن لي من الآراء، مشتملا على ما عندي من الملاحظات التي
 احب أن يطالع عليها القراء، فارسلت الى جريدة «الشورى» بمقالات
 كنت أنشرها فيها الفينة بعد الفينة، ذاكرآ فيها مكة وعرفة، ومنى
 والمزدلفة، وتلك البقاع المعظمة المشرفة، ولما كنت بعد ذلك قد صعدت
 الى الطائف مستشفيا من سقم اصابي في اثناء اداء الفريضة، كتبت

أيضا عن الطائف وجبالها ومرابعها ومنارها، وجنانها وكرومها وفواكهها، ولم أقصر في الوصف على جناتها الناضرة ، وأحوالها الحاضرة ، بل كررت النظر الى الوراء من امور تاريخية ماضية ، ومددته الى الامام في امور اجتماعية مستقبلية ، بحيث جمعت في هذه الرسائل بين مباحث جغرافية وتاريخية ، ومواقف سياسية واجتماعية ، ومسائل عمرانية واقتصادية ، ودقائق لغوية وأدبية ، متناولا من القديم والحديث، ومتنقلا بين التالد والطريف . ومن حيث اني كنت أصدرها من وقت الى آخر في جريدة سيارة كانت هيئتها اقرب الى اسلوب الجرائد منها الى أسلوب الكتب ، لان الكتاب اذا كتب بين أسبوع وآخر متأثرا بالعوامل المختلفة ، ملاحظا المتجددات اليومية ، مراعيًا حالة قرائه الروحية ، ذهب به الاستطراد كل مذهب ، وشردت به شجون القول فشرق وغرب ، ولهذا جاء في هذا الكتاب استطراد ليس ييسر من فصل الى فصل ، وان كان جميعه مرتبطا بالموضوع ومردودا الى الاصل

ثم رأيت ان اكمل هذا التأليف على الخطة التي انتهجتها اولاً من نشره رسائل متفرقة على الاسابيع قد يأخذ وقتا طويلا ولا ينتهي باقل من سنتين أو ثلاث ، على أني صرت مشغولا مستغرقا برحلي الاندلسية ، التي قد تأخذ مجلدات عدة ، ولا يتأتى لي الاشتغال بنيرها هذه المدة ، فعدلت مؤخرا عن الطريقة الاولى ، وقطعت رسائل هذه « الارتسامات » عن الشورى ، وانصرفت الى اكمل هذا التصنيف تَوًّا

حاثا مطية القلم الى غايته ، ماضيا به بلا توقف الى آخره ، فكان ما نشر منه في الشورى نحو الثلث ، وما لم ينشر في الشورى ولا في جريدة غيرها بنحو الثلثين

هذا ولما تسنى اكمله ، وبلغ الابدار بهلاله ، رأيت ان أتوجه باسم جلالة الملك الهمام ، الذي هو غرة في جبين الايام ، عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد ومحقاتها ، تذكارا لجميل الامن الذي مد دلى هذه البلدان سرادقه ، وعرفانا لقدر العدل الذي وطد فيه دعائمه وناط بالاجراء موافقه ، وابتهاجا بالملك العربي الصميم الذي صان للعروبة حقها وللاسلام حقائقه ، أدام الله تأييده ، واطلع في بروج الاقبال سعوده ، وخذل شمس الشارقة ووفقه للاتفاق مع سائر ملوك العرب وامرائها ، والعمل مع رجالاتها العاملين لرقبها وعلائها ، ولا سيما الملكين الهمايين ، الفاضلين الكاملين ، الماهدين المجاهدين ، المتوكل على الله الامام يحيى بن محمد بن حميد الدين صاحب النمن ، والملك فيصل بن الحسين ، صاحب العراق والرافدين ، أدام الله توفيقهم جميعا لما به حفظ تراث الامة العربية ، وابلاغها المقام الذى تسمو اليه نفوس العرب الالية ، وحياطتها بوحدة الكلمة من سطوات الغدر ، وغوائل المكر ، التي لا تفارق حركات الدول الاجنبية ، والله تعالى سميع الدعاء ، كفيل بتحقيق الرجا : آمين

وكتب بلوزان في ٥ ذي الحجة الحرام ١٣٤٩

تكتب أرسله

من السويس الى جدة

(ووصف الاحرام والتلبية)

فصلنا من ميناء السويس في ٨ مايو على باخرة تقل نحواً من ١٣٠٠ حاج من اخواننا المصريين ، وفيهم بعض المغاربة ، فسارت بنا الماخرة رهواً ورخاء لم نشعر فيها الى جدة بأدنى حركة للبحر تزعج الراكب ، وانما كان المزعج هو اكتظاظ السفينة بالراكبين حتى لا يقدر أحد أن يمر من شدة الزحام وفي اليوم الثالث من مسيرنا نأوحنا ميناء رافع ، ولما كان الحجاج الوارد من الشمال في البحر الاحمر عليه أن يحرم من رافع فقد احرم جميع الحجاج الذين في الباخرة ، وارتفعت الاصوات من كل جهة « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » فاستشعر الناس من الخشوع في اثناء ضجيج الحجاج هذا ما اتصل باعماق القلوب ، وتغلغل في سرائر النفوس ، وأحس الجميع ان البيت الذي يخضع الناس تعظيماً له انواهم قبل الوقوف بعتبته بمسيرة يومين ، ويشتملون في اقتصد اليه ما ليس فيه شيء من الخيط ، لبيت مقدس ، لا يؤمه الناس كما يؤمون سائر البيوت ، وانه فوق بيوت الملوك ، وفوق مقاصير القياصرة ، وأواوين الاكاسرة ، التي لا يحرم في الطريق اليها احد لامن بعيد ولا من قريب

وما زال الناس مستشعرين الخشوع تلك الليلة ، مواظبين على التلبية ، مترقبين طلوع الفجر الذي يدينهم من جدة ، ميناء البيت العظيم الذي يؤمونه ، إلى أن انفلق الصبح ، وأخذت تبدو جبال الحجاز للعين المجردة ، فارتفعت الاصوات بالتهليل والتسبيح والتكبير ، وازداد ضجيج التلبية للعلي الكبير ، وخالط اهلية والخشوع

بالقدوم على البيت الحرام ،الفرح والابتهاج بالوصول إلى أظهر بقعة وأقدس مرام، ولم تكن ترى إلا عيوناً شاخصة ، ولا نحس إلا قلوباً راقصة ، والجميع متطلعون إلى سواحل الحجاز منتظرون بذهاب الصبر أن يقبلوا على جدة . فلما كان ضحى اليوم الرابع من ذي الحجة دخلت الباخرة مرسى جدة ، لكن بتؤدة عظيمة لما في هذا المرسى من الجبال والصخور التي تسكد رؤوسها تبرز من تحت لجج البحر وإذا بخمس عشرة باخرة راسيات في ذلك الميناء على أبعاد متفاوتة من البر

وصف مبره وغرابة ألوان بحرها

ولقد طاب لي من ميناء جدة منظران لا يزالان إلى الآن منقوشين في لوح خاطري (احدهما) رؤية هذه البواخر الواقفة في الميناء ناطقة بلسان حالها : انه وإن كانت هذه السواحل قفاراً لا تستحق ان ترفأ اليها البوارج ولا السفن فان وراءها من المعنوي امرأً عظيماً ،ومقصداً كريماً ، هذه البواخر الكثيرة ماثلة أمام جدة من أجله ، ولقد قبل لي في جدة ماذا رأيت ؟ فن العادة ان تحتمع في مياه جدة ثلاثون باخرة وأربعون باخرة ، وقد يبلغ عدد الراسي فيها الى خمسين باخرة، حتى يعود البحر هناك غاباً أتباً ، وتظن نفسك في هامبورغ أو نيويورك وأما المنظر الثاني فهو منظر مياه هذا الميناء ، فلقد طفت كثيراً من البحار وعرفت أكثر البحر المتوسط والبحر الاسود وبحر البلطيك وبحر المانش والاقيانوس الاطلانتيك، ولم يقع بصري على شيء يشبه مياه بحر جدة في البهاء واللعمان . كنت كيفما نظرت يمنية أو يسرة اشاهد خطوطاً طويلة عريضة في البحر اسببه بقوس قزح في تعدد الالوان ، وتألق الانوار ، من احمر وأزرق وبنفسجي وعنابي وبرتقالي وأخضر الخ . ولا فرق بين هذه الخطوط وبين قوس قزح سوى ان هذه الخطوط مستقيمة وان قسي قزح مقوسة ، وان هذه في السماء ، وهاتيك في الماء ، وقد تشبه هذه الخطوط ذبول الطواويس ، لا فرق بينهما إلا في كون هذه الذبول

المنسحبة على وجه البحر عظيمة جداً تمتد مئات من الامتار وبعض عشرات منها. ولكن في تعدد الالوان وموازاة بعضها لبعض وشدة تألقها الآخذ بالابصار لا تجد بينها بونا . فكأن في كل جهة من بحر جدة مسرح طواويس ساححة في اللجج الخضضر وظهورها إلى سطح الماء الواحد منها بقدر الف طاووس مما نهده

قضيت انعجب من هذا المنظر وقلت ان مثل هذا الميناء لا تخله النواظر ، ولا تشبهه المناظر، مهما كانت نواضر . ثم سألت ربان الباخرة - وهي من البواخر الهندية ربانها انكليزي - عما إذا كان رأى هذا المنظر في بحر آخر وقلت له إنني جلت كثيراً في الدنيا، ورأيت أبحرا وبحيرات وأنهارا لا تحصى ، ولم أعهد مسرح لحظة على سطح ماء يحاكي في البهاء هذا الميناء ، فما قونك انت ؟ قال لي : مهما يكن من سيرك في الارض ومعرفتك للبحار فلا تعرف منها جزءاً مما اعرف ، وانا اقول لك اني لاعهد هذه المناظر البديعة الا لهذا الميناء وحده . فسألت عن السبب في تشكل هذه الالوان . فقال : ان قعر البحر هنا ليس بيبعد وان فيه اضلاعاً مكسوة نباتا بحريا متنوع الالوان والاشكال ، وان هذه الاضلاع ناتئة قريبة من سطح الماء فتنعكس مناظرها الى الخارج ، ويزيد هانور الشمس رونقا واشعاعا وقيل لي فيما بعد ان ملوحة البحر الاحمر زائدة، وان هذه الملوحة هي السبب في تكون هذه الشعاب التي تكثر في هذا البحر وتجعل مسالكه خطيرة ، وان هذه الشعاب تنمو وتعلو حتى تقارب سطح الماء ، ومنها ما يبرز عن سطح الماء فيكون جزيرة . وان هذه الشعاب متكونة من أعشاب وحيوانات بحرية من طمسة الاسفنج ، وهي ذوات ألوان شتى كلها ناصع ، ومنها ماهو أحمر ساطع ، ومنها ماهو أخضر ناضر ، ومنها ماهو اصفر فاقم ، ومنها ماهو دون ذلك ، وقد يقتلع الملاحه والنواصة منها أشجاراً تسمى بشجر المرجان ، وهي في غاية الجمال ، ومن ابهى ما يوضع في ابهاء القصور للزينة .

فهذه الشعاب هي التي تنعكس ألوانها على سطح الماء فتكون أشبه بذيول الطواويس أو بقسي السحاب ، وهي في الوقت نفسه الاخطار الدائمة على السفن ، والغيلان المتحفزة لابتلاعها . فسبحان الذي أودع فيها الحسن والكمته أنزل فيها البأس ، وجعلها غائلة للمراكب . ولقد صدق المثل (ان من الحسن اشقوة)

قلوا : وان آمن مرسي في الحجاز مرسي رابع ، ذلك لعمق غورد وقلعة شعابه ، وعللوا ندور الشعاب فيه بكون ملوحة بحر راغ اقل من ملوحة سائر المراسي ، وهذا من كثرة السيول المنصبية على رابع ، فالماء الحلو قد نقص من ملوحة ميناء رابع ، وعافاه من تلك الشعاب التي هي آفة الموانئ الاخرى في البحر الاحمر

وحبذا لو قامت هيئة جيولوجية بالفحص اللازم لاحوال البحر الاحمر الطبيعية وأعطت حكمها في اسباب تكون هذه الشعاب وكثرتها في هذه الموانئ . وفي منشأ هذه المماثر الحميلة التي تلوح لرائي اذا أقبل عليها ، ون الاسباب التي ذكرناها لم تتو كأ فيها على تقرير فني ، بل على الكلام الذي يدور على ألسنة الناس

هذا ما كان من تأثير بحر جدة في خاطري . فمأ بر حدة فالبلدة لا بأس بها ، ولا يوحش الداخل منظرها . نعم ان بساءها لا يزال كأنه من القرون الوسطى ، ولكن بساء القرون الوسطى ليس كله منبوذاً . وقد بدأ المهندسون يقلدونه ويرجعون إلى كثير منه . وامري است ممن يحب الجدة خلدة في طرز البناء ولكني أتمناها لها في استعمال الآلات انيكانيكية الحديثة ، والضرق العصرية في مرافق الحياة وفي الصناعة والتجارة وسائر أركان العمران ، وما اسلوب البناء فليس فيه ما يسترجع بل أرى نجارة الابنية فيها راقية . وهذه الرواشن الكثيرة اللطيفة التي قد أعجبت الكولونل لورانس الانكليزي — يوم جاء جدة في الحرب الكبرى — قد أعجبتني انا ايضا

وقد اخنت الحرب الكبرى على معظم عمران جدة فيما اخنت عليه من عمران هذا العالم . وازداد جزرها في الحصار الاحير- قبل ان استولى عليها الملك ابن سعود فلما ألتقت بمقاليدها إلى جلالته بدأ يتراجع اليها العمران ، واستؤنف النشوء . ولا تمضي سنوات معدودات حتى تسترجع درجة عمرانها السابقة

شعوري القومي

في جدة والمحجاز

يلذ الانسان عند دخوله إلى جدة تذكره انها باب مكة المشرفة وان المزار أصبح قريبا . وقد لذني انا يوم دخولي اليها زيادة على ذلك ما شعرت به من اني هنا لست تحت سيطرة أوربية ... نعم شعرت منذ وطئت بقدمي رصيف جدة اني عربي حر في بلاد عربية حرة . شعرت اني تخلصت من حكم الاجنبي الثقيل الملقى بكل كلكه على جميع البلاد العربية - وبالله اسف - حاشا لمليكتي الامامين عبدالعزيز ابن سعود وبجي بن محمد حميد الدين .

شعرت اني حر في بلادتي وبين ابناء جلدتي، لا يتحكم في رقبتي المسيو فلان ولا المستر فلان الخ بحجة انتداب او احتلال ، او سيطرة او حماية او وصاية ، او غير ذلك من الاسماء المخترة التي يراد بها تنعيم مس «الفتوحات» وتخفيف مرارتها في الاذواق . شعرت اني ان كنت خاضعا هنا لحكومة فكخضوع لويد جورج لحكومة إنكلترة ، وكخضوع كايمنسو لحكومة فرنسة ، اي اني خاضع لحكومة عربية بحجة رأسها وأعضاؤها مني وإلي وأنا منها واليها ، وبعبارة أخرى اني هنا خاضع لنفسي ، وان كل من أراه من رعاياها انما هو خاضع لنفسه ، وأن الامر في هذه الديار مع العرب هو على حد ما قال الصوفية : المكلف هو المكلف . وان تعداد الموجودات هو تعداد ألوان لا تعداد أنواع

شعرت ان رئيسي هنا هو ابن جلدتي الذي يغار علي كما أغار على نفسي ، وان الجند الذي يحيط بي ويحفظ الأمانة علي وعلى غيري هم ممن أجتمع واياهم في ارومة واحدة ، ومن أرمي واياهم الى هدف واحد ، فلا تثقل علي سلطاتهم ، ولا يتكأ دني

الخضوع لنظامهم، لاني أرى فيه نظام أمّتي وانتظام شملي . وليس هنا ذلك الرئيس الغاشم ، اثثيل الوطاة ، السيء النية ، المتكبر المتجبر المتغطرس ، الغريب غني ، الذي لست منه ولا هو مني ، الآتي إلى بلادى ايتحكم في أمورها ويستغل خيراتها ، وبضرب على سكانها الذل والمسكنة ، لانه لا يقدر ان يعتز إلا بذلم ، ولا ان يثري إلا بفقرهم ، ولا ان يقوى إلا بضعفهم ، ولا ان ينصع وجهه إلا بفقر دمهم . وسيأتي يوم نقول فيه : ولا يحيا إلا بموتهم

لم أكن هنا في البلاد التي مع انها وطني ووطن آبائي وأجدادي ، ووطن قومي وأمّتي ، وجني سوا عدم ، وثمره دماهم التي سالت فيها أنهاراً ، لا يؤذن لي ان ألقى عليها نظرة بعد غربة مطاولة ، ونبوة متبادية ، ولا ان أدوس على ترابها بقدم خفيفة ولو ساعة من الزمن ، وذلك لان غريباً غاب عليها فقمض على أعنتها وتصرف بها كيف شاء ، يدخل من يشاء ، ويخرج من يشاء ، فأصبح هو صاحب البيت وأصبح أصحاب البيت هم الغرباء ...

سعرت في الحجاز اني تظلمي راية عربية محضة حقيقية ، لاراية مشوبة بشعار أجنبي ، ولا راية ليس يسير من تحتها جند عربي إلا ما كان من قبيل مرتزقة او مستأجرين تحت قيادة من لا يرقب في هذه الامة إلا ولا ذمة ، وانما ينظرون

اليها كضعاف اللام التي تدعي عليها الوصاية وكتمم لاسباب رفاهيتها ونعيمها لقد صدقت الجريدة الدمشقية التي قالت : انه لم يبق في البلاد العربية بلاد أقدر ان أذخاها إلا الحجاز . والحقيقة اني أدخل آية بقعة أردت دخولها من جزيرة العرب حامداً لله على بقاء هذه الجزيرة تحت سلطان أهلها دون سواهم ، وعلى ان حكومات الحجاز ونجد واليمن لا تعرف شيئاً من الامتيازات الاجنبية التي تكاد تغرق في لججها الامم التي تحت الوصاية ، والتي لا يزال منها رسيس حتى في تركيا فالفرنجي - سواء في مملكة ابن سعود او في مملكة الامام يحيى - خاضع للشريعة الإسلامية بجميع أحكامها .

الملك ابنه السعود

نم شاهدت جلالة ملك هذه الديار وخادم الحرمين الشريفين عبد العزيز ابن عبد الرحمن بن سعود وكان في جدة ذلك اليوم . فوجدت فيه الملك الاشم الاصيد، الذي تلوح سماء البطولة على وجهه ، والعاهل الصنديد الانجد الذي كأنما قد ثوب استقلال العرب الحقيقي على قدمه ، فحمدت الله على ان عيني رأث فوق ماأذني سمعت، وتفاءلت خيراً في مستقبل هذه الامة.

لأقصد في اعجابي هذا بشخصية الملك ابن سعود تنقص أحد من ملوك العرب الآخرين ، ولا التعريض باي ملك او أمير ينطق بالضاد ، بل نحن نتمنى تأييد الجميع وتسديد الجميع كما نتمنى تأييد ابن سعود وتسديده بدون فرق ، وحباً بمصلحة الامة العربية التي استقلالها مربوط باستقلالهم فأما اذا كانوا يشترطون على المحب لهم والمتواجد على خيرهم ان يكره لهم ابن سعود ، او ان يسكت عن الاشادة بحسناته، والاعجاب بما آتاه الله من المواهب ، فان شرطاً كهذا ليس من الانصاف في شيء . ويكون من البديهي اننا لا نقبله

ركبت بدعوة جلالة الملك ابن سعود إلى يساره في السيارة (اصطلحوا في الحجاز على تسمية الاوتوموبيل سيارة وقديقولون موتر اي Moteur ويجمعونها على مواتر) وسرنا بمعيتة مساء يوم وصولي ، وذلك إلى البلد الامين ، حماء رب العالمين

ولم أجد الحرارة في جدة فوق ماتتحمله النفس حتى نفس الذي لم يتعود الحر، نظير هذا العاجز . بل هواء البحر يرطب جو جدة ويخفف من سموم الصحراء ، وذلك بخلاف مكة التي حرها شديد

الطريق من مدهبه الى مكة

فأما الطريق من جدة إلى مكة في هذا الفصل فليس فيها مايسرح به النظر في مؤنق او ناضر . فلا تري من أولها إلى مايقارب آخرها غصنا أخضر يلوح ، ولا رقعة بقدر المكف خضراء . ولا يكاد يقع بصرك من الجانبين إلا على رمال

محرقه تدخل العشايا ويجن الليل وهي حافظة لحرارة النهار، وعلى آكام وأهاضيب أكثرها من الحجارة السود كأنها من بقايا البراكين.

ولما وصلنا الى بحرة ظننت اني أرى فيها قرية أشبه بالقرى فاذا بمجموع عشاش واخصاص وبيوت لاترعى ناظرًا، وهناك اماكن استعاروا لها اسم المقاهي، وهي في الحقيقة اخصاص تشتمل على مقاعد من خوص يجلس عليها المسافرين الذين بلغ بهم الجهد، فيشربون شيئًا من الشاي او ينقعون غلتهم بماء لا غناء فيه. وكان الاولى باهل مكة وجدة ان يجعلوا من بحرة منزلا تقرر به عين المسافر ويجد فيه خضرة ونعما بعد تلك الرمال المحرقة والآكام الجرداء والامل ان حكومة الملك ابن سعود تنظر الى هذه العلة فتزيهاها

وقد قيل لي ان طريق جدة الى مكة ليست طول السنة في هذه القسوة التي رأيتها فيها، بل هي في الربيع غيرها في الصيف إذ يرى منها المسافر في الربيع كلاً كثيراً، وخصباً نضيراً، وقتاداً وطاخاً، وشجراً وسرحاً

وكانت قوافل الحجاج من جدة الى مكة خيطاً غير منقطع والجمال تتهادى تحت الشقائف، وكثيراً ماتصيق بها السبيل على رحبها، وكان الملك أيده الله من شدة اشفاقه على الحاج وعلى الرعية لا يرفع نظره دقيقة عن القوافل والسوابل ولا يفتأ ينتهر سائق السيارة كلما ساقها بعجلة قاتلاً له: تريد ان تدبح الناس. وكل هذا الشدة خوفاً ان تمس سيارته شقده او تؤذي جملاً او جملالاً، وهكذا شأن الراعي البر الرؤف برعيته، الذي وجدانه معمور بمعرفة واجباته

وما زلنا نسير حتى دخلنا حدود مكة التي يحرم فيها الصيد فالمسافة بالسيارة لاتتجاوز اربع ساعات، وبعد ذلك وصلنا الى الثكنة العسكرية وصرنا بين البيوت، فعلمنا اننا قد عرفنا بدخول البلدة التي تشرفت بمولد محمد سيد الوجود، وبالبيت الذي طهره ابراهيم واسماعيل للطائفين والعاكفين والركع السجود، فقصداً توأ الى البيت الحرام حيث طفئ وسعينا، وجارنا ودعونا، والله يتقبل الدعاء ويغفر الذنوب في ذلك المقام الكريم (قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لاتنظروا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم)

الكلام على مكة المكرمة

(صفاتها الحسية ، ومكانتها المعنوية ، وكعبتها البهية ، وهوي القلوب اليها من جميع البرية ، ووزقها من جميع الاغذية والثمرات ، استجابة لدعاء ابراهيم عليه السلام)

جعل الله مكة مكانا لعبادته تعالى لاغير . وكأنه سبحانه وتعالى لما قضى بأن تكون محلا للعبادة ومتابة للناس وأمناء، قضى ايضاً بتجريدتها من كل زخارف الطبيعة، ولم يشأ أن يطرزها بشيء من وثنى النبات ، ولا أن يخلصها بشيء من مسارح النظر المؤتفة، حتى لا يلهو فيها العابد عن ذكر الله مخضرة ولا غدبر ، ولا بنضرة ولا نمير ، ولا بهديل على الاغصان ولا هدير ، وحتى يكون قصده إلى مكة خالصاً لوجه ربه الكريم، لا يشوبه تطلع إلى جنان أو رياض ، ولا حنين الى حياض او غياض . وحتى يبتلي الله عباده المحاصن الذين لا وجهة لهم سوى التسبيح له والتأمل في عظمته تعالى، فكانت مكة أجرد بلدة عرفها الانسان، واقفل بقعة وقعت عليها العينان .

مكة هذه البلدة المقدسة التي هي فردوس العبادة في الارض وجنة الدنيا المعنوية ، عبارة عن واد ضيق ذي شعاب متعرجة ، تحيط بذلك الوادي جبال جرداء صخرية صماء ، لاعشب ولا ماء ، فاقمة اللون كأنها بقايا البراكين ، إذا مر عليها الانسان يوم من أيام الصيف في هاجرة ظن نفسه يدوس بلاط فرن او يضطجع في حمام. وان ترك على تلك الصخور شئاً كاد يشتوى بالانار ، او ماء كاد يغلي بلا وقود . وليس في تلك الشعاب اشجار ولا أنهار ، ولا مروج ولا عيون تلطف من حرارة تلك الحجارة السود في حمارة القيط . وكأن القاصد

إلى هذا الوادي انما يزداد بهذه التسوية الجغرافية أجراً وثواباً وارتفاع درجات .
فبقدر ما أفاض الله على هذا المكان من الشعاع المعنوي قضى بجرمانه من
الحلية المادية .

وقد وصف الله تعالى هذه الحالة فقال عن اسان ابراهيم عليه السلام (ربنا إني
أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا
الصلاة) و ظاهر من هنا انه واد مجرد للعبادة دون غيرها ، وانه غير ذي زرع
ولا ضرع ليزداد اجر الناس بالقصد اليه والمكوف فيه . ولما كان سد الرحل
الى واد كهذا خال من جميع اسباب الحياة تقريبا ليس مما يرغب فيه الناس الذين
من عادتهم ان يقصدوا الاماكن لرغيدة والمتنزهات ، وأن يعولوا على البقاع المريعة
التي يأتيها رزقها رخاء ورغداً دعا ابراهيم ربه فقال (فاجعل أفئدة من الناس
تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)

فبدعوة ابراهيم هذه هوت الى هذا المكان والى المتمكنين فيه أفئدة
ورفرت عليهم جوائح من جميع أنحاء الارض ، وترى الناس منذ ألوف من
السنين يحجون هذا البيت المحرم ، ويحرمون قبل لوصول اليه بمراحل ، ويوفضون
اليه كأنما يوفضون الى انزه بقاع البسيطة واطمئنها نجمة واكثرها خيراً وميراً ،
وتجد قلوبهم في الرحلة اليه ملاءى بالفرح ، لا يكادون يصدقون انهم مشاهدوه
من شدة الوجد ، وغلبة الهيام ، حتى اذا شاهدوه فضت العبرات وخفقت الجوائح
وتمايلت الاعطاف ، وانتقل الناس الى عالم تكاد تقول انه غير هذا العالم قال ابن دريد :

يحمين كل شاحب محقوف من طول تدآب الغدو والسرى

ينوى التي فضلها رب السما لما دحا تربتها على النوى

حتى اذا قابلها استعبر لا يملك دمع العين من حيث جرى

وهم اذا وصلوا الى مكة وجدوا عندها من الثمرات والخيرات مالا يحيدونه .

في البقاع التي تشققها الانهار، وتظللها الاشجار . وذلك أن المجلوب الى مكة من أصناف الحبوب والخضر اوات والفواكه والمحمول اليها من البضائع والمتاجر واللباس والفراش والرياش والطيب وغير ذلك يفوق ما يجلب الى عشر مدن من أمثالها في عدد السكان وربما أكثر .

ولا يكاد الحاج يشتهي شيئاً إلا ويجده في هذه البلدة القاحلة ، فحول مكة من المزارع والمباقل والمباطخ والمقاني، وفي جمال الطائف من الجنان والبساتين والكروم مالا يأخذه العد ، ومالا يدرك منه شيء في فصل من الفصول إلا انهدر به اهله الى مكة ، فالثمرات التي دعا إبراهيم ربه من أجلها تفيض على البلد الأمين كائسيل المتدفق ، أو العارض المغدق

مياه مكة في الجاهلية والاسلام

وأما الماء فقد كن في أم القرى من أيام الجاهلية آبار نبع ومصانع مما يجتمع من مياه المطر . ومن هذه الآبار اليسيرة التي حفرها لؤي بن غالب ، والرومي التي حفرها مرة بن كعب ، وخم ورم وهما من حفر كلاب بن مرة ، والجفر والمجول وبذر التي حفرها هاشم بن عبد مناف . وسجلة وخم ورم أخريان حفرهما عبد شمس بن عبد مناف وأم احراد ، والسنبلة وهي حفر بني جهم ، والغمر لبني سهم ، والحفير لبني عدي ، والسقياء لبني مخزوم ، والثريا لبني تيم ، والنقع لبني عامر بن لؤي ، وبئر حويطب لحويطب بن عبد العزي من بني عامر بن لؤي ، وبئر أبي موسى الاشعري بالمعلاة ، وبئر شوذب ، وبئر بكار ، وبئر وردان ، وسقاية سراج ، وبئر الاسود للاسود ابن سفيان من مخزوم ، وغيرها ، ومن هذه الآبار ماهو معروف الى اليوم باسمه ومكانه ، ومنها ما قد طوي اسمه أو ردم مكانه ، فإذا سألت علماء مكة لم يعرفوه . والظاهر ان جميع هذه الآبار لم تكن لتكفي مكة في الجاهلية ، الى أن وسع عبد المطلب بئر زمزم فكثر الماء وارتوى الحجيج .

عين زبيدة - صمها الله

أما بعد الاسلام فكثر الحجاج أضعافا مضاعفة عن ذي قبل ، واشتدت أزمة الماء ، لاسيما في عرفة ومنى أيام الحج ، فانتدبت زبيدة امرأة الخليفة هارون الرشيد رحمها الله لهذا الامر وأسالت العين المسماة بعين زبيدة من مسافة نحو اربعين كيلو متراً ، وهو عمل عظيم جداً يستنطق الالسن بالترحم عليها كما ذكرت أو كما روى حاج ظاه أو أسغ وضوءه منذ نحو ١١٠٠ سنة الى اليوم - وإلى ماشاء الله ولقد حرت زبيدة رحمها الله هذا الماء من وادي نعان الشهير في قناة كانت تنتهي قبل الوصول الى مكة بمسافة ثلاثة ارباع الساعة ، وهذه القناة اكثرها تحت الارض ، وفي بعض الاماكن تظهر على وجه الارض تابعة لخطتها الهندسية ، وأما علو سقف القناة ففي بعض الاماكن يقدر أن يمر فيها الفارس راكباً ، وفي غيرها لا يقدر أن يمشي إلا الراحل ، وليس خطها مستقيماً على اطراد بل فيه تعاريج كثيرة قد تكون اقتضتها طبيعة الارض أو يكون مهندسو القناة مروا بعيون أرادوا أخذها في طريقهم فخرجوا إليها - وحيث ان القناة من الجانبين غير مطاية بالجبل ولا بمحصة ، بل مبنية بالحجر المسيط وذلك حتى ترشح الماء من خلال الحيطان ، لان الجبس من شأنه أن يمنع كما لا يخفى ، ومن دقائق هندسة هذه القناة انهم جعلوا انحدار الماء في المجرى خفيفاً وذلك خشية من ان يحفر في الارض فيما لو كان شديداً فتصير أرض المجرى مع توالي انقرون أسفل كثيراً من الحيطان فتصبح هذه على شفا جرف هار ، ولهذا القناة خرزات مفتوحة من سطحها على مسافة كل ٢٠ أو ٣٠ ذراعاً واحدة وذلك لاجل سهولة التعزيل قالوا ان زبيدة انفقت على هذه العين مليون دينار ، وانها لما انتهت من العمل جيء اليها بدفاتر الحسابات لمراجعتها فأمرت بظيها وقالت انما عملنا ما عملناه في سبيل الله ، فلا فرق بين أن تكون النفقة اكثر أو اقل

وكان في الماضي موكلاً بهذه القنطرة ثلاثمائة رجل من بيضة ، وكانوا يحرسونها ليلاً ونهاراً ومنهم أناس عند كل خريزة ، فأما الآن فإن الحكومة جعلتها لها دركاً خاصاً ومفتشين لا يزالون يترصدونها من رأس نبعها إلى مكة . وقيل لي أنه لا يزال في وادي نعمان عيون من الممكن شراؤها وإضافتها إلى عين زبيدة ، ثم إنه يوجد عين أخرى اسمها عين الزعفران جدتها مالكة أخرى اسمها زعفران قيل لي إنها من إحدى الأسر المالكة كانت بمصر ، ولم أجد ذلك في كتاب . فهذه العين مجرورة من وادي حنين من مسافة لا تقل عن مسافة قناة عين زبيدة إلا أن ماء عين زبيدة أغزر وأعذب ، وتتصل قناة الزعفران بقناة عين زبيدة في محلة المعابدة في أول مكة من جهة الداخل من منى ، وكان أحد سلاطين بني عثمان قد أوصل هذه المياه إلى مكة فأكل ذلك العمل العظيم الذي قامت به زبيدة واقتدت بها الزعفران فيما قالوا ، وبعد ذلك منذ نحو أربعين سنة جاء أحد الهنود المسلمين وتبرع بمبلغ من المال وجمع من مسلمي الهند مبلغاً آخر وبني بهذه الأموال بضعة عشر خزاناً للماء ، في كل حارة من حارات مكة خزان ، فكان بذلك للناس مرفق عظيم ، وهذا الخزان يقال له اليوم بمكة « بازان » وهي لفظة إنكليزية جاءت من الهند معناها بركة أو صهرج ، ومع هذا فقد بقي الماء عزيزاً في موسم الحج فربما بيعت قربة الماء بأربعين قرشاً

ولما تولى الخرجاز الملك عبد العزيز بن سعود زاد سبل الماء في مكة ومنى فأزاح جانباً كبيراً من العلة ، وفي أيامه تأسس في مكة معملان للجمد (الثلج) فكان في هذين المعملين من إزاحة العلة وشفاء الغلة ما لا يخفى على من يعلم حر مكة في أيام السرطان والاسد والسنبلة ، فقد أصبح أكثر الحجاج والسكان يشفون أوامهم بالماء المثلوج ، ولعمري لا أجد مؤنساً في حر كهذا الحر كألواح الجمد التي ترناح النفس إلى مجرد النظر إليها ، قبل النهل والعل منها ، وكأنها في فصل كهذا حصون منيعة يتقي بها الإنسان لفحات السموم ،

الحر في الحجاز وما يقتضيه من كثرة المياه

والحر في الحجاز نوعان: أحدهما الومد وهو الحر الشديد مع انقطاع الريح، والثاني السموم وهو الريح الحارة، وهذه الريح إذا اتقاها الإنسان بعنفة مبلولة بالماء أو بمحصر مرشوش بالماء معلق فوق باب أو نافذة انقلبت باردة وبالجملة فأشد ما يعاني المرء من حر مكة هو فيما لو تعرض للشمس في وسط النهار، أما المتعودون وابتناء مناطق خط الاستواء فلا كلام لنا فيهم، فقد كنت أراهم في وقت الظهيرة يمشون ويتهادون في الشمس كما يمشي الواحد منا في ظلال جنة، ولم يكن يصيدهم أدنى ضرر، ولم يكن يصاب بضربة الشمس إلا من تعرض لها من حجاج الشمال لا غير

من فوائد هذه الحرارة الشديدة في مكة في أيام الموسم أنها تقتل بشدتها جميع الجراثيم المضرّة، فلا تجد في الحج شيئاً من الأوبئة السارية. وقد مات في هذا الموسم من مائتي ألف حاج نحو ٢٥٠ نسمة فقط كلهم تقريباً ذهبوا بضربة الشمس. ولا أريد أن أجمل الفضل كله في قلة الأمراض الحارة القیظ بل الإدارة الصحية في الحجاز بفضل تدابير مديرها وهمة الخسّة والعشرين طبيباً الذين يعاونونه هي خير إدارة صحیة عرفها الحجاز إلى اليوم ماعداً الأيام التي كان فيها المرحوم قاسم بك عز الدين في زمن الأمير عون الرقيق، وأسس الترتيبات الصحية التي لا تزال نبراساً إلى هذه الساعة. فالدكتور محمود حمدي يحدو حدو المرحوم الدكتور عز الدين وتجده هو وأطبائوه في أيام الموسم لا يعرفون لذة الكرسي من أجل سهرهم على صحة الحجاج. وكل سنة يستزید الدكتور حمدي جانباً من التخصصات المالية لأجل انیام بتدابیر صحیة جديدة، وفي هذا الموسم رأيت العربات في منى ترش الحوامض المطهرة، فكان لذلك أحسن وقع في النفوس.

وأما الجد فتقاتل به الصحیة كثيراً من الأمراض ولا سيما الحمى وإن كانت

تنهى عن الافراط في شرب الماء المذاب من الثلج . فثلج إذا اقتصد في شربه روح للارواح ، وشفاء للملحاح ، في مثل الحجاز - حاشا الطائف وجبالها حيث لا لزوم له ألبتة - وكنت هممت بذكر رسالة اسمها « قطف العثلوج ، في وصف الماء المثلوج ، بجوار البيت المحجوج » أصف فيها محاسن هذا الماء في مكة أيام القipzig وأجمعها تقدمه للاستاذ الاكبر السيد محمد رشيد رضا

ونعود إلى حديث الماء في مكة فقد سمعت انهم حفروا فيها في محلة الشهداء فعثروا على قبي قديمة عدملية تحت الارض وعلى مياه جارية وأخرى مطمورة، ولعل الحكومة السعودية تتابع الحفر في هذه المحلة فتذشر هذه المياه من قبرها ولعالمها تهتم بإضافة مياه من وادي نهان إلى عين زبيدة . ولكن هذا العاجز يرى ان كل هذه الجهود لاتغني عن مشروع آخر لا بد منه لبلد الحرام والمشاعر العظام وهو احتقار الآبار الارتوازية

ان مكة اليوم اصبحت لاتكتفي بسد حاجتها من جهة الشرب ولوازم البيوت ولو فاض فيها الماء فيضاً زائغني الحاج والسكان عن شراء الماء بالدرهم بل مكة محتاجة إلى مياه تكفي لرش طرق وسقيا حدائق بلدية واحدار شلالات من مرتفعات مكة الكثيرة، وان مكة بعد اليوم لمحتاجة إلى ري الشجر فضلاً عن ري البشر . ذلك ان فصول مكة الاربعة تنحصر في فصلين : أحدهما الشتاء وهو في غاية اللطف وكأنه فصل الصيف في إعالى لبنان . والثاني فصل القيظ المنصادف مايسمونه بآشهر السرطان والاسد والسنبلة، وهو فصل قد تصعد فيه الحرارة في الظل بميزان سنتيغراد إلى الدرجة ٤٥ وإلى ٤٩ وفي الليل يتعذر النوم حتى على سطوح المنازل . فان الذي يبقى لاصقاً بتلك الصخور من لعاب الشمس يكفي لتسخين صفحة الليل إلى أن ينبليج الصبح . وان اليوم الذي تكون فيه الحرارة ٣٨ او ٣٩ يعده المكيون معتدلاً ويقولون « اليوم براد » فاذا نزلت الدرجة إلى

٣٥ قالوا « براد بالحيل » بفتح فسكون أي « بروضة زائدة » وقد تأتي في هذه الاشهر الثلاثة أيام وليال مقبولة الا ان هذا من النادر الذي لا يعتد به .

فالحج الشريف يصادف على مدة ستة أشهر فصل القميص الذي فيه حر شديد وحر أشد هو حر السرطان والاسد والسنبلة . وهذا لا يطيقه إلا اهالي خط الاستواء والتكارة ومن هم في ضربهم . فلما حجاج مصر والشام والمغرب والاناضول والبلقان وتركستان وشمالى فارس وافغانستان وشمالى الهند فانهم يتطوقون من هذا الحر عذابا واصبا . وقد شاهدت علماء من العراق فسأتهم عن نسبة حر العراق إلى حرتهائم الحجاز فقالوا ان حر الحجاز أشد . وأكثر من يموت من الحجاج في المواسم المصادفة لفصل القميص انما هم من حجاج الشمال ، وذلك بضربة الشمس . وأكثر ماتصيبهم هذه الضربة في عرفات حيث يجب أن يكونوا مكشوفى الرؤوس . فليتأمل المتأمل في قضية الحسر عن الرأس في عين الشمس عند ما تكون درجة الحرارة في ظل الخيمة ٤٨ بميزان سنتغراد . ومع انه يجوز للحاج اتقاء للضرر ان يستظل بمظلة عالية فوق رأسه فتجد أكثر الحجاج يتورعون عن ذلك ابتغاء زيادة الاجر والثواب وعملا بان الاجر على قدر المشقة . وهم ينسون ان الله نهى عن القاء الانسان بيده إلى التهلكة ، وان احتمال المشقة ان كان فيه أجر وثواب ، فلتهور في الهلكة ليس فيه اجر ولا ثواب ، بل يكاد يكون انتحارا والانتحار ممنوع حتى في العبادة . ان الانسان لا يجوز له أن يهدم بنية الله تعالى ابتغاء مرضاة الله تعالى الذي لا يرضى بذلك منه . وانه ليس في الشرع الاسلامي ما يجيز للمسلم أن يضر بجسمه ضررا ينأ متحققا ولو في سبيل التعبد . فعدم الاستظلال بمظلة عند ما تكون درجة الحرارة كما وصفنا نراه مخالفا لروح الشرع (١) ومن باب

(١) قد احتاط الأمير في قوله هذا ولو قال لنص الشرع لم يكن مخطئا ، فالتلو في الدين منهي عنه ولو لم يكن فيه ضرر بدني محقق ولا مرجح ونصوص الكتاب والسنة في ذلك كثيرة . والأفضل للمحرم أن يضحى (أي يبرز للشمس) إذا كانت الشمس لا تضمره ، فان خشي الضرر كره له ، فان تحققه بالتجربة أو بقول طبيب يعتقد صدقه حذر عليه ووجب الاستظلال ، وكتبه مصححه

طلب الزيادة والوقوع في النقصان

ان الهندوس الهندوس الذين يرون في فصال النفس عن هذه الحياة الدنيا رجمي منها إلى الروح السكينة التي الاتحاد بها أعلى درجات السعادة عندهم يقصدون الهلاك ويستعذبون العذاب، ويرون في المحن سبكا للنفس وتصفية لها كما يصفي الذهب الابريز بالنار . فتجدهم في عبادتهم ينزعون إلى الموت نزوعا . ولكن الشرع الاسلامي خال من هذه العقائد وهو شرع دينا واخرى، وكما انه نهى عن الافراط في حب الدنيا نهى عن الافراط في كرهها . وان كان الاسلام انتدب المؤمن إلى عزائم هي قوام الرجولية والانسانية فقد أوجب عليه القيام بها ما لم يتحقق منها عليه ضرر او خطر . وان المواطن الوحيد الذي حبيب فيه القرآن احتقار الموت هو موطن الجهاد حيث يموت البعض لحياة الكل، ولان الامة التي يعز على أفرادها أن يموتوا لا يمكنها أن تمحيا . فلهذا قل تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) فالشهادة انما وعد الله بها الذين يموتون في الذب عن بيضة الاسلام ، وفي صد العدو عن أن يستذلهم ويستعبدهم، ولكنه لم يعد بها الذين يموتون من ضربة الشمس في عرفات او منى لانهم أبوا أن يتقوا هيب حرارتها بمظلة . فتحمل المشاق في القيام بمناسك الحج واجب وفيه تمحيص للذنوب . ولكن اوجب من ذلك الوقوف فيه عند الحد الذي لا يؤذن بالخطر . وكان حقاً على العلماء أن يعطوا هذا المعنى حقه في الدروس التي يلقونها في الحرم أمام الحجاج المتواردين فان قتل النفس في العبادة أشبه بان يكون منزعا هنديا من أن يكون منزعا اسلاميا .

على ان منع جميع الحجاج من مثل هذه الامور مع كثرة العامة بينهم سيبقى متعذراً . فكان الاولى أن ينظر في امر عرفة ومنى وان تقلبا عن حالتها الرملية

الصحراوية الحاضرة . فينبغي أن يبادر إلى حفر آبار ارتوازية في طول صحراء عرفة وعرضها حتى تفيض من تحت الارض المياه إلى مافوق الارض ثم تبني القنوات والصهاريج وتغرس حفافها صفوف الاشجار والرياحين، فتهدل هناك الاغصان، وتتدلى الافنان وتترف الظلال، ويتسلل الزلال، فتخف حرارة الشمس ويلجأ الحجاج في مثل هذه الايام العصبية إلى ظل ظليل، وهواء بليل . فتكون درجة الحرارة تحت فيضان الدوح ادنى منها في الشمس بخمس عشرة درجة، ويصير الحاج إذا تعرض للشمس قادراً أن يفيء إلى الظل . وقد يجد القاريء هذا الفكر خيالا، وبصعب عليه أن يرى في تلك الصحراء حياضا وجنانا، ورواحا ومحانا، وهذا كله خطأ في خطأ أو استخذاء في الهمم .

فلاوربيون احتلوا بلدانا كثيرة من افريقية وآسية هي في الحرارة مثل مكة، ومنها ما هو اشد حرارة من مكة، وترى هذه البلدان الآن - بفضل العلم والفن والدأب والاثبات - غير ما كانت من قبل، قد بدلت فيها الارض غير الارض، وقد خفت فيها الحرارة درجات عما كانت بما اسالوا اليها من مياه، وما غرسوا من أشجار وما احدثوا من مروج خضر وما أزالوا من غبار، وهكذا صارت قابلة للسكنى وصار كثيرون من الاوروبيين يقيظون فيها بالسهولة، وذلك انهم سألوا العلم فأجابهم، واستدروا ضرع الفن فجاد عليهم واعتصموا بجبل الثبات فأورثهم اثبات نباتا، وتعلبوا على الطبيعة وخففوا بأسها ونعموا حرشتها، ونحن باقون على ما كنا عليه في القرون الوسطى اوقرب من ذلك، نجد كل تغير بدعة، وكل بدعة ضلالة، وننسى ان من البدع بدعا مستحسنة لابد منها، وان الضلالة كل الضلالة هي الجلود على القديم الذي لا قوة

له إلا حكم العادة؛ ولا كتاب يأمر به ولا سنة (١) وان لم يبق لنا عذر من قبل الدين والعرف رجعنا نلتمس لانفسنا المعاذير من عدم اجابة الطبيعة نفسها إلى ما نريد واجيب - بشأن عرفنا - بان صحراءها رملية وانها بجذاء جبال عالية وكل من رآها يحكم بان في باطن أرضها مياه، لا دل فيها آبار قديمة مسمولة تدل على وجود المياه، فماغلينا إلا أن نجرب عملية الآبار الارتوازية في عدة مغلان منها، نان رأينا الأرض لم تبض بالماء في كل ذلك السهل الافصح تركنا المشروع من أساسه . ولقد بلغني ان الملك ابن سعود - أيداه الله ووفقه إلى كل خير - قد أذن لanas من الهولانديين أن يجربوا حفر آبار ارتوازية بين جدة ومكة، فشكرت لجلالته هذا الاذن، ورجوت أن تثمر هذه التجربة بما ينشط الملك على الامر بالحفر في مواضع كثيرة من هذه البلاد من جملة عرفة والمزدلفة ومنى . فله قد جعل من الماء كل شيء حي في الاقاليم الباردة، فكيف في الحجاز والارض الرملية التي مثل عرفة؟ هي أسرع نباتا وابدر إلى الخضرة، فاذا جاءها الماء لم تكن إلا سنة واحدة حتى اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج. وقد يؤتى من البلاد الحارة كلهند والجاوى بأشجار سريعة البسوق، ورياحين باكرة السموق، لآتمضي سنوات حتى ترى فروعها في السماء، وأغصانها لاحقة بالارض، فتقلب عرفات من هذه الغبرة البامرة، إلى الخضرة الناضرة، التي لا تضر شيئاً بمناسك الحجاج، بل تزيدهم من الفرح والابتهاج

«١» قوله (ص) «كل بدعة ضلالة» مراده به البدعة في الدين نفسه كما يدل عليه السياق . وقول العلماء ان البدعة تنقسم الى حسنة وسيئة مرادهم به ما يتجدد للناس من المصالح والمنافع العلمية والعملية ودليلهم عليه حديث «من سن في الاسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سن في الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء» رواه مسلم

عرفة في القديم

وخبر عبد الله به عامر به كبر

ان في صحراء عرفة آباراً معطلة احتفرها آباؤنا وأهلنا ونحن ، فدلّت على ان الابناء قصرُوا عن شأو الآباء ، وان الالباء انما ارتفقوا بما عجز الحدثان عن طمسه من مآثر الآباء ، ولكنهم لم يزدوا عليها شيئاً ، بل هم لم يصلحوا ماعطله الدهر من حلالها . والحال ان الآخر حقيق بان يزيد على الاول ، وان الذي يتسنى للخلف بما استفادوه من عبر الدهر المتراكمة ، واستثمروه من تجارب المتكررة ، لم يكن يتسنى للسلف ، فحن ترانا بعكس القاعدة نعجز في غفوان المدنية عن مباراة ماحقه أجدادنا في حداثتها . وليت شعري لو لم تكن زبيدة امرأة هارون الرشيد جرت مياه نعمان إلى عرفات ، من يقول ان رجلاً من مسلمي اليوم فضلاً عن امرأة تسمو همته إلى القيام بمشروع كهذا ؟

فعرفات التي هي ماهي اليوم من القحولة واليبوسة ، والتي كان الحاج يظن فيها إلى الموت لولا قماء عين زبيدة المارة بها قد كانت في الماضي ذات رباض وغياض ، وسقايات وحياض ، انظر مافي معجم البلدان بشأن عرفات فهو يقول :

« قل ابن عباس حد عرفة من الجبل المشرف على بطن عرنة إلى جبالها إلى قصر آل مالك ووادي عرفة . وقال البشاري فرعة قرية فيها مزارع وخضر ومباطخ وبها دور حسنة لاهل مكة ينزلونها يوم عرفة والموقف منها على صيحة عند جبل متلاطىء (أي متدان إلى الارض) وبها سقايات وحياض وعلم قد بني يقف عنده الامام الخ »

وقد ذكروا في أخبار عبد الله بن كرز العبشمي الذي كن من شجعان

الصحابة واسود فتوحات الاسلام وهو الذي فتح فارس وخراسان وسجستان وكابل (بضم الباء) « انه اتخذ النباج (١) وغرس فيها فهي تدعى نباج ابن عامر واتخذ القريتين او غرس بها نخلا وأنبط عيوننا تعرف بعيون ابن عامر بينهما وبين النباج ليلة على طريق المدينة وحفر الحفير، ثم حفر السمينة، واتخذ بقرب قباء قصرًا وجعل فيه زنجا ليعملوا فيه، فماتوا فتركه، واتخذ بعرفات حياضًا ونخلا وولي به البصرة لعثمان بن عفان فاحتفر بها نهريْن وحفر نهر الابلّة. وكان يقول: لو تركت لخرجت المرأة في حدّاجتها على دابتها ترد كل يوم ماء وسوقا حتى توافي مكة. وكان علي بن ابي طالب يقول عنه انه فتي قريش. مات سنة ٥٩ »

فالاسلام ولا سيما العرب في أسد حاجة اليوم إلى رجال كعبد الله بن عامر ابن كريز العبشمي الفاتح الماتح المعمر النثمر الذي كان مغرما بالعمارة حيث حل وأينما ارتحل. وناهيك بمن يقول فيه أمير المؤمنين كرم الله وجهه انه « فتي قريش » (٢) ولما الرجاء في معالي هم جلاله ابن سعود الذي حضر طائفة كبيرة من الاعراب وبنى لهم « الهجر » (جمع هجرة — وأصل معنى المهاجرة في العربي النزوع من البادية إلى الحاضرة (٣) وحملهم على الحرث والزرع ولا يزال يشوق الناس إلى الحضارة. ان تنصرف تلك الهمم السماء، إلى استنباط المياه، واحتفار الآبار

(١) هو بالكسر ككتاب اسم قرية

(٢) قال الحافظ ابن حجر في ترجمته من الاصابة: ولد على عهد النبي (ص)

وأثنى به اليه وهو صغير فقال « هذا اشبهنا » وجعل يتفل عليه ويؤذنه فجعل يتبلع ريق النبي (ص) فقال النبي (ص) « انه لمسي » وكان لا يبالغ أرضاً إلا ظهر له الماء حكاه ابن

عبدالبراهم قال وهو أول من اتخذ الحياض بعرفة وأجرى إليها العين

(٣) أي ثم عم استعماله في كل تحول من مكان سكنى الى غيره ومنه هجرة

النبي ﷺ واصحابه (رض) من مكة الى المدينة. ولفظ الهجرة اسم للمهاجرة

واسم المكان « مهاجر » بفتح الجيم بوزن اسم المفعول، وفي نجد يسمونه هجرة

الارتوازية في الصحارى المحرقة ، حتى يعود بها الغامر عامراً ، واليابس ناضراً ، والموات حياً ، والجماد غصناً طرياً

ولنذكر شيئاً عن البتاع التي عمرها الصحابي الجليل عبد الله بن عامر بن كريز . فالنباج كما نقله ياقوت عن أبي منصور نباجان أحدهما موضع على طريق البصرة يقال له نباج بني عامر وهو بمجذاء قيد ، والآخر نباج بني سعد بالقريتين ، وقال غيره : النباج لحجاج البصرة ، وقيل النباج بين مكة والبصرة للكريزيين ، وقال عبد الله السكوني : النباج من البصرة على عشر مراحل ، وقال النباج استنبط ماءه عبد الله بن عامر بن كريز شق فيه عيوناً وغرس نخلاً وولده به ، وسأكنه رهطه بنو كريز ومن انضم اليهم من العرب » انتهى

وأما الحفير فانه اسم لاكثر من عشرين بئراً ومنزلاً في بلاد العرب ، هذا على تقدير انه بوزن فاعيل بفتح الاول وكسر الثاني ، وأما اذا كان لفظه مصغر حفر أى بضم الاول وفتح الثاني فهو اسم لمنازل عدة أيضاً (١) وقال الحمصي اذا خرجت من البصرة تريد مكة فتأخذ بدار فلج . فاول ماء ترد الحفير . قل بعضهم :

ولقد ذهبت مراغماً أرجو السلامة بالحفير

فرجعت منه سالماً ومع السلامة كل خير

وأما السمينة - بضم الاول وفتح الثاني على التصغير - فهي المعجم انه أول منزل من النباج للقاصد إلى البصرة . وأما قباء التي اتخذها عبد الله بن عامر بن كريز

(١) قال في المصباح : والحفر بفتحين بمعنى الحفور مثل العدد والخطب والنقض بمعنى المعداد والخبوط والمنقوض ومنه قيل للبئر التي حفرها ابوموسى بقر البصرة «حفر» وتضاف اليه فيقال : حفر ابى موسى وقال الازهرى : الحفر اسم المسكن الذي حفر كخندق أو بئر والجمع احفار مثل سبب وأسباب ، والحفيرة ما يحفر في الارض فعيلة بمعنى مفعولة والجمع حفائر والحفرة مثلها والجمع حفر . مثل غرفة وغرفاه

قصرًا فلا نظنها قباء التي في المدينة على مسافة ميلين منها على يسار القاصد إلى مكة والتي فيها المسجد الذي أسس على اتقوى من أول يوم، ولكنني أظنها قباء التي يقول عنها ياقوت في معجمه انها «موضع بين مكة والبصرة» والدليل على ذلك ان عبد الله بن عامر ولي البصرة لعثمان بن عفان فأكثر من البناء والحفر والعراس على الطريق المؤدية من البصرة إلى مكة، فالنباج والحفير (بضم ففتح على التصغير) والسمينة (بالتصغير أيضاً) كلها على هذا سمت. فالاشبه ان تكون قباء التي بنى عبد الله فيها صرحا هي قباء التي موقعها بين مكة والبصرة. ولقد أورد ياقوت بعد ذكره قباء التي بين مكة والبصرة أبياتا للسري بن عبد الرحمن بن عتبة بن عويم بن ساعدة الانصاري، مما يوهم ان هذه الابيات قيلت في قباء هذه والاولى هو ان تكون قباء المقصودة في شعر السري بن عبد الرحمن الانصاري هي قباء المدينة المنورة لان الانصار كان لهم مساكن فيها، ولأنه يصف فيها ماء بئر عروة الشهيرة بالعدوبة والتي يقال انه كان يحمل من ماءها إلى هارون الرشيد وهو بالرقّة. وبئر عروة هي في ضواحي المدينة كما هو معلوم، وعندها بستان لطيف، وقد قسم الله لي الزهرة «او القيلة كما يقول أهل الحجاز» عند هذه البئر منذ خمس عشرة سنة قبل الحرب العامة بقليل، ووجدت من خفة مائها وحلاوته ما تذكرته هذه المرة عند شربي من بئر جعرانة التي في ضواحي مكة. أما الابيات التي استشهد بها ياقوت فهي هذه:

ولها مربع بركة خاخ ومصيف بالقصر قصر قباء
كفنونني إن مت في درع أروى واغسلوني من بئر عروة مائي
سخنة في الشتاء باردة الصيف سراج في الليلة الظلماء

وخاخ هي روضة خاخ بقرب حراء الاسد من المدينة كانت من الاحياء التي حماها النبي ﷺ والخلفاء الراشدون يقال انها في حدود العقيق بين الشوطي

والناصفة . وقد أكثر من ذكرها الشعراء ، وكانت فيها منازل لأئمة من آل البيت وغيرهم من أعيان المدينة ،

وأما نهر الابله الذي يقال ان عبدالله بن عامر شقه فهو نهر بالبصرة وهو إحدى جنات الدنيا الاربع بحسب قول بعضهم وهي غوطة دمشق ، وصعد سمرقند ، وشعب بوان ، ونهر الابله . وحكي ان بكر بن النطاح مدح ابادلف العجلي بقصيدة فأثابه عليها عشرة آلاف درهم فاشتري بها ضيعة بالابله ثم جاء بعد قليل وأنشده :
بك ابتعت في نهر الابله ضيعة عليها قصير بالرخام مشيد

إلى جنبها أخت لها يعرضونها وعندك مال للهبات عتيد
فقال ابو دلف : وكم ثمن هذه الضيعة الاخرى فقال : عشرة آلاف درهم فأمر ان يدفع ذلك اليه فلما قبضها قل له ابو دلف « اسمع مني يا بكر ان إلى جنب كل ضيعة أخرى إلى الصين وإلى مالا نهاية له فياك أن تجيئي غداً وتقول إلى جنب هذه الضيعة ضيعة أخرى فان هذا شيء لا ينقضي » خاف ابو دلف أن تصير ضياع بكر ابن النطاح مثل مستعمرات الانكيز كل واحد تجر جارتها وهلم جرأ .

المناهل في مكة

ونذكر الان عمراء على الودفاف التي وقفها السلف

نعود إلى عرفات التي كنا فيها ، وإلى عبد الله بن عامر بن كريز المغرم كان بالهامة وإحياء الارضين فنقول :

قال ابن حوقل - صاحب كتاب المسالك والممالك الذي عاش في أوائل القرون الرابع للهجرة ، وهو من أشهر جغرافيين العرب « وعرفة ما بين وادي عرنة إلى حائط بني عامر (الحائط البستان) إلى ما أقبل على الصخرات التي يكون موقف الامام وإلى طريق حصن ، وبحائط بني عامر نخيل ، وكذلك في غربي

عرفة بقرب المسجد الذى يجمع فيه الامام بين صلاتي الظهر والعصر في يوم عرفة ونخل الحائط والعين تنسب الى عبدالله بن عامر بن كريز — إلى أن يقول — وليس بمكة ماء جار إلا تبيء قد أجري اليها من عين قد عمل فيها بعض الولاة واستتم في أيام المقتدر ، ويمتتح (اى يمتد) إلى مسيل قد جعل إلى باب بنى شيبة في قناة عملت هناك ، وكانت اكثر مياههم من السماء إلى مواجن بها كانت عامرة فخربت باستيلاء انتولين على أموال أوقافها، واستشارهم بها، وليس لهم آبار تشرب وأطيبها زمزم ولا يمكن الادمان على شربه »

هذا ما يقوله ابن حوقل ، ولا أعلم هل يقصد بهذه العين قناة زبيدة أم عيناً غيرها (١) وكنت أود لو سألتنا عن ذلك انقرشي العريق والعبدري العتيق الشيخ عبد القادر الشيبى زعيم بنى شيبة سدة الميت الكريم ، ومقام ابراهيم ، والذين اليهم مفاتيح الكعبة بمحكم الذكر الحكيم ، فان الشيخ الشيبى من أعلم الناس بخطط مكة، وأهل مكة أدرى بشعابها ، فكيف إذا كانوا من أعرق ايت فيها؟

وأما (المواجن) فالظاهر انه يريد بها ما نسقيه اليوم (بالسبل) ولكننا لم نجد في متون اللغة المواجن بهذا المعنى وإنما (المواجن) جمع (ميجنة) وهي مدقة القصار كما لا يخفى . نعم يوجد في اللغة (ماء مجان) أى كاف مستفيض . ويوجد (مجان) اى بدون ثمن . وكلاهما يطابق هذا المعنى ، ولكن على هذا يكون ابن حوقل عدل عن (فعال) الى (فاعل) ولو أن المؤلف ذكرها مرة واحدة في كتابه لكننا نقول لعلها من غلط النسخ والطبع ، ولكنها وردت في كلامه مراراً بالجمع (مواجن) وبالفرد (ماجن) وكل ذلك بالنون . وأما الازرقى أبو الوليد محمد صاحب كتاب [أخبار مكة] فقد أورد بها باللام فهو يقول عند ذكر العميون التي أجريت إلى الحرم (ومنها) حائط خرمان وهو من ثنية اذاخر إلى بيوت جعفر العلقمي

(١) الرجح انه ينسبها إذ لم يكن ثم غيرها يطلق الكلام عليها دونها

وبيوت ابن أبي الرزام ، وماجله قثم إلى اليوم وكان فيه النخل والزرع حديثاً من الدهر وكانت له عين ومشرع يرده الناس » ويقول في موضع آخر « وكانت عيون معاوية تلك قد انقطعت وذهبت فأمر أمير المؤمنين الرشيد بعيون منها فعملت وأحييت وصرفت في عين واحدة يقال لها (الرساد) تسكب في الماجين اللذين احدهما لامير المؤمنين الرشيد بالملاد ثم تسكب في البركة التي عند المسجد الحرام وفي اقاموس : الماجل كل ماء في أصل جبل أو واد . وقال الزبيدي في التاج : ان بعض ثقات اللغة رواه بدون همز وان الآخرين تحفظه بالهمز . وجاء في القاموس ما هو أصرح وهو ان الماجل موضع بباب مكة يجتمع فيه ماء يتحاب اليه واستدرك صاحب التاج في هذه المادة بقوله : وفي حديث أبي واقد كنا نتماقل في ماجل أو صهريج ، قل ابن الاثير هو الماء الكثير المجتمع ، وقيل هو معرب والتماقل اتغاص في الماء

وبالاختصار الماجل هو في مكة مايسمونه اليوم (بالبازان) وهي Bacin الانكليزية ، او Bassin الافرانية . وهكذا الالفاظ مثل سائر الاشياء تحيا وتموت بأجال مقدرة ، ففي دور من الادوار يقولون حوض ، وفي آخر بازان الح والمعنى واحد ، ولعلمهم في زمان ابن حوقل (نحو سنة ٣٣٠) كانوا حرفوا هذه اللفظة من النون كما قولوا في جبريل جبرين (١) وأما في زمان الازرقى (نحو المائتين للهجرة) فقد كانوا يلفظونها باللام

« ١ » لاشك في تحريف الكلمة وان أصلها باللام والارجح أن المحرف لها التناسخ ويحتمل أن يكون ابن حوقل نفسه فقد قال صاحب كشف الظنون انه لم يضبط الاسماء

سوء تصرف المسلمين في اوقاف سلفهم

وأكلها بالباطل

وأما الذي لم نجده - مع لاسف - نحرف ولا تغير فهو اكل اموال الاوقاف حتى التي على حياض الماء فقد رأيت كيف ان ابن حوقل يذكر خراب تلك المواجن أو المواجل (باستيلاء المتولين على اموال اوقافها واستمثارهم) وهذه شذشة قل أن يخلو منها بلد من بلاد الاسلام ، وبسببها تعطلت هذه البلدان من الحلي التي تجدها في بلاد الافرنج . فبأؤنا لم يقصروا في حبس العقارات الدارة على كل ما يخطر في البال من طرق الانسانية ، ووسائل المدنية ، ولكن اختلف (إلا من رحم ربك) خانوا امانات السلف ، وخاسوا بعدهم وتركونا خجالي أمام الاجانب في مساكننا ومدائننا . وكل ما اورده الشرع من الاعظام والاكابر لكبيرة الاكل من الاموال المرصدة للخير العام ، بل ما قذف به من الصواعق على من يستبيح لنفسه الغلول منها ، قد ذهب سدى . فالوقت لا يمضي عليه قرن أو نصف قرن حتى تتع اورد الايدي بالاكل والبيع (١) وكثيراً ما يندرس ولا يبقى إلا ذكره في الكتب او على ألسنة الناس ، يا كاون في بطونهم ناراً ولا يخافون الله ولا يشعرون . وبايت شعري ماذا تنفع صلاة من يفعل ذلك ؟ وماذا يفيد صيامه وتلك النار في بطنه ولهذا تحام كثير من المتورعين والمتحققين بالشرع الشريف النظارة على الاوقاف ، وأخذ مقابل عمله من ريعها . قال الامام خير الدين الرملي رحمه الله :

بورك لي في المر والمسحاة فما هو الموجب للجهات

وهي لمن قام عليها صدقة وللذي فرط نار محرقة

(١) احفظ عن أخي جدي السيد احمد أبي الكمال وكان يعني بالتاريخ : في كل

مائة سنة يتحول ونف طراباس ملكا ، وملكها وقفا

أهمية المياه في الحجاز

أعود الى ذكر المياه والعيون بمكة . وقد يقال لي : لماذا هذا الاسهاب كله في قضية الحياض والقني والمواجل والبازانات وفيما علمته زبيدة وفيما عمله عبدالله ابن عامر بن كرز وغيرهما من العمرين والمنظمين الخ

والجواب : من لم يعرف الحجاز لم يعرف قيمة المياه في الارض واذا كانت آية (وجعلنا من الماء كل شيء حي) صحيحة في اسوج ونروج ، لا بل في القطب الشمالي حيث الثلوج عامة للاقطار طامة للانظار ، فمن تكون هذه الآية الكريمة صحيحة في قطر مثل الحجاز تصعد درجة الحرارة فيه بالصيف الى ٤٧ و ٤٨ بميزان سنتغراد ، وكثيراً ما يعز فيه المطر فتضرب من ذلك عيون كانت جارية ، وآبار كانت دافقة ، وتقف سوان كانت دائرة ، وتصوح جنان كانت بهجة للناظرين ، وتموت اشجار كانت آية للسالكين ، وتصح الرياض التي كانت اشبه بالزمرد قاحلة غبراء مربعة كأنها فيافي بني اسد .

ان شأن الحجاز في هذا المعنى هو غير شؤون سائر البلاد ، فالماء فيه يحوز أن يوزن بالمثل والماء فيه هو الذهب ، والماء فيه هو الماس ، ونقط الغيث فيه هي الآلى . وبالجملة فالماء فيه هو الحياة نفسها ، وهي اعلی من كل هذه . ولو ألف حجازي قاموس لغة وعند تعريف الحياة قل انها الماء او عند تعريف الماء قال انه الحياة لكان جديراً .

ورب قائل : ان هذا لا يخص انحجاز دون غيره بل الماء هو الحياة في كل أقسام الكرة . والجواب : انه في سائر البلاد لا تبدو من الماء هذه العزاة والكراسة التي تبدو منه في الحجاز ، واينما تحولت نجد عيوناً جارية ، واودبة سائلة ،

٥ — الارتسامات

وأحيانا تجد انهاراً مثل البحار، وبحيرات تسير فيها السفن الكبار . هذا والامطار في بعض البلاد تسح في اشهر الشتاء سحاً لا يخشى معه ظمأ ولا قحط ، وقد تشح آونة لكن سحاً لا تنضب به العيون ولا تجف الآبار، وإنما تنقص نقصاً قد تنقص معه الثمرات وتذبل الاشجار ، وتذوي الزروع ولكن لا يقتلها العطش هذا القتل الوحي الذي يقتلها في الحجاز . ومن بلاد الله ما الامطار فيها لا تكاد تقلع لا صيفاً ولا شتاء فتجدها دائماً زمردة خضراء

وأما الحجاز فالغيث فيه قلما يعموا أكثر ما ينزل نفصاً (جمع نفضة بضم أوله وهي المطرة تصيب القطعة من الارض وتخطىء القطعة) فاذا اصابته النفضة ارضاً زهت تلك السنة واتمرت وعاش أهلها . واذا اخطأتها أو جاءت بها رذاذا يبس كل ما هناك من زرع ، وعطش كل ما هناك من زرع ، ولم يبق امام أهلها إلا التحول عنها الى ارض أخرى يكون الغيث قد سقاها . ولا يعودون الى الارض الاولى إلا اذا اصابها الرحمة ، وقد تكون الارضات متجاورة ، وانك لتجدهذه زاهية ناضرة ، وهذه على مسافة ربع ساعة منها غامرة بامرة ، وذلك لأن الغيث اصاب هذه واخطأ هذه

وصادف انه لما كنا بعرفة جاءنا عرض صحبة رواعد (١) يديننا نحن مفيضون من عرفات الى المشعر الحرام وكان المطر على الجبال أشد منه على الاماكن التي كنا فيها . وبعد ذلك بثلاثة اشهر كنا نتنزئ في جبال الطائف فقصدنا قرية « الهدا » الموصوفة التي يفضاها كثيرون على الطائف بحجة انها على مكانا و أفسح منظرا . وهي أعلى من الطائف بنحو مائتي متر . تعلو الهدا عن سطح البحر نحواً من

(١) الامارض السحاب الذي يعرض في الافق قبل أن يطبق السماء وحده بعضهم بما يعرض في قطر من أقطار السماء من المشي ثم يصبح وقد حبا واستوى ، والرواعد السحاب التي فيها رعد . قال في الاساس : سحابة راعدة وسحاب رواعد

١٨٠٠ متر فلما دخلنا القرية لم يبق الا قليل حتى نقول انها خاوية على عروشها :
وجدنا بعض أهلها نازحين الى حيث يقدر أن يشربوا والبعض الآخر يردون
المناهل البعيدة . ووجدنا تلك البساتين قد علتها غيرة الموت ، فمنها ماصوح شجره ،
ومنها ما مات موتا لاهياة بعده . وقصدنا الى ساقية كانت مشهورة بغزارة المياه
فنظرنا الى قعرها فوجدنا الذي فيها قد يكفي لشربنا فجلسنا نقيل تحت شجرات
هناك وزعنا بالدلو حتى سقيننا نحن وربعنا ، ولكن الانفس ارمضها منظر الاشجار
المحزن فلم نمكث الا ساعتين حتى فارقنا الهدا مهزولين الى واد قريب منها يقال
له وادي السكل (بضم ففتح مع التشديد) وقد علمنا من أهل الهدا أن العارض
الذي جاء الحاج يوم عرفة لم يكن ممطرم ولقد امطر جيرانهم على درجات متفاوتة ،
فمنهم من رزقوا ثمرات وغلات وافرة ، ومنهم من اتهم غلة متوسطة ، ولكن الهدا
كانت محرومة مغمورة تماما هذا الصيف كله وبقيت في هذه الاواء ليس فيها
نبت أخضر إلا الصبير حتى دخل فصل الخريف (وفي الحجاز يقولون له الشتاء ويقولون
للشتاء الذي عندنا الربيع) فجاءنا الخبر ونحن في الطائف أن الهدا سقيت وأغيثت
ورجعت إليها روحها .

وليس في الحجاز أوحى من أخبار المطر ، فهي لشدة غزارة القطر تسري
من واد إلى واد ومن نجع الى نجع بسرعة اللاسلكي ، وتراهم من شدة ترقبهم
للمطار يعرفون من مواقعها بمجرد النظر مالا نعرفه نحن في بلادنا ، فإذا تلبدت
السحب في افق من الآفاق أو قصف رعد أو أومض برق قالوا لك : هذا في
ارض عسير أو في بلاد ثمالة أو في الشفا أو في بلاد هذيل وهلم جرا ، وقد تكون
المسافة ساعات بل أياما وتجدهم يخمنون ويصيبون . وبالجملة سكان البوادي أقرب
الى الطبيعة الفجة وآف لها ، وأعرف بالسحب ومساقط العيث وبالارض
 وأنواعها والعراب وخواصه وروائحها ، والنبات وحياته ، والنجوم ومطالعها ومغاربها
 وما أشبه ذلك — من سكان الحواضر .

لذة الماء والخضرة في البلاد الحارة

{ غيرها في البلاد الباردة }

ترى مما تقدم ان معارة واحدة في الحجاز تحيي وتميت ، وليس الامر كذلك في سائر البلاد التي تهطل فيها الامطار فتعم وان لم يصب هذه القطعة عارض ممطر هذه المرة أصابها مرة أخرى . نعم ان الودق في الحجاز — وفي جميع البلاد الحارة — أشد منه في البلاد الضاربة إلى الشمال ، وان مزنة واحدة في الاحياء لاتستمر أكثر من نصف ساعة فتسيل لها اودية بقدره ، وتجرف وتجحف ، وقد تذهب بالحيطان والبيوت ، وقد تقتال اقوافل والسوايل إذا جأهم على غرة . ولكن طغيان المياه هذا لا يستمر الا ريثما ترفع النقطة ، فعند ذلك تنفخ في الارض فاذا هي قد بلغت ماءها ، وعاد ما كنت تراه نهراً هداراً قد نصب ماؤه ، وصحت سماؤه ، وكأنه لم يمر من هناك ماء ، ولم تمطر سماء . وفي مدينة الطائف واد شهير مذكور في الكتاب يقال له (وج) إذا سال هذا الوادي شبعت الطائف وكل ماجاورها خيرات وأقواتاً ، ومع هذا لا يسيل في السنة كلها إلا مرة او مرتين ، وكل مرة ساعة أو ساعتين

فمن أجل هذا كان الماء في الحجاز أثمن وأغلا منه في سائر الاقطار ، وكان ألد وأبهج وأعلق بالقلب وأشرح للصدر ، وكأن الماء في الحجاز يساوي الماء خمسين مرة في الشام ومائة مرة في سويسرة مثلاً . وكان الفصن الاخضر في الحجاز أحلى منه مائة مرة في أوربة . وكم من عين لو كنت في سورية ومررت على مثلها لم أقف دقيقة ولا نظرت اليها إلا كما أنظر إلى التراب ، فأما في الحجاز فقد كنت أقبل إلى جانبها ، وأحدق في قطرات مائها ، ولا ابرح أنحدث إلى الاخوان عن قسطة جريها ، وصفاء لونها ، وكم من مرة جلسنا في الحجاز الى نماد وأوشال ،

لا تمر في غير الحجاز على بال، فكنا نستعذبها، ونتلذذ بالمقيل عندها، كالمو كنعاني
نعم الباروك أونبع الصفافي جبل لبنان

لا جرم ان الامور في الغالب نسبة تغلو وترخص وتحسن وتسمح بحسب
الزمان والسكان، وقد يلذ لك في الصيف ما تجده ثقيلا في الشتاء، وترتاح في
الاقليم الحارة إلى ما تفر منه في الاقاليم الباردة، والثلاج فاكهة الجروم، على حين ان
النار فاكهة الصرود، وهلم جرا. ولذلك أراني أتلذذ بالماء، والظل والخضرة في
الحجاز وفي الشرق كله أكثر مما أتلذذ بها في اورية لاسيما في القسم الشمالي
منها. ففي اورية مياه تتدفق، وأنهار تهردر، وشلالات تتحدر، ولكن كل ذلك
في جو لا ترتفع حرارته عن ١٥ او ٢٠ بميزان سنتيغراد إلا أياما قلائل من السنة،
وكل ذلك في جو مطير متلبد بالسحب أكثر السنة. فأني لذة لماء الجداول والأنهار
الجارية على الارض حينما تكون المياه نازلة من السماء؟ وأية لذة يجدها الانسان
في الظل الظليل والحرجات الملتفة إذا كانت الشمس في الغالب محجوبة بالغمام؟
والماء البارد انما يولع به الخلق في بوارح القيظ يبردون به بالمثل والنهل والغسل
والمجاورة. فأما إذا كان الهواء بارداً من أصله فما لك وللتبرد والابتعاد؟

ان الانسان بني مزاجه على التعديل فتجده لا يعرف الراحة والهناء الا بتسليط
العناصر بعضها على بعض حتى تصل الى درجة الاعتدال، فاذا أفرط به الحر لجأ
الى الماء والثلاج وأهوية الجبال، واذا أفرط به البرد لجأ الى النار والشمس والصوف
وأهوية السواحل. فما دام الانسان لا يشعر بالحرارة، فالهبة التي عنده للماء
الزال والظل والارج الاخضر والشجر الملتف لا تكاد تذكر بالقياس الى الهبة
التي عنده بها والسوم تهب والجوف يتلهب

فالجنت والعيون والأنهار والأشجار انما جعلها الله نعيما في البلاد الحارة
والمعتدلة كجزيرة العرب ومصر والمغرب والشام والعراق وفارس وما في غيرها

ففي هذه الاقاليم تظهر قيمتها ، ويقالي المرء في ثمنها . ويلحق بهذا الضرب من البلدان ايطالية واسبانية والجزائر التي في البحر المتوسط وجميع جنوبي أوربة ولقد وُجدت مرة في رومية في فصل القيظ فنشرت منها الى بلدة تيفولي على مسافة ساعتين من رومية في سفح الجبل ، ونعمت من انهر العذب الفياض المنحدر من هناك ، وبشلالات ذلك النهر وبحيراته وحياضه بما لا أنساه طول خيائي ، وانما كانت درجة الحرارة البالغة ٣٤ هي التي توحى الي تلك المحاسن التي رأيتها على نهر تيفولي ، وتنطقني بهذه الفقر الشاعرة في وصفها

اثر السيدة زبيدة

من حيث قد تقرر ان الماء هو في البلاد الحارة والمعتدلة أحياء وأعذب وأبرد على الاكباد وأطيب أضعافا مضاعفة منه في البلاد الباردة فقد كان أعظم مايرزق به الانسان من الصواب واشواب، وما ترتفع به درجته في المبدأ والمآب ، هو تفجير الينابيع واسالة الجداول وتقريب الشارع في بلاد نظير الحجاز تقصد اليها الحجاج من الحار والبارد والرطب واليابس، بالالوف وعشرات الالوف ومئات الالوف زائداً إلى من فيها من السكان

فالمشروع الذي شرعته زبيدة بنت جعفر في هذا المشروع العظيم الذي فتحت له لخير ان البيت الحرام ، ولقصاده من جميع بلاد الاسلام ، هو كما تقدم عمل قصر عن مثله الاولون والآخرين . وانظر إلى ما قاله ابو الوليد محمد الازرقى الغساني في هذا الشأن وقد عاش في عصرها

« ثم كان الناس بعد في شدة من الماء وكان أهل مكة والحاج يلقون من ذلك المشقة حتى ان الراوية لتبلغ في الموسم عشرة دراهم وأكثر وأقل فبلغ ذلك أم جعفر بنت أبي الفضل جعفر بن أمير المؤمنين المنصور ، فأمرت في سنة أربع

وتسمين ومائة بعمل بركتها التي بمكة فأجرت لها عينا من الحرم (لا يقصد بالحرم هنا المسجد الحرام وإنما يقال حرم لمنطقة مخصوصة معينة حول مكة (١) كالأبغج) فجرت بماء قليل لم يكن فيه ري لاهل مكة وقد غرمت في ذلك غراما عظيما فبلغها فامرت جماعة من المهندسين أن يجروا لها عيونا من الحبل (أي من الارض الخارجة عن الحرم) وكان الناس يقولون ان ماء الحل لا يدخل الحرم لانه يمر على عقاب وجبال، فارسلت باموال عظام ثم امرت من يزن عينيها الاولى فوجدوا فيها فسادا فأنشأت عينا أخرى إلى جانبها وأبطلت تلك العيون فعملت عينيها هذه باحكم ما يكون من العمل، وعظمت في ذلك رغبتها وحسنت نيتها، فلم نزل تعمل فيها حتى بلغت ثنية « خل » فاذا الماء لا يظهر في ذلك الجبل فامرت بالجبل فضرب فيه وأنفقت في ذلك من الاموال ما لم تكن تطيب به نفس كثير من الناس حتى أجراها الله عز وجل لها وأجرت فيها عيونا من الحل منها عين من المشاش (جاء في معجم البلدان : المشاش بالضم قال عرام : ويتصل بجبال عرفات جبال الطائف وفيها مياه كثيرة اوشال وعظام فني منها المشاش وهو الذي يجري بعرفات ويصل إلى مكة) واتخذت لها بركا تكون السيول إذا جاءت تجتمع فيها ثم اجرت لها عيونا من حنين، واشترت حائط حنين فصرفت عينه إلى البركة وجعلت حائطه سداً يجتمع فيه السيل فصارت لها مكرمة لم تكن لاحد قبلها وطابت نفسها بالنفقة فيها بما لم تكن تطيب نفس أحد غيرها به فاهل مكة والحاج انما يعيدشون بها بعد الله عز وجل.

ثم أمر أمير المؤمنين المأمون صالح بن العباس في سنة عشر ومائتين أن

(١) حرم مكة هو ما حرم الله فيه القتال والصيد وقطع النبات وعضد الشجر وله حدود معروفة من كل جهة بأعلام مبنية كالذي بين جدة ومكة وبين المزدلفة وعرفة، فمرفقات الحل لا يحرم فيها الصيد على غير الحرم

يتخذ له بركا في السوق خمسا لثلاثين أهل اسفل مكة والثنية واجيادين (بالثنية) والوسط إلى بركة أم جعفر فأجرى عينا من بركة أم جعفر من فضل مائها في عين تسكب في بركة البطحاء عند شعب ابن يوسف في وجه دار ابن يوسف ، ثم يمضي إلى بركة عند الصفا ثم يمضي إلى بركة عند الحناطين ، ثم يمضي إلى بركة بفوهة سكة الثنية دون دار أويس ، ثم يمضي إلى بركة عند سوق الحطب باسفل مكة ثم يمضي في سرب ذلك إلى ماجل أبي صلابة ، ثم إلى الماجلين اللذين في حائط ابن طارق باسفل مكة ، وكان صالح بن العباس لما فرغ منها ركب بوجوه الناس إليها فوقف عليها حين جرى فيها الماء ونحر عند كل بركة جزورا وقسم لهمها على الناس « انتهى

وقال ابن خلكان : « أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم هي أم الامين محمد بن هارون الرشيد ، وكان لها معروف كثير وفعل خير ، وقصتها في حجبها وما اعتمدته في طريقها مشهورة فلا حاجة إلى شرحها . قال الشيخ ابوالفرج ابن الجوزي في كتاب الالقاب انها سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار ، وانها أسالت الماء عشرة أميال بخط الجبال وتحت الصخر حتى غلغلته من الحل إلى الحرم ، وعمات عقبة البستان فقال لها وكيلا يلزمك نفقة كثيرة . فقالت أعملها ولو كانت ضربة فاس بدينار . وكانت وفاتها سنة ست عشرة ومائتين في جمادى الاولى ببغداد رحمها الله تعالى » انتهى

وأما ابن جبير الاندلسي وقد كانت حجته في سنة ٥٧٩ فانه ذكر زبيدة في كلامه الذي يلي :

« فاجتمع بعرفات من البشر جمع لا يحصى عدده إلا الله عز وجل . ومزدلفة بين منى وعرفات من منى إليها مامن مكة إلى منى وذلك نحو خمسة أميال ومنها

إلى عرفات مثل ذلك أو أشد قليلا، وتسمى المشعر الحرام وتسمى جمعا (قال .
الحريري في مقاماته :

وقلت لعاذلي مهلا فاني سأختار المقام على المقام
. وأنفق ما جمعت بارض جمع واسلو بالحطيم عن الخطام

فلما ثلاثة أسماء . وقبلها بنحو الميل وادي محسر، ومضت السنة بالهرولة فيه
وهو حد بين مزدلفة ومنى لانه معترض بينهما، ومزدلفة بسيط من الارض
فسيح بين جبلين وحوله مصانع وصهاريج كانت الماء في زمان زبيدة رحما الله
أقول هذه الخمسة الاميال من عرفات إلى منى أخذت معنا أكثر من خمس
ساعات من بعد المغرب إلى نصف الليل على اننا كما في سيارة . وهذا مع سعة
الطريق الذي هو أحيانا سهل فيح . ولا عجب فنحن نحواً من مائتي الف نسمة كانوا
مفيضين ذلك المساء في وقت واحد من عرفات الى مزدلفة فنظر قطر الجمال
بالالوف لا بالمئات، وعليها الهوادج يخيل لرائيها من كثرتها وارتفاعها وحركة
الاباعر من تحتها ان هناك مدينة سائرة على متون الايانق . وهناك الركبان
والفرسان، والمشاة على الاقدام، وبالاختصار محشر من الخلائق . وقد يبلغ الحاج
في بعض الاعوام ثلاثمائة الف وأربعمائة الف وجميعهم لابد لهم من الافاضة في وقت
واحد . وقد يتأخر حجاج الشيعة ليلة أخرى ان لم تثبت عندهم رؤية الهلال
وبعضهم يرى انه يسمعهم ماوسع أهل السنة . وعندى ان الاولى ترك الناس
وحريتهم في أمور كهذه، إذ ليس في ذلك مخافة للشرع وانما هو مجرد اجتهاد لا غير (١)

(١) اما تركهم وشأنهم فذلك ما جرت ولا تزال تجري عليه الحكومات من
أهل السنة — واما هدي أئمة السانف وهو اللائق بالوحدة الاسلامية فهو
عدم الخلاف واجتناب التفرق في الشعائر الاسلامية العامة وذلك بأن يترك امر
اثبات اول ذي الحجة الى حكومة الحجاز ولا يحاول الشيعة اثبات ذلك فيها بشهادة
من يشهد منهم برؤية الهلال في حال مكان الرؤية الخ وانما كان يعمل كل احد
باجتهاده الشخصي في المسائل الشخصية، وحكم الحاكم برفع الخلاف في المسائل
الاجتهادية المتعلقة بمصلحة الامة، وتفصيل الموضوع ليس هذا محله

روعة موقف عرفات العام

(ومواكب الحج فيها أيام دول الاسلام)

﴿ ووصف ابن جبير الاندلسي لها في القرن السادس ﴾

مانس لآنس منظر عرفات ليلا . فهو من أبهج ما ارتسم في خاطري من مناظر هذه الدنيا الغاية مع كثرة ماتاهدت في حياتي وما تقلبت في الامصار والعواصم . فقد أقبلنا عليها غلماً آتين من منى ، فكانت أوبه بسما في كواكبها وطرانقها ، منها بسهول وهضاب في خيامها ، وقبابها المضروبة ، ومصاييحها المعانقة . ونيراتها المشبوبة . فكان منظرًا قيد النواظر لا يشبع منه الرائي تطلعا ، ولا يزاد به إلا ابتهاجا . وليست عرفات في النهار بأقل حسنا وجلالا في توج جمعها وتراص قبابها ، ولا سيما في مناظر الخشوع التي تأخذ بالالباب ، ومسامع الادعية التي ليس بينها وبين الله حجاب .

واني أترك وصف عرفات في مثل ذلك اليوم لكتاب شهير لا يلتفت إلى فقير فقرتي بجانب مليء أماليه ، ولا يؤبه بمحقير خرزاتي في معرض بديع آليته .
إلا وهو ابن جبير الكتاني الاندلسي برد الله ثراه قال :

وصف ابن جبير لموقف عرفات

« فأصبح يوم الجمعة المذكور في عرفات جمعا لاشبيه له الا الحشر ، لكنه إن شاء الله حشر للثواب ، مبشر بالرحمة والمغفرة يوم الحشر للحساب . زعم المحققون من الاشياخ المجاورين انهم لم يعاينوا قط في عرفات جمعا أحفل منه ، ولا رؤي كان من عهد الرشيد الذي هو آخر من حج من الخلفاء جمع في الاسلام مثله ، جعله الله جمعا مرحوما معصوما بمزته ، فلما جمع بين الظهر والعصر يوم الجمعة المذكور وقف الناس خاشعين باكين ، وإلى الله عز وجل في الرحمة متضرعين ، والتكبير قد دعلا ، وضجيج الناس بالدعاء قد ارتفع ، فما رؤي يوم أكثر مدامع ،

ولا قلوباً خواشع ، ولا اعناقاً لهيبة لله خواشع ، من ذلك اليوم ، فما زال الناس على تلك الحالة والشمس تلمح وجوههم الى أن سقط قرصها ، وتمكن وقت المغرب ، وقد وصل أمير الحاج مع جملة من جنده الدارين ، ووقفوا بمقربة من الصخرات (١) عند المسجد الصغير ، وأخذ السرو الميمانيون مواقفهم بنازلهم المعلوم لهم في جبال عرفات المتوارثة عن جـ. فجد من عهد النبي ﷺ ، لا تعدى قبيلة على منزل أخرى ، وكان المجتمع منهم في هذا العام عدداً لم يجتمع قط مثله ، وكذلك وصل الأمير العراقي في جمع لم يصل قط مثله ، ووصل معه من أمراء الاعاجم الخراسانيين ، ومن النساء العقائل المعروفات بالخواتين ، ومن السيدات بنات لامراء كثير ، ومن سائر المعجم عدد لا يحصى فوق الجميع وقد جمعوا قدوتهم الامام المالكي «

إلى أن يقول :

« أثار الامام المالكي يديه ونزل عن موقفه فدفع الناس بالنفر دفعاً أرنجت له الارض ، ورجفت الجبال ، فيأله موقفاً مأهول مرآه ، وأرجى في النفوس عقباه ، جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه ، وتعمده بنعماء ، انه منعم كريم حنان منان ، « وكانت محلة الأمير العراقي جميلة المنظر ، بهية العدة ، رائقة المضارب والابنية ، عجيبة اقباب والاروقة ، على هيات لم ير أبدع منها منظرًا ، فأعظمها مرأى مضرب الأمير ، وذلك انه أحدق به سراق كالسور من كتان ، كأنه حديقة بستان ، أو زخرفة بنيان ، وفي داخله القباب المضروبة وهي كلها سواد في بياض ، مرقشة

« ١ » هذه الصخرات التي يتكرر ذكرها معروفة وهي التي وقف النبي الاعظم ﷺ عندها في حجة الوداع ولكنه قال « وقفت ههنا وعرفة كلها موقف » رواه مسلم - يعني ان وقوفه هنا لك انفاقي لا فضيلة في المكان ، لئلا يتباهى الناس بعده عليه ، ولكنه يفعلون ذلك ما استطاعوا

ملونة كأنها أزاهير الرياض ، وقد جمعت صفحات ذلك السرداق من جوانبه الاربعة كلها أشكال درقية (الدرقه هي الترس) من ذلك السواد المنزل في البياض يستشعر الناظر اليها مهابة يتخيلها درقا لمطية (نسبة إلى قبيلة في المغرب الاقصى عندهم أحسن التراس) قد جللتها مزخرفات الاغشية . ولهذا السرداق الذي هو كالسور المضروب أبواب مرتفعة كأنها أبواب القصور المشيدة يدخل منها إلى دهايز وتعاريج ، ثم يفضي منها إلى الفضاء الذي فيه القباب ، وكأن هذا الامير ساكن في مدينة قد أحرق بها سور تنتقل بانتقاله ، وتنزل بنزوله ، وهي من الابهات الملوكة المعهودة ، وداخل تلك الابواب حجاب الامير وغاشيته ، وهي أبواب مرتفعة يجيء الفارس برأيه فيدخل عليها دون تنكيس ولا تطأطؤ ، قد أحكت ذلك كله احراش (من حرش اي خشن) وثيقة من الكتان يتصل باوتاد مضروبة ، أدير ذلك كله بتدبير هندسي غريب .

ولسائر الامراء والاصلين صحبة هذا الامير مضارب دون ذلك ، لكنهن على تلك الصفة ، وقباب بديعة المنظر عجيبة الشكل ، قد قامت كأنها التيجان المنصوبة ، إلى ما يطول وصفه ويتسع القول فيه من عظيم احتفال هذه المحلة في الآلة والعدة وغير ذلك مما يدل على سعة الاحوال وعظيم الانحراف (اعلمها الاحتراف وهو الكسب والتصرف وحرف اعياله كسب ومنه الحرفة) في المكاسب والاموال . ولهم أيضاً في مراكبهم على الابل قباب تظلمهم بديعة المنظر عجيبة الشكل ، قد نصبت على محامل من الاعواد يسمونها القشاوات وهي كالنوايت المحوفة ، هي لركابها من الرجال والنساء كالامهدة للاطفال ، تملأ بالفرش الوفيرة ، ويقعد الراكب فيها مستريحاً كأنه في مهادين فسيح ، وبازائه معادله أو معادلته في مثل ذلك . من الشقة الاخرى والقبة مضروبة عليها ، فيسار بهما وهما نائمان لا يشعران أو كيفما أحبا ، فعند ما يصلان إلى المرحلة التي يحطان بها ضرب سرادقهما للحين إن

كانا من أهل الترفه والتنعم، فدخل بهما إلى السرادق وهما راكبان وينصب لهما كرسي ينزلان عليه فينتقلان من ظل قبة المحمل إلى قبة المنزل دون واسطة هواء يلحقهما ، ولا خطفة شمس تصيبهما ، وناهيك من هذا اترفيه فهؤلاء لا يلقون اسفرهم وإن بعدت شقته نصباً ، ولا يجدون على طول الحل والترحال تعباً ،

ودون هؤلاء في الراحة راكبو المحارات وهي شبيهة الشقائف لكن الشقائف أبـ ط وأوسع وهذه أضـ وأضيق وعليها ظلال تلقي حر الشمس ، ومن قصرت حاله عنها في هذه الاسفار فقد حصل على نصب السفر الذي هو قطعة من العذاب الخ» إـ

أقول : وكم رأت عرفات من هذه القباب والسرادقات وهذه المناظر الشائقات ، وكم رأت طريق البيت الحرام من هذه المحارات وهذه الشقائف ، وكم رأت من راكب وفارس وحاف وناعل ، وكم تطهرت نفوس ، وتمهذبت أرواح ، وصفت قلوب ، وزكت أعمال ، وخزيت شياطين ، وحقنت دماء ، وكفكت دموع ، وصينت أموال ، كل ذلك بسبب هذه الآية الكريمة (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) وكم عاشت بهذه الآية مخلوقات ودخلت على الحجاز أموال ، اللهم إن كل ذلك لما هو فوق تصور العالمين

أما النعمة والرفاهية اللتان أشار إليهما ابن جبير من حال حجاج العراق وفارس وخراسان في ذلك الوقت فلم يبق منها شيء تقريباً إلى الاعصر الأخيرة لان تلك الحال انحوت بسبب الحروب المتواصلة ولا سيما غارة المغول التي أتت على الحرث والنسل ، ونسفت عمران المشرق نسفاً ، فافقرت البلاد ، ونقصت الزراعة ، وتششت العباد ، ونضبت موارد التجارة ، وجاء فتح ترعة السويس في الزمن الأخير فتحوات به تجارة الهند والصين عن فارس والعراق والشام ، واستأثر بها الأوروبيون رأساً مع ان ثروة بغداد والبصرة وشيراز واصفهان وسيراف الخ كانت أيام العباسيين مما تعجز عن وصفه الافلام ، وتتقاصر الارقام ، وتلك الأيام نداؤها بين الناس

ولقد أخطر بيالي ذكر الحامل التي ينتقل منها إلى المنازل بدون أن يخرج الراكب من الظل إلا إلى الطل عمل الملك ليوبولد ملك بلجيكا السابق فقد رأيت له في بروكسل قصرًا حوله حديقة فيحاء وكان أشداً فرعاً من سكة الحديد إلى الحديقة فالقصر داخلاً في نفق تحت الأرض إلى ماتحت القصر فيأتي القطار الخاص بالملك من الخارج فيدخل إلى ماتحت القصر ويخرج الملك من العربة التي هو جالس فيها بخطوة واحدة إلى المصعد الذي هو محاذ أبواب العربة فيرقى به المصعد تَوّاً إلى غرفة نومه الخاصة . وهكذا ينتهي من السكة الحديدية إلى غرفة مبيتته بدون أن يتكلف لامشياً ولا صعوداً ولا نعلماً هل كانت عنده آلة ترفعه من أرض الغرفة إلى السرير ؟!

الوزير الجواد الاصفهاني جمال الدين

وزير أتابك زنكي صاحب الموصل

من حيث اننا في ذكر العمرين (عمر المنزل بالتشديد جملة أهلاً) والشميرين (نمر المال بالتشديد أيضاً كثره) والمسدين للمرات ، والسابقين الى الخيرات ، والمشيدين للممالك ، والممهدين للمسالك، وان سيرة مثل هذه الطبقة في الاسلام هي أحسن السير ، وبها يحسن المبتدأ ويعطر الخبر ، فليسمح لنا القراء بنشر شيء من سيرة الجواد الاصفهاني ، وزير صاحب الموصل اتابك زنكي بن آق سنقر . فهو الوزير أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور ، اتصل بخدمة اتابك زنكي في الموصل في الثلث الاول من القرن السادس للهجرة ، وبعد أن قتل الملك المذكور على قلعة جمبر استوزره سيف الدين غازي بن اتابك زنكي ، وفوض الامور وتدير أحوال الدولة اليه . قال ابن خلكان :

« فظهر حينئذ جود الوزير المذكور ، وانبسطت يده ، ولم يزل يعطي

ويبذل الاموال، ويبائع في الانفق، حتى عرف بالجواد، وصار ذلك كالمعلم عليه حتى لا يقال إلا جمال الدين الجواد» إلى ان قال «وأثر آثاراً جميلة وأجرى الماء إلى عرفات أيام الموسم من مكان بعيد وعمل الدرج من أسفل الجبل إلى اعلاه (١) وبنى سور مدينة الرسول ﷺ وما كان خرب من مسجده، وكان يحمل في كل سنة إلى مكة شرفها الله تعالى والمدينة على ساكنها افضل الصلاة والسلام من الاموال والكسوات للفقراء والمنقطعين ما يقوم بهم مدة سنة كاملة، وكان له ديون مرتب باسم أرباب الرسوم والقصاص لا غير، ولقد تنوع في فعل الخير حتى جاء في زمنه بالموصل غلاء مفرط فواسى الناس حتى لم يبق شيئاً. وكان إقطاعه عشر مغل البلاد، على جاري عادة وزراء الدولة السلجوقية» إلى ان قال عن وفاته «توفي في العشر الاخير من شهر رمضان المعظم — وقيل من شعبان — سنة تسع وخمسين وخمسة واصلى عليه، وكان يوماً مشهوداً من ضجيج الضعفاء والارامل والابتام حول جنازته، ودفن بالموصل إلى بعض سنة ستين فنقل إلى مكة حرسها الله تعالى، وأطيف به حول الكعبة، وكان بعد أن صعدوا به ليلة الوقفة إلى جبل عرفات، وكانوا يطوفون به كل يوم مراراً مدة مقامهم بمكة شرفها الله تعالى، وكان يوم دخوله مكة يوماً مشهوداً من اجتماع الخلق والبكاء عليه، وقيل انه لم يعهد عندهم مثل ذلك اليوم، وكان معه شخص مرتب يذكر محاسنه ويعدد مآثره» إلى ان قال :-

«ثم حمل إلى مدينة الرسول ﷺ ودفن فيها بالبقيع بعد ان أدخل المدينة وطيف به حول حجرة الرسول ﷺ مراراً، وأنشد الشخص الذي كان مرتباً معه:

« ١ » يعني جبل عرفات الذي في وسطها المعروف بجبل الرحمة فانه مقسم

إلى درج بعضه فوق بعض كإبري من وقوف الناس عليه طبقة فوق طبقة وهذا الجبل هو الذي كان يسمى إلا لا - بكسر الهمزة وحكي فتحها

سرى نعه فوق الرقاب وطالما
يمر على الوادي فتثني رماله
سرى جوده فوق لركاب ونائله
عليه وبالماضي فتبكي أرامله
انتهى كلام ابن خلسكان (١)

وانظر الى مايقوله عن هذا الوزير وماثره — الرحالة ابن جبير الاندلسي
وقد عاش في ذلك العهد وهو

« ول هذه البلدة المباركة (أي مكة) حمامان (أحدهما) ينسب للفقهاء الميائثي
أحد الاشياخ المحققين بالحرم المكرم (واثني) وهو الاكبر ينسب لجمال الدين ،
وكان هذا الرجل كصفته جمال الدين . له رحمه الله بمكة والمدينة شرفها الله من
الآثار الكريمة ، والصنائع الحميدة ، والمصانع المبنية في ذات الله المشيدة ، ما لم يسبقه
اليه أحد ، فيما سلف من الزمان ولا أكابر الخلفاء ، فضلا عن الوزراء ، وكان رحمه
الله وزير صاحب الموصل ، تهادى على هذه المقاصد السنية المشتعلة على المنافع العامة
للمسلمين في حرم الله تعالى وحرم رسوله ﷺ أكثر من خمس عشرة سنة لم يرل
فيها باذلا أموالا لا تحصى في بناء رباع بمكة مسبلة في طرق الخير والبر ، مؤبدة
محبسة ، واختطاط صهاريج الماء ، ووضع جباب في الطريق يستقر فيها ماء المطر ،
الى تجديد آثار من البناء في الحرمين الكريمين . وكان من أشرف أفعاله أن جلب
الماء الى عرفات وقاطع عليه بني شعبة سكان تلك النواحي المحلوب منها الماء بوظيفة
من المال كبيرة ، على أن لا يقطعوا الماء عن الحج . فلما توفي الرجل رحمة الله عليه
عادوا الى عادتهم الذميمة من قطعه

(١) هذه الاعمال من نبش القبر والسفر بالجانب أو العظام وأعمال المناسك والزيارة
والندب كلها محرمة في الاسلام . فهل أنكروها للماء ولم يسمع لهم كلام ؟ أم
اشتركوا مع الحكام والعوام ؟ والعبرة في هذا أن بذل المال في المنافع العامة ولا
سبا عمران الحرمين الشريفين وتسهيل الحج والزيارة فيهما له أكبر شأن في قلوب
المسلمين ويكبرون من شأن صاحبه حيا وميتا ما برقونه على العلماء والخلفاء والسلطين

« ومن مفاخره ومناقبه أيضا أنه جعل مدينة الرسول ﷺ تحت سورين عتيقين أنفق فيهما أموالا لا تحصى كثرة . ومن أعجب ما وفقه الله تعالى اليه انه جدد أبواب الحرم كلها، وجدد باب الكعبة المقدسة وغشاه فضة مذهبة، وهو الذي فيها الآن حسبا تقدم وصفه ، وجلل العتبة المباركة بلوح ذهب ابريز، وقد تقدم ذكره أيضا، فأخذ الباب القديم وأمر بأن يصنع له منه تابوت يدفن فيه فلما حانت وفاته أوصى بأن يوضع في ذلك التابوت المبارك ويحج به ميتا، فسيق الى عرفات ووقف به على بعد، وكشف عن التابوت فلما أفاض الناس أفيض به وقضيت له المناسك كلها وطيف به طواف الافاضة . وكان الرجل رحمه الله لم يحج في حياته

نم حمل الى مدينة الرسول ﷺ وله فيها من الآثار الكريمة ما قد ماذكره، وكاد أشرافها يحملونه على رؤسهم، وبنيت له روضة بازاء روضة المصطفى ﷺ وفتح فيها موضع يلاحظ الروضة المقدسة، وأبيح له ذلك على شدة الضمانة بمثله لسابق أفعاله الكريمة . ودفن في تلك الروضة وأسعده الله بالجوار الكريم، وخصه بالموارة في رتبة التقديس والتعظيم ، والله لا يضيع أجر المحسنين » اهـ

نم يعود الى سيرته أيضا فيقول « ولهذا الجل رحمه الله من الآثار السنية، والمفاخر العلية التي لم يسبقه اليها أكبر الاجواد ، وسراة الاجاد ، فبما سلف من الزمان ما يفوت الاحصاء ، ويستغرق الثناء ، ويستصحب طول الايام على الألسنة بالدعاء ، وحسبك انه اتسع اعتناؤه باصلاح عامة طرق المسلمين بمجبة الشرق من العراق الى الشام الى الحجاز حسبا نذكره . واستنبط المياه وبني الجباب واختط المنازل في المغازات، وأمر بعمارها مأوى لأبناء السبيل وكافة المسافرين . وابنى بالمدن المتصلة من العراق الى الشام فنادق عينها لتزول الفقراء ابناء السبيل الذين يضعف أحدهم عن تأدية الاكرية، وأجرى على قومة تلك الفنادق والمنازل

ما يقوم بمعيشتهم، وعين لهم ذلك في وجوه تأبدت لهم فبقيت تلك الرسوم الكريمة ثابتة على حالها الى الآن. فسارت بجميل ذكر هذا الرجل الرفاق، وملئت ثناء عليه الآفاق، وكان مدة حياته بالموصل - على ما أخبرنا به غير واحد من ثقات الحجاج التجار من شاهد ذلك - قد اتخذ دار كرامة واسعة الفناء، فسيحة الارعاء، يدعو اليها كل يوم الجفلى (الوليمة العامة) من الغرباء، فيعهم شعباً ورياً، ويرد الصادر والوارد من أبناء السبيل في ظله عيشاً هنياً، لم يزل على ذلك مدة حياته رحمه الله، فبقيت آثاره مخلدة، وأخباره بالسنة الذكر مجددة، وفضى حميداً سعيداً والذكر الجليل للسعداء حياة باقية، ومدة من العمر ثانية « اه

قلت : ولو لم تكن آثار هذا الرجل مخلدة، وأخباره بالسنة الذكر والشكر مجددة، لما جئنا نحن بعد سبعمائة وثمانية وثمانين سنة نجدها، وننه بها، ونجعلها مناراً للمهتدين، وقدوة للمقتدين، ولا شك أن التاريخ انما يشرف ويكرم بتراجم رجال كهؤلاء جعلوا أنفسهم مصداق الحديث الشريف «الخلق كلهم عيال الله فاحبهم إلى الله أنفعهم لعياله» (١)

فتأمل في هذا الرجل وما أجره من الخيرات العامة، وما برد من حر، وما أغنى من فقر، وما آوى من قفر، وما أمن من خوف، وما قوى من ضعف. وتبصر فيما شاده من الفنادق في الطرقات، وما بناه من المنازل في الفلوات، وما حبس على هذه المؤسسات الخيرية من الاوقاف الدارة، الى غير ذلك من الآثار التي يتحلى بها تاريخ الاسلام، وتطيب بقراتها الانفس، وترتفع الارؤس،

العبرة بتعمير السلف وتخريب الخلف

وقابل هذا الصبر على الخير، وهذا الجلدي الانسانية، وهذا الثبات في الفعل الجليل بما تعرفه من غيره، ممن هو بالأسف أكثر عددًا في ولاية الامور وأعز نفراً، وذلك في صرفهم أموال المسلمين الى جيوبهم، وإنفاقهم ريع اوقافهم وغلة رباعهم على شهوات أنفسهم، وفي إعراضهم عن المصالح العامة الى المنافع الخاصة بل المنافع الخاصة

(١) رواه ابو يعلى والبزار من حديث أنس والطبراني من حديث ابن مسعود

الخديسة ، والمطامع الشخصية الدنيئة ، ولهوهم بسفساف الامور عن معاليها ، وخيانتهم الامة في أماناتها التي حملوها بالاجرة ، وراهم لانهز لهم أريحية الى مبرة ، ولا تسمو لهم همة الى عمل شريف ، ولا اذا تداعى جدار جددوا بناءه ، ولا اذا تشعثت قناة بادروا الى رملها . لا يهمهم حفظ الماضي على حاله فضلا عن أن يبدؤوا ما أثر ، ويفتروا وما فخر ، بل دأبهم في ولاية أمور المسلمين كما جاء في المثل العامي (يا كاون الخضراء ويقطعون اليايسة) وكأنما أورنهم الله خراج المسلمين لينفقوه في السرف والسفه ، ولذات الكروش والفروج ، كأنما هو ترث آباؤهم وأجدادهم ، بل لو كان ترث آباؤهم وأجدادهم ما ساغ لهم ذلك فيه ، ولمنعمهم القضاة العادلون عن هذا السفه ، ولكن أين القضاة العادلون ، وأين العلماء العاملون ، الذين يقولون الحق في وجهه الملوك ويخاطرون بأنفسهم ومصالحهم لاجل نصح الامة ؟ فوالله ما أفسد أسر الاسلام الا أمراؤه — الا من رحم ربك — وما أفسد هؤلاء الامراء الا العلماء الذين أخذ عليهم المواثيق بأزلا يقاروا على معصية ، ولا يواطئوا على معرفة فسكانوا يقارون على المعاصي ويتلفون الى الامراء بالباطيل ، ويفتون لهم بتأويل النصوص الشرعية بغير معناها الحقيقي ، ويسهلون لهم الموبقات بأجمعها ، والمرديات بمخاديرها ، طمعا في الدنيا الفانية ، والمطاعم الوبيئة الذاهبة ، وهكذا تحول أمر هذه الامة من العظمة الى الصغار ، ومن التمكن في الارض الى البوار ، ومن المآثر والمباني الى الدمار ، ومن أحاديث المعالي الى أقاصيص العار والشنار

ولما كان يستحيل أن تسوء الادارة في الداخل بدون أن يستأسد العدو من الخارج ، لان الامم المتجاوزة بعضها لبعض بالمرصاد ، يهتبل الغرة ويقتمح العورة ، لم يلبت ظلم الامراء بتساهل العلماء وما نشأ عن ذلك من اضطراب الدهماء ان أحدث الاثر المستظر ، أتى بالنتيجة البديهة من امتداد يد الغريب وطمعه في ممالك المسلمين واقتطاعه العا الاسلامي قطاراً بعد قطر ، وضر به على المسلمين الذل والمسكنة ، بعد أن كانوا قوة الارض وحلفاء النصر ، وما أحسن قول شوقي في مخاطبة النبي ﷺ

أقطعتمهم غرر البلاد فضيعوا وغدوا وهم في أرضهم غرباء

الاسلام دينه العمران بـرى، من تـبـعة الانحطاط

الذي عليه المسلمون الآن

وتاريخ سافهم المعمرين ، سـجـة على خلفهم المحربين

لم يخسر المسلمون بلدانهم فقط وما تسلط عليها الاجنبي وأخذ كل ما فيها
أخذ عزيز مقتدر فحسب، بل خسروا في نظر الناس حقائقهم وفضائلهم ومعاليمهم
واحسابهم وآدابهم، وصار الناس يمارون في ما تـرهم السوابق ومعاليمهم السوامق
ويجادلون في صحة نظرياتهم الاجتماعية، ويرونهم من ابعد الخلق عن العمران، وينسبون
ذلك الى الدين الاسلامي وإلى القرآن، وإلى التوحيد وإلى عقيدة القضاء والقدر،
وإلى غير ذلك من الاسباب التي يعلمها من له ألفة بكتب الافرنج أو من يجالس
الناشئة الحاضرة في الشرق، وسدق هذه الاقوال كثير من المسلمين أنفسهم واتخذوا
تلك السفسطة قضية مسلمة، ونبذوا الاسلام بتاتا، وأوشك آخرون أن ينبذوه بحجة
انه مصدر الانحطاط، ونسوا انه ما من أمة على وجه الارض وقد سعدت وشقيت
وعلت ونزات، وتداولتها أدوار مختلفة وكانت دياتها واحدة في دوري علوها
وهبوطها وان الاسلام هو أجدر من غيره بان لا يكون مسؤولا عن انحطاط أحد
وانه طالما نهض باهله الى الدرجات العلى عند ما كانوا يعملون بمقتضاها حق العمل.
وإنما كان المسؤول عن هذا الانحطاط، المسلمون لا الاسلام، والقراء لا الكتاب، والحلمة
لا المحمول، والخزنة لا الخزون، وهؤلاء هم الذين فقدوا الممالك وخسروا المجد
القديم، وجنوا هذه الجناية على الشريعة الاسلامية، والمبادئ القرآنية والآداب
العربية، والثقافة الشرقية، وجعلوا كل أولئك مسؤولا عن أمور لا مسؤول فيها غير
الاشخاص في الحقيقة، ولا مجرم غير الخلف الفاسد الذي اضاع الصلاة واتبع
الشهوات ولقي النفي. وإنك لتجد كل كلمة من القرآن شاهدة عليهم وكل نص

من الشرع حاكماً بسوء سيرتهم، ولو أنفقت ما في الارض جميعاً لم تقدر أن تطبق اعمال هؤلاء الملوك والخلفاء والوزراء، والقضاة والعلماء من المسلمين الذين وصلوا بالأمة الى ما وصلت اليه على آية واحدة من القرآن الكريم مفهومة حق الفهم، أو حديث مشهور لا يتطرق الى اسناده الشك، بل خالفوا قواعد الاسلام من أولها الى آخرها واتخذوا كتاب الله المحجود والترتيل والتجويد ولم يعملوا بعشر معشار ما فيه من الاوار والنواهي، ورجعوا يعاتبون الله على الخذلان الذي هم فيه والله قد اجابهم من قبل على اعتراضهم وقال لملهم: (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم) مثل هذه الاحوال من رجال الاسلام الموكول اليهم أمر الأمة قد أوسع للظعن أشداقاً وللنظر بالازدراء أحداقاً وصار الاوربيون يقولون لنا: أنتم لا تعرفون إلا التخريب وليس لكم حظ من العمران ولا من سداد الادارة، وما الادارة عندكم إلا فوضى وبينكم وبين النظام ما بين المشرق والمغرب، الي غير هذا من المثالب . وكذلك أهال اكثرهم بالظعن على نفس الاسلام يقولون فيه : لو كان خيراً لكان أهله قد أثلوا مدنية ووقفوا الى حضارة حقيقية والشجرة إنما تعرف من ثمارها؛ ولم ينفرد بهذا القول الضابط الافرنسي (سيكار) ولا اليسوعي (لامنس) ممن نشرنا كلامهم في مجلة النار مردوداً عليه بالبراهين الساطعة والحجج الدامغة التي اجبرت سيكار نفسه أن يعترف باهميتها . ولكن تشدق بهذا الكلام كثير من علماء الافرنج ومؤلفيهم، وزعموا أن الاسلام والمدنية هما على طرفي نقيض حتى قالوا ان المدنية التي يقال لها في التاريخ « المدنية الاسلامية » لم يكن منها شيء من عمل المسلمين ، وكابروا في هذه القضية المحسوس، وانكروا بداته الامور، وكل هذا من اجل انهم ادركوا أعمال هؤلاء الظلمة الخاسرين من أولياء أمور الاسلام ، وساحوا في بلا المسلمين فوجدوا الغربان تنعق في الاماكن التي كانت معمورة في القديم بملايين البشر، ووجدوا الآثار الجميلة الباقية من الماضي

أشبه بواحات في وسط صحاري من القذارة والشناعة والغبرة، ووجدوا الطرقات لا يكاد السالك يسلكها من الدعارة وفقد الأمانة، ووجدوا شوارع المدن لا يقدر السائر فيها أن يسير إلا محولا نظره ساداً أنفه من كثرة ما فيها من الاوصار والاوساخ، ووجدوا القنى مقطعة، والآبار معطلة، والقصور غير مشيدة والقنطرة مهدمة مبعثرة .

ونحن وجدنا هذه المرة في تسيارنا في جبال الحجاز فضلا عما نعرف من غيرها من بلداننا من آثار العمران الدراسة والسدود الدائرة، والقنوات الممقورة في الصخور، المنقطعة عنها المياه الجارية، مالا يكاد يأخذه الاحصاء، ورأينا منها شيئا كثيراً ليس ترميمه بالأمر المعجز مع شدة ضرورته، وقضينا العجب من إهمال الولاة الغابرين إياه، وتهاونهم بعمارة البلاد إلى هذا الحد، كأن البلاد بلاد أعدائهم (١)

فمن أجل ذلك فسحنا مكانا واسعا في كتابنا هذا لابن كريب وزبيدة العباسية والوزير الموصلي جمال الدين الجواد ومن في ضربهم من رجالات العمران وبناء المدينة ونمثلها لهم بقول المعري:

جمال ذي الارض كانوا في الحياة وهم بعد المات جمال الكتب والسير
وإذا كان قد جرى ذكرى المنازل في الفلوات فسنا في على أخبار أخرى
لطيفة من هذا الموضوع لاتضيق بها رسالة « الارتماسات اللطاف » بل
تكون بالعكس وشيئا لطارزاها

(١) قد حبس المسلمون المتقدمون على الحرمين الشريفين من الاوقاف الكثيرة في كل قطر ما يكفي لجبل الحجاز اعظم بلاد الله عمرا، وقد اكل المسلمون اكثر تلك الاوقاف، ولا يزال المعروف منها يكفي لعمران الحجاز، ولكن يحول دون وصوله حكمهم الظالمون، واعداؤهم الكافرون، الذين استولوا على اكثر بلاد المسلمين

شغف بعض ملوك الاسلام بالعمارة

(مثال منه)

آثار عبد الرحمن الناصر الاموي في الاندلس

أردنا أن نردف أخبار أبطال العمارة وصناديد البناء والتشييد ، و كفاة الشعب والري من مسلمي المشرق ، بأخبار بعض أقرانهم من مسلمي المغرب ، ليعلم الناس أن الاسلام أنجب ملوكا وسلاطين كانوا يحتفلون بالعمران ، ويعمرون القفار ، ويرتبون من أمور المدنية ما يرتبه الافرنج اليوم وما لم يكونوا يحسنون مثله في تلك القرون التي كان المسلمون فيها هم الاعلون في كل شيء ،

فن هؤلاء في المغرب الخليفة عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر الاموي ولست بمتعرض الآن إلى ذكر خلافته التي استمرت خمسين سنة ومغازيه في بلاد الافرنج ، وما آثره الباهرة التي اتفقت عليها تواريخ المشرق والمغرب ولكني أريد أن أذكر من علو همته في البناء ما تتحير به العقول

وذلك أنه بنى قصر الزهراء بقرطبة فكان طول هذا القصر من المشرق إلى المغرب ألفين وسبعائة ذراع أي نحو كيلو مترين ، وعرضه من الشمال إلى الجنوب ألفا وخمسمائة ذراع ، أي نحو كيلو متر ، وكان في الزهراء أربعة آلاف وثلثمائة سارية ، وكان فيها ما يزيد على خمسة عشر ألف باب . وكان يتصرف في عمارة الزهراء كل يوم من الخدام والفعلة عشرة آلاف رجل ، ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة ، وكان من الرجال من له الدرهم ونصف ومن له الدرهمان وثلثاته . وكان يصرف كل يوم في الزهراء من الصخر المعدل المنحوت ستة آلاف صخرة سوى الآجر والصخر غير المعدل . قالوا وكان الناصر يثيب على كل رخامة كبيرة أو صغيرة عشرة دنانير سوى ما كان يلزم لقطعها وحملها ، وجلبه

الناصر الرخام إلى الزهراء من كل البلاد فلا يبيض من « المرية » والمحجزع من « رية » والوردي والاخضر من صفاقس وقرطاجنة بافريقية . وجلب اليها الحوض المنقوش المذهب من الشام ، وقيل من القسطنطينية ، وفيه نقوش وتماثيل وصور على صور الانسان ، ولما جلبه أحمد الفيلسوف - وقيل غيره - أمر الناصر بنصبه في وسط المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ، ونصب عليه اثني عشر تمثالا .

قالوا وبنى في الزهراء القصر المسمى بقصر الخلافة ، وكان سمكه (سقفه) من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونه ، وكانت حيطان هذا القصر مثل ذلك ، وجعلت في وسطه اليتيمة التي أنحف الناصر بها (ليون) ملك القسطنطينية ، وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة . وكان في وسط المجلس صهريج مملوء من الزئبق ، وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب ، وأصناف الجواهر قامت على سوارى من الرخام الملون والبلور الصافي ، وكانت الشمس تدخل على تلك الابواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالابصار .

وكان الناصر اذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه أو ما إلى أحد صقائبه فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كمان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحل قد طار بهم . وهذا المجلس لم يتقدم لاحد بناء مثله لافي الاسلام ولا في غيره ، وانما تهيأ للناصر لكثرة الزئبق في ملكه .

وأجرى الناصر إلى الزهراء المياه وأحرق بها البساتين ، وبنى فيها مسجداً من أبداع المساجد ، وقيل إن العمل في الزهراء استمر أربعين سنة من ملك الناصر ، وقيل انه كان بقصر الزهراء من الوصفاء ثلاثة عشر ألفاً ، وكان الجاري لهم من اللحم فقط كل يوم عدا الطير والحوت ثلاثة عشر ألف رطل ، وكان في القصر

من الجواري والخوادم أكثر من ستة آلاف امرأة . وقيل ان المرتب من الخبز لحيتان الزهراء السابجة في بركها العظيمة ثنا عشر ألف خبزة كل يوم ،

قالوا وكان يرد من الجير والجص في كل ثالث من الايام إلى الزهراء ألف ومائة حمل . وقدر بعض أهل الخدمة في الزهراء أنه كان ينفق فيها كل عام ثلثمائة ألف دينار وان ذلك استمر خمساً وعشرين سنة إلى نهاية ملك عبد الرحمن الناصر . وذكروا أن الحوض المنقوش للذهب الذي جابه الفيلسوف أحمد مع ربيع الاسقف من القسطنطينية لم يكن وحده بل جالوا اليه أيضاً حوضاً آخر يقال له الحوض الصغير أخضر منقوشاً تماثيل الانسان ، وأن الناصر نصبه في بيت المنام بالمجلس الشرقي وجعل عليه اثني عشر تمثالا من الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس العالي مما عمل بدار الصناعة بقرطبة : صورة أسد إلى جانبه غزال إلى جانبه تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وفيل وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطوس ودجاجة وديك وحدادة ونسر وكل ذلك من ذهب مرصع بالجواهر النفيس ويخرج الماء من أفواهها

قلوا وفي يوم الخميس ل سبع بقين من شعبان سنة تسع وعشرين وثلثمائة كمل الناصر بناء القناة الغربية الصنعة التي أجراها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربي قرطبة في الناهر الهندسة وعلى الحنايا المعقودة ، يجري ماؤها بتدبير عجيب ، وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة عليها أسد عظيم الصورة بدم الصنعة ، لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك في غابر الدهر ، مطلي بذهب ابريز وعيناه جوهرتان لهما وبيص شديد يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الاسد فيمجه في تلك البركة من فية فيبهر الناظرين بروعة منظره ونجاجة صبه ، فتسقى من مجاحه جنان هذا القصر على سمعتها ، ويستفيض على ساحاته وجنباته . وبعد النهر الاعظم بما فضل منه . قالوا واستمر العمل في هذه القناة إلى أن انتهت أربعة عشر شهراً ، ولما انطلق فيها الماء إلى تلك البركة كان يوما احتفل فيه الخليفة رحمه الله وعل دعوة جفلى ، وأفضل على عامة الخلق ، ووصل المهندسين والقوام بصلات حسنة جزيلة

عمران قرطبة المعجيب في عهد الناصر

وكان عمران قرطبة في أيام الناصر عاما تاما، وليس من المعقول أن يتناهى هذا التناهي كله في اتمان البنيان وتفخيمه في عاصمة لم يستبحر عمرانها ولم تنزخر لحج لاجتماع فيها ، فقد رووا أن عدد دور قرطبة كان العهد الناصر وابنه الحكم نحو ٢٠٠ ألف دار . وهذه دور الاهالي ، فأما دور الوزراء والعمال والكتاب والاجناد وخاصة الملك فكانت ستين ألف دار هذا عدا الحمامات والخانات والفنادق ، وقلوا انه كان فيها ثمانون ألف حانوت . وكان لقرطبة ٢٨ ربضاً وقيل ٢١ ربضاً كل واحدة منها بلدة فيها منبر تقام فيه الجمعة

وقيل إن الطارق من قرطبة إلى جميع هذه الارباض كانت تنار ليلا بالقناديل وهي مسافت من ١٠ الى ١٥ كيلو متراً . فأما مساجد قرطبة لذلك العهد فقد جاءت فيها روايات مختلفة فقبل ثلاثة آلاف وثلاثمائة . وقل ابن حيان : بلغت المساجد بقرطبة في مدة ابن أبي عامر (بعد الناصر بمدة غير طويلة) ألفاً وسبعمائة مسجد ، والحمامات تسعمائة حمام .

وأما مسجد قرطبة الأعظم فإن القلم ليعجز عن وصفه ، فمن شاء فليقرأ ذلك في نفح الطيب وغيره من تواريخ الاندلس أو فليذهب إلى اسبانية ويشاهده فهو لا يزال أ كثره قائماً وإن كان قد تحول إلى كنيسة ، وقد ذهب كثير من النفائس التي كانت تزينه . ولا أعلم هل أبقاه الاسبانيول على مساحته الاولى أم اختصروا منه فالذي في كتب العرب أن تكسیره كان نحو ٣٣ ألف ذراع وأنه كان فيه ١٢٠٠ عمود و٩٣ عموداً كلها رخام . وقد كان لعهد الناصر وأهله باب مقصورة هذا الجامع من الذهب ، وقد أجرى الذهب في جدار المحراب وما يليه على الفسيفساء . وكانت الصومعة من بناء الناصر تعلو ثلاثاً وسبعين ذراعاً إلى

أعلى القبة المتفحة التي يستدبرها المؤذن ، وفي رأس هذه القبة تفانجح ذهب وفضة وودور كل تفاحة ثلاثة أشبار ونصف ، فائنتان من التفانجح ذهب إبريز وواحدة فضة ، وتحت كل واحدة منها وفوقها سوسنة قد هندست بأبدع صنعة ، ورمانة ذهب صغيرة على رأس زج .

وكان في الجامع مائتان وثمانون ثريا وثمانمائة وخمس كؤوس ، وكان يوقد فيه في شهر رمضان فقط ثلاثة قناطير من الشمع ، وكان له كل ليلة جمعة رطل عود وربع رطل عنبر ، وكان من فيه من الأئمة والمؤذنين والسدنة نحو ١٥٠ رجلا ، وروى بعضهم ٣٠٠ ويجوز أن يختلف العدد باختلاف الاوقات ،

وقالوا أن الحكم المستنصر بنى لهذا الجامع أربع ميضآت منها ثنتان للرجال وثنان عند مقاصير النساء وأجرى في جميعها الماء من سفح جبل قرطبة وصبها في أحواض رخام ، وأجرى فضل هذا الماء العذب إلى سقايات اتخذهن على أبواب الجامع وهي جوب ثلاث من حياض الرخام اقتطعها من مقطع المنستير بسفح جبل قرطبة واحتفر الرخاميون هناك أجوافها بمناقيرهم في المدة الطويلة حتى استوت في صورها البديعة ، تخفف ذلك من ثقلها وأمكن من اهباؤها إلى أماكن نصبها بأكتاف المسجد الجامع ، فتهبأ حمل الواحدة منها فوق عجلة كبيرة اتخذت من ضخام خشب البلوط على قنل موثمة بالحديد الثقف محفوفة بوثاق الحبال ، قرن لجرها سبعون دابة ، ومهدت قدامها الطرق ، وتيسر نقلها في مدة ١٢ يوما ، فنصبته في الإقباء المعقودة لها . وابتنى الحكم المستنصر غربي الجامع دار الصدقة واتخذها معهداً لتفريق صدقاته المتوالية ، وابتنى للفقراء البيوت قبالة باب المسجد الكبير

وربما ينسب بعض القراء شيئا من هذه الروايات إلى المبالغة ويجوز أن يكون فيها زيادة في الوصف لاجل نقل الحقيقة إلى ذهن السامع ، إلا أن كثيراً من هذه الآثار محفوظة إلى اليوم ، فجامع قرطبة لا يزال قائماً وإن كانت الزهراء والزاهرة

وغيرها قد درست . وقصر اشبيلية لا يزال قائماً ، وحراء غرناطة لا تزال ماثلة ومباني العرب في طليطلة أكثرها لم يتهدم وكل من رأى الباقي من تلك الآثار لا ينسب مجمل تلك الروايات إلى المبالغة

ثم ان ابن خلدون شيخ فلاسفة التاريخ برصانته وجلالة قدره وزيادة نعمه على المبالغين في الاخبار يقول :

« ولما استفحل ملك الناصر صرف نظره الى تشييد القصور والمباني، وكان جده الامير محمد وأبوه عبد الرحمن الاوسط وجده الحكم قد احتفلوا في ذلك وبنوا قصورهم على أكل الانتقان والضخامة ، وكان فيها المجلس الزاهر والبهور والكامل والمنيف، فبنى هو إلى جانب الزاهر قصره العظيم وسماه دار الروضة ، وجلب الماء إلى قصورهم من الجبل ، واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر ، فوفدوا عليه حتى من بغداد القسطنطينية ثم أخذ في بناء المستنزهات فتخذ منية الناعورة خارج القصور وساق لها الماء من أعلى الجبل على أبعد مسافة

ثم احتط مدينة الزهراء (صدق ابن خلدون لان الزهراء في الحقيقة كانت مدينة لا قصرأ) واتخذها لنزله، وكرسياً للملكه ، وأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين ماعفا على مبانيهم الاولى، واتخذ فيها محلات للوحش فسيحة الفناء ، متباعدة السياج ومسارح للطيور مظلمة بالشباك ، واتخذ فيها دور الصناعة لآلات السلاح للحرب والحلي للزينة وغير ذلك من المهن وأمر بعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة وقاية للناس من حر الشمس » اهـ .

وأما الزهرة فقد بناها المنصور بن أبي عامر الشهير الذي يعد من أعظم رجال الاسلام جعلها على نهر قرطبة الاعظم واحتفل جداً ببنائها حتى صارت أشبه بمدينة أيضاً ومن أحلى ما قرأت من غرام عبد الرحمن الناصر الاموي بالعمران والانتقان والفراهة، والرفاهة وامتثال أدوات الرفق على نسق العصر الحاضر ماجاء في

« الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى » ان أبا العيش احمد بن قاسم كنون من ملوك الادارسة بالمغرب كان قطع دعوة العبيدين خلفاء مصر وتونس وباع الخليفة عبدالرحمن الناصر صاحب الاندلس وخضع المغرب كله لابي العيش بنفوذ الناصر وقوته . ولما كان الخليفة في جهاد دائم مع الافرنج أراد ابو العيش أن يلحق بساحة القتال ، واستأذن الخليفة في ذلك فأذن له وأمر بان يبني له في كل منزل ينزله قصرا وذلك من الجزيرة الخضراء (بقرب جبل طارق) إلى الشحر (حدود بلاد الافرنج وكانوا يقولون لسر قسطة الشحر الاعلى) وأن يجري له فيها ألف دينار في كل يوم ضيافة له ، ومن الفرش والاثاث والطعام والشراب ما يقوم بالقصر ، فلم يزل على ذلك حتى وصل إلى الشحر ، فكانت منازلها من الجزيرة إلى الشحر ثلاثين منزلا اه

مثال آخر

• النظام عند المسلمين ، من خبر عبد المؤمن صاحب دولة الموحدين .

ومن هذا النمط وأبلغ منه في ترتيب المنازل والمناهل ماعمله عبد المؤمن بن علي صاحب دولة الموحدين في المغرب . فقد كانت افريقية (بلاد تونس) في يد بني زيري ابن مناد الصنهاجيين ، عمالا للعبيدين خلفاء القاهرة ، ولكن كانت دولة بني زيري قد أشرفت على الهرم وزاحتهم الثوار من العرب ، فانتهز الافرنج أصحاب صقلية هذه الفرصة فيهم وملكوا منهم عدة ثغور ، مثل صفاقس وسوسة وغيرهما ، ثم ملكوا المهديّة وهي دار ملك الحسن بن علي الصنهاجي ، فذهب هذا إلى عبد المؤمن بن علي القائم بدولة الموحدين واستعداه على الافرنج ، وبينما هذا يهجم بذلك إذ أوقع الافرنج باهل زويلة التي هي على مقربة من المهديّة ، وكانت وقعة شنيعة قتلوا فيها النساء والاطفال ففر جماعة منهم إلى عبد المؤمن بن

علي يستنصرونه وهو بمراكش، وقلوا له لم يبق في ملوك الاسلام من يكشف هذا الكرب غيرك، فدمعت عيناه وأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقل: ابشروا، لانصر نكم ولو بعد حين. ثم أمر بعمل الروايا والقرب وما يحتاج اليه العسكر في السفر، وكتب إلى من بطريقه من نوابه يأمرهم بحفظ جميع ما يتحصل من الغلات، وأن يترك الزرع في سنبله ويخزن في مواضعه، وأن يحفروا الآبار في الطرق، ففعلوا جميع ما أمرهم به وجمعوا غلات الحب ثلاث سنين وتقلوها إلى المنازل التي على الطريق وطينوا عليها، فصارت كأنها تلال

فلما كان صفر من سنة أربع وخمسين وخمسمائة سار عبدالمؤمن من مراكش يؤم بلاد افريقية واجتمع عليه من العساكر مائة الف ومن السوق والاتباع أمثالهم، وكان هذا الجند يمتد أميالاً، وبلغ من حفظه وضبطه انهم كانوا يمشون بين الزروع فلا تتأذى بهم سنبله، وإذا نزلوا صلوا بامام واحد بتكبيرة واحدة لا يتخلف منهم أحد كأننا من كان. ولم يزل يسير إلى أن وصل إلى مدينة تونس وأقبل أسطوله في البحر في سبعين شينياً وطريدة وشلندا، ونازل البلدة وأخذها وسار إلى المهديّة واسطوله يحاذيه في البحر، وكان بالمهديّة يومئذ خواص الفرنج من أولاد ملوكها وأبطال فرسانها، وأخلوا مدينة زويلة ودخلها عبدالمؤمن بعساكره والسوق الذين معهم فصارت مدينة معمورة في ساعة واحدة، ونزل بظاهرها من لم يجد موضعاً فيها. وانضاف إلى جيش عبدالمؤمن من صنهاجة والعرب مالا يدخل تحت احصاء، وأقبلوا يقاتلون المهديّة فلا يؤثر فيها لحصانتها وضيق مجال القتال عليها لان البحر دائر باكثرها، فكأها كف في البحر وزندها متصل بالبر. وركب عبدالمؤمن شينياً ومعه الحسن بن علي النصنهاجي وتطوف بها في البحر فهاله ما رأى من حصانتها، وعلم انها لا تفتح بقتال براً ولا بحراً وليس لها إلا المطاولة، وقال للحسن كيف نزلت عن مثل هذا الحصن؟ فقال له: لقلة من

يوثق به وعدم القوت وحكم اقدر، فقال صدقت وعاد وأمر بجمع الغلات والاقوات وترك القتل فلم يرض غير القليل حتى صار في المعسكر مثل الجبلين من الحنطة والشعير . فكان من يصل إلى المعسكر من بعيد يقول : متى حدثت هذه الجبال؟ فيقال هي حنطة وشعير فيعضي العجب مما يرى ، وتمادى الحصار وفي أثنائه استولي عبد المؤمن على طرابلس وصفاقسر، وسوسة وجمال نفوسة وفتح قابس بالسيف، وأطاعه أهل قفصة، وإذا بأسطول صقلية آت مدداً للافرنج في المهديّة وكان عدده ١٥٠ شينيا غير الطرائد ، وكان هذا الاسطول غزا جزيرة يابسة (بقرب ماجورقة من جزر اسبانية) وسبى أهلها، فأراد الدخول إلى ميناء المهديّة فخرج اليهم أسطول عبد المؤمن، وركب المعسكر جميعه إلى جانب البحر، فانهزمت شواني الافرنج وتبعهم المسلمون وأخذوا منهم سبع شواني، وعاد أسطول المسلمين مظفراً منصوراً ، ويأس افرنج المهديّة من النجاة ومع ذلك فقد صبروا على الحصار أربعة أشهر أخرى إلى أن نزل من نرسائهم عشرة وسألوا عبدالمؤمن الامان على أن يخرجوا باموالهم وكان قد فنى عندهم اقوت حتى أكلوا الخيل فعرض عبدالمؤمن عليهم الاسلام فقالوا : ما جئنا بهذا وانما جئنا نطالب فضلك ، وترددوا اليه أياما وقالوا إذا أنعمت علينا كننا لك أرقاء في أرضنا ، فعفا عنهم، وكان الفضل سيمته وأعطاهم سفنا ركبوا فيها إلى بلادهم، وكان الفصل شتاء فغرق أكثرهم قبل الوصول إلى صقلية وكان صاحب صقلية قد قال ، أن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهديّة قتلنا المسلمين الذين عندنا بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم ، فأهلك الله الفرنج غرقا ، وكانت مدة استيلائهم على المهديّة اثنتي عشر سنة ، انتهى كلام صاحب الاستقصا ملخصا

وذكر ياقوت في معجم البلدان المهديّة ووصف حصانها بأكثر مما وصف صاحب الاستقصاء وقال: انها من بناء المهدي العبيدي الفاطمي وان روجار صاحب

صقلية أنفذ اليها جرجي سنة ٥٤٣ واستولى عليها وبقيت في يد الافرنج اثنتى عشرة سنة حتى قدم عبد المؤمن سنة ٥٥٥ فأخذها ولم تكن حصانتها في جنب قضاء الله شيئاً انتهى

فاما قول صاحب صقلية انه لو قتل عبد المؤمن افرنج المهديّة لقتل هو مسامي صقلية فقد كان يصدر مثل هذا الفعل من الافرنج ... فاما المسلمون فكانوا يأنفون من ذلك ، وصالح معاوية بن أبي سفيان الروم وارتهن منهم رهنا فوضهم ببيعابك ثم غدر الروم وقتلوا المسلمين فلم يشأ معاوية والمسلمون قتل من في أيديهم من رهاائن الروم وخلصوا سبيلهم ، وقالوا : وفاء بغدر ، خير من غدر بغدر ، وهو قول العلماء والامام الاوزاعي رضي الله عنه . وهو من قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى)

وقد كان شاهد هذا الحديث هو صنيع عبد المؤمن بن علي السلطان الكبير الذي قيل فيه :

ماهر عطفه بين البيض والاسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي
فقد ساق مائة الف مقاتل ومعها مائة اف من سوقة واتباع من مرا كش
إلى تونس بدون أن تتأذى بهم سنبلة قمح ، ولما أراد حصار المهديّة جعل الحبوب جبالا . فقتل هذا بين الملوك يقدر له النجاح ، ويصحب دولته الفلاح
ولعبد المؤمن بن علي آثار كثيرة منها بمرّا كش بستان المسرة طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب منها ، ووروا انه كان مبيع زيتون هذا البستان وفواكه ثلاثين ألف دينار مؤمنية على رخص الفاكهة بمرّا كش

وقد درس هذا البستان كما درس غيره حتى جدده المنصور السعدي بعد

ذلك بأربعائة وخمسين سنة

مَثَلُ خَالِ الْآخِرِ

عَمْرٍو بِالسَّعْدِيِّ

من سيرة المنصور السعدي فاتح تنبكتو والنيجر والسودان

كان المنصور السعدي صاحب المغرب وفاتح تنبكتو والسودان وبلاد النيجر من أشهر الملوك الذين عمروا وثمروا في الاسلام . ولو لم يكن كذلك ما تمكن من ارسال تلك الجيوش الجراراة إلى تلك البلاد القاصية العاصية ، ومن تدوينها و اضافتها إلى مراكش حيث بقيت مدة طويلة تابعة للمغرب . فم له ما يفتخر الافرنج اليوم بمثله مع تقدم وسائل النقل وترقي جميع أسباب العمران أضعافا مما كانت منذ ثلاثة قرون ونصف . وكانت جيوش المنصور السعدي لا تحصى ، وكان به في ترتيب جيوشه وحالات أسفاره من فون النظام ما يدهش العقول ، وقد نلم بذلك في فرصة أخرى

والمنصور السعدي هو باقي بقصر البديع في حاضرة مراكش مكت يبني فيه ست عشرة سنة ، لم يتخلل ذلك أدنى فترة ، وحشد المنصور له الصنائع حتى من بلاد الافرنجة ، وجلب له الرخام من بلاد الروم ، وكان المنصور قد اتخذ معاصر السكر ببلاد حاحة وشوشاوة وغيرهما ، فكان عنده سكر كثير ، فكان - حسبما قالوا - ربما اشترى الرخام بالسكر وزنا بوزن

وكان المنصور السعدي الملقب بالذهبي يحتفل بالعمران إلى الغاية القصوى ، ويحسن إلى الاجراء ويجزل صلة العارفين بالبناء ، ويوسع عليهم في العطاء ، ويقوم بمؤن أولادهم حتى لا تشوف اليهم نفوسهم ، ولا تشعب أفكارهم ، وأما قصره «البديع»

فلا أجد هنا فسحة لوصف محاسنه الباهرة، فن أراده فليقرأ ذلك في الاستقصا
او غيره من تواريخ المغرب

وأندكر آني قرأت لجيروم وجان نارو من أشهر كتاب الفرنسيين كتابين.
في وصف بلاد مرا كش ومن جملة ماذ كرا بافتتان لا يوصف قبة مدافن الملوك
السعديين، وقد قالوا ان فيها من بديع الصنعة مالا يخطر على بال أحد، وان من
لم يشاهد هذه القبة وما هناك من المباني «لا يعرف إلى أية درجة تناهت المدنية الاسلامية»

مشال آخر

سيرة مولاي اسماعيل

(سلطان المغرب في اواخر القرن الحادي عشر الى منتصف القرن الثاني عشر)

ومن أعظم ذوي الآثار بين ملوك المغرب بل بين ملوك الاسلام بل بين
ملوك العالم بأسره السلطان المولى اسماعيل جد العائلة الشريفة المالكة الى اليوم
في المغرب . وكان ملكه بعد الثمانين وألف للهجرة ، وهو الذي قلع الاسبانيول
والبرتغال من سواحل المغرب ، وقلع الانكليز من طنجة ، وألف الجيش الدائم
المسمى بالبخاري ، وكان مركبا من مائة ألف من العبيد السود . واستمر حكمه
أربعا وستين سنة منها سبع سنوات بالنيابة عن أخيه المولى الرشيد وسبع وخمسون
سنة بالاصالة ، حتى كان جهلة الاعراب يعتقدون انه لا يموت وكان الذين يستبطئون
موته يلقبونه (بالحي الدائم) فهو والمستنصر العبيدي الفاطمي ولويس الرابع
عشر وفرانسو جوزيف من قبيل واحد في طول مدة الحكم . وكان المغرب في طول
مدة حكمه يتمتع بالأمن الشامل

قال صاحب الاستقصا « لم يبق لأهل الدعارة والفساد محل يأوون اليه

ويعتصمون به ، ولم تقلهم أرض ولا أظلتهم سماء سائر أيامه »
وعندي كتاب تاريخ للسلطان المولى اسماعيل بالفرنسية نقلت عنه بعض
جمل مرة في إحدى مقالاتي إلى (الشورى) وكان المولى اسماعيل مغرماً أيضاً
بالبناء ، متذكراً قول القائل :

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبالسن البنيان
ان البناء إذا تعاظم شأنه أضحى يدل على عظيم الشأن

وكان يحب مكناسة الزيتون لعذوبة ما بها ، وطيب هوائها ، وسلامة مخزنها
من العفونة . فلما فرغ من أمر فس جاء الى مكناسة واشترى دور الاهالي ،
وأمرهم بالبناء في غريبها ، وأدار عليها السور وانفرد بالجانب الشرقي من المدينة ،
وجعله كله براحا ، وشرع يبني فيه ، واستجد الصناعات من جميع البلدان ، وفرض
على القبائل عدداً معلوماً من الرجال والبهايم يبيعون به كل شهر . وفرض على المدن
والخواضر عدداً معلوماً من البنائين والنجارين والحدادين والنحاسين — إلى
غير ذلك ، وكانت حاضرة ملكه لا تخلو من عشرين ألف أسير من الافرنج
فكان يشغلهم أيضاً في مبانيه

وكان كلما انتهى من قصر بنى غيره وكانت الجنان تحيط بقصوره كلها ،
وبنى مسجداً عظيماً جداً في داخل القصبة التي أسسها ، فضاقت هذا المسجد بالناس
فيما بعد ، فبنى مسجداً أعظم منه اسمه (الجامع الاخضر) وجعل له باين : باباً
إلى القصبة وباباً إلى المدينة . وجعل للقصبة ٢٠ باباً كلها في غاية الارتفاع والسعة
مقبوة من أعلاها ، وفوق كل باب منها برج عظيم ، عليه من المدافع النحاسية العظيمة
ما يقضي بالعجب ، وجعل في هذه القصبة بركة عظيمة تسير فيها الفلك والزوارق
للنزهة والانبساط . وجعل في القصبة هرباً عظيماً جداً لا خزان الحبوب يقال انه
كان يسع حاصلات أهل المغرب ، وجعل بمجواره سواقي للماء في غاية العمق مقبواً

عليها وبنى أعلاها برجاً عظيماً مستدير الشكل فيه مدافع موجهة إلى كل جهة وأما الاصطبل فلا أظن أنه وجد اصطبل مثله في العالم لان طوله فرسخ وعرضه فرسخ (الفرسخ نحو كيلو مترين) مسقف على اساطين وأقواس عظيمة في كل قوس مربوط فرس، وبين الفرس والفرس عشرون شبراً . كان يربط بهذا الاصطبل ١٢ ألف فرس مع كل فرس سائس من المغاربة وخادم من اسرى الافرنج (سقى الله تلك الايام) وفي هذا الاصطبل ساقية للماء مقبوة الظهر يأتي منها الماء الى كل مربوط فرس بثقب خاص، وفي وسط الاصطبل قباب معدة لوضع سروج الخيل، وفيه هري متناه في العظمة مربع الشكل معقود أعلاه على أساطين وأقواس هائلة لوضع أسلحة الفرسان وينفذ اليه الضوء من شبايك من حديد من جهاته الاربع . وفوق هذا الهري قصر اسمه المنصور ارتفاعه مائة ذراع وفيه ٢٠ قبة في كل قبة طاق عليه شباك من حديد يشرف منه أهل القبة على بسيط مكناسة الزيتون، ويجاور هذا الاصطبل بستان على قدر طوله، فيه من شجر الزيتون وجميع الفواكه ما يدهش، ويتخلل هذه القصور التي في داخل القصبية شوارع مستطيلة متسعة، وأبواب عظيمة فاصلة بين كل ناحية وغيرها، وساحات ورحاب فسيحة، إلى غير ذلك مما يتعذر استقصاؤه

قال صاحب (البستان) «ولم تزل تلك البناءات على طول الدهر قائمة للجبال، لم تخلقها عواصف الرياح ولا كثرة الامطار والثلوج، ولا آفات الزلازل التي تخرب المباني العظام، والهياكل الجسام» قال: «ومن يوم مات المولى اسماعيل والملك من بنيته وحفدته يخربون تلك القصور على قدر وسعهم، وبحسب طاقتهم، ويبننون بأبقاضها من خشب وزليج ورخام ولبن وقرميد ومعدن وغير ذلك الى وقتنا هذا، وبنيت من أبقاضها مساجد ومدارس ورباطات بكل بلد من بلدان المغرب، وما أتوا على نصفها من مائة سنة، وأما الجدارات فلا تزال ماثلة كالجبال الشوامخ» الخ

قلت وقد مضى على ذلك من عهد هذا الكاتب نحو من مائة وستين سنة ولا تزال آثار اسماعيل في مكناسة الزيتون تحير العقول، وكان يمكن ان تبقى القرون وبعدها القرون، ولم تعمل فيها المعاول والفؤس . فأما ان أولاد السلطان المذكور وحفدته كانوا يهدمون منها ويبنون بأنقاضها فهذا العمري شأن جميع ملوك الاسلام وأمرائه وأنباعه تقريبا ، فكنا في هذا المعنى من اولاد وحفدة المولى اسماعيل لا نعرف سوى هدم ما بناه لنا أسلافنا من مادي ومعنوي على السواء وان بنينا شيئا فانما نبني بأنقاض الابنية العتيقة . نحن هكذا في المشرق والمغرب لانه لا يوجد أمة يشبه بعضها بعضا مثل المسلمين

وبرغم كل ما هدمناه وعفيناه من الآثار لا يزال شيء كثير أفلت من تحت معاونا الهادمة ونجا من بين أيدينا الطولى في التدمير . ولا تزال الافرنج تصور من هذه الآثار وتتحف بها العالم المتعدين

وبين يدي مجاميع عدة من الصور الفوتوغرافية منها ما يشتمل على المنابي الاسلامية في المشرق ومنها مجموعة خاصة بفلسطين ، ومنها مجموعة خاصة بالقطار المغربية ، ومنها ماهو خاص بالاندلس . وتضمن المجموعة من هذه جنهات وثلاثة وأربعة جنهات تسمح النفس بها لتزيين قاعة الاستقبال بمثلها، لانها أولى بقاعات الاستقبال منها مخزائن الكتب

وأما من جهة الكتب الخاصة بموضوع الفن المعماري الاسلامي فعدا ما كتب في هذا الباب في أوربة وما برز فيه الدكتور الفيلسوف غستاف لوبون ظهر كتاب حديث المسيو غروسه المتخصص في تواريخ الامم الاسيوية اسمه (مدنيات الشرق) والمؤلف افرنسي اسمه Kené Groasset سبقت له مؤلفات عن الشرق الاقصى: اليابان والصين ثم عن الهند — معدودة في الطبقة العليا من التحقيق والصحة ، وفي هذه الايام الاخيرة أخرج كتابا عظيما ظهر منه الجزء الاول يبحث عن مدنيات آسية من أقرب وقت من العصر الحجري ثم المدنية المصرية

ثم المدنية الكلدانية الاشورية ثم المدنية الفارسية القديمة ثم المدنية العربية ثم المدنية الفارسية في الاسلام . وكل هذا بالرسوم والصور

ولابد من أن نجعل في البحث نصيبا لهذا الكتاب لانه رفع فيه راية بيضاء للعرب وفسح لهم مكانا فسيحا عاليا من تأليفه يفتأ الحصرم في أعين الشعوبية المحدثين الذين منهم نفر بمصر يحاولون ان يغمطوا من فضل العرب وان يفضوا من قدر حضارتهم وأن ينطحوا صخرة مجدهم بترون عتاد ليس أمامها الا الوهى هذا — وقد يقول بعضهم : إلا ان ماترويه وتقولوا انما كان في عصر ماضية خالية ، واليوم قد تحول هذا كله وحصل الراديو والكهرباء والبخار وأننى لنا أن نباري الافرنج وقد تصرفوا بالطيارات والدبابات ووصلوا الدنيا بعضها ببعض باللاسلكي والباخرة والسيارة الكهربائية وغير ذلك

فان كان باقيا من ينطق بهذا السخف من الشرقيين قلنا له : انك لني ضلال مبين ، فان الرقي الاوربي لم يكن مبدؤه البخار وتموجات الهواء وانما كان مبدؤه النهوض والارادة ، ومنها وصل بهم اجتهادهم في البحث والتنقيب الى استخدام قوة البخار وقوة الزيت والاستفادة من تموج الهواء . فأصل الرقي هو إرادة الرقي ومعدات الصعود حاضرة لمن شاء الصعود ، ولا ينبغي للمرء أن يكون عالما بالفن حتى ينشره ويحمل الناس ، عليه ، فمحمد علي كان أميا تقريبا وقد كان رجلا عظيما وأسس مدينة مصر الحديثة

وابن سعود « البدوي » على رأي أعدائه الذين يقصدون غمزه بهذه الكلمة لم تمنعه بداوته عن استعمال السيارات الكهربائية والمواصلات اللاسلكية وغيرها من أسباب المدنية المصرية ، وقد وفق لذلك في وقت قصير وقد بدأ به الانقلاب المادي المدني في جزيرة العرب ، ولو كان لمملكة ابن سعود دخل الحكومة المصرية أي ٤٢ مليون جنيه في السنة لأجرى من المشروعات العمرانية في الحجاز ونجد ما لا يخطر على قلب بشر

ونعود الآن الى الحجاز ونذكر ما كان فيه وما ابتدا أن يكون فيه وما نرجو ان يكون فيه في المستقبل

خبر المطوفين في مكة المكرمة والمزورين في المدينة المنورة

نعود الى الموضوع المتعلق بالحجاز خاصة ونطوف على مقام مقام منه فنبداً بالمطوفين والمزورين فنقول :

ان المطوف يكون لازماً ومتعدياً ، فاللازم هو بمعنى الطائف لان العرب تقول : طاف بالمكان وطوف به . فالمطوف قد يتضمن معنى الطائف وقد يصدق على الحاج نفسه لانه يطوف (بالتشديد) بالبيت العتيق ، وقد يكون متعدياً وهو من طوفه مثل أطافه ، فالمطوف هو الذي يطوف بالحاج حول البيت وفي المقامات المباركة . ومن الغريب اني لم أجد « المطوف » في كتب اللغة ولكن القياس يقتضيه فهو اسم فاعل من طوفه او اسم فاعل من طوف به .

وأما « المزور » فهو في اللغة من يكرم الزائر ، يقال : زدهم فزوروني ، أي أكرموني وأحسنوا إلي . ولا شك ان هذه اللفظة تشعر عند سماعها شيئاً من الكراهية لاشتراكها في معنى آخر ، وهو الآتي من الزور ، ولكن اللغة واسعة ، ولم من لفظ يدل على معاني كثيرة وليس هذا منحصراً في العربية بل هو في كل اللغات .

ولفظه « المزور » بمعنى الذي يقوم بخدمة الزائر لم يوجد مع الأسف سواها لهذا المعنى فلا بد من قبولها على علاقتها ، ويجوز أن تقول « المزير » بضم أوله وهو اسم فاعل من ازاره ، ولكن العامي يستعمل لفظه « مزير » وأن يقول : جاء المزورون رأيت المزيرين ومررت بالمزيرين ، فهو يفضل أن يقول : جاء المزورون ورأيت المزورين الخ وعدا هذا الاستقلال في اللفظ لا تتضمن لفظه « مزير » ماتتضمنه لفظه « مزور » لأن المزير اسم فاعل من ازاره أي جعله يزور ، وأما

المزور فهو الذي يخدم الزائر ويكرمه ، وهو أقرب الى المعنى المراد برغم قبح اشتراكه في معنى آخر

وبالاختصار نقول : ان في الحجاز الشريف حماء الله طائفتين لا بد لقاصد الحجاز أن يكون له علاقة معهما ولا يكاد يستغنى أحد عنهما ، وهما المطوفون بمكة والمزورون بالمدينة

فالحاج يأتي غريباً لا يعرف أحداً والغريب أعمى ولو كان بصيراً ، فلا بد له من دليل يدهله ويسعى بين يديه ويقضى حوائجه ويرتب له قضية سفره وميئته ويعلمه مناسك الحج التي أكثر الحجاج يجهلونّها ، وإن كان منهم من يعلمها جملة فليس يعلمها تفصيلاً . وإن كان منهم من يعلمها جملة وتفصيلاً فهو النادر الذي لا يبنى عليه حكم . وزد على هذا ان الحجاج ليسوا جميعاً من أبناء العرب فيمكنهم أن يسألوا عن الطرق والمنازل والمناسك والمناهل ويزيلوا عمى الغربة بطول السؤال لا يمكن تفاهمهم مع الحجازيين ، بل حجاج العرب لا يزيدون على خمس حجاج المسلمين والاحماس الاربعة الباقية هي من أمم تجهل اللسان العربي ، فكيف يصنع حجاج هذه الامم إذا لم يكن المطوفون ؟ وكيف تصنع المزدادة (زوار المدينة المنورة) إذا لم يكن المزورون ؟

واني لا أعلم ان كثيراً من الناس يطعنون في المطوفين والمزورين بل يبالغون في ذمهم أو في ذم العدد الكثير منهم ، ويقولون انهم ينهبون الحاج ويحجرون عليهم ويتقاضونهم من الأجرة أضعاف حقوقهم ، وقد يخذعونهم ويفشونهم ويرتكبون في أمورهم كل محرم . ولقد كنت أسمع هذه القصص قبل أن حججت وقبل أن عرفت مكة والمطوفين ، وقبل أن زرت المدينة وعرفت المزورين . والمثل السائر عندنا يقول : الله يساعد من يتكلم فيه الناس بالمليح فكيف بالقبيح ؟ فالمطوفون والمزورون ولا سيما الفريق الاول منهم قد وقعوا في السنة الناس من

قديم الزمان، ويجوز أن يكون بعضهم غير بريء بالمرّة من هذه التهم أو من بعضها، ويجوز أن تكون حصلت وقائع في وقت من الاوقات . وغير معقول ان طائفة كهذه تعد بالمئات وتتجاوز المئات تكون بأجمعها من الفرقة الناجية، ومن ذوي الاخلاق الفاضلة ، وانه لايجوز أن يصدر عنها عمل سيء ولا تلوث بطاعة أو خديعة ، فالذين يطلبون الكمال عند المطوفين والمزورين ينسون انهم بشر، وينسون انهم مرتزقون، وينسون ان أكثرهم عوام، وينسون ان رزقهم انما هو على حجاج البيت الحرام . ولو دقق الانسان النظر في المطاعن التي توجه على هؤلاء لوجد ان أكثرها مبني على كون المطوف أو المزور يتقاضى الحاج حقه أو يطعم في أن يأخذ منه بدلا من الجنيه الواحد جنبها ونصفا مثلاً . والحجاج أغنياءهم عدد قليل لأن الغني في أكثر الاحيان يميل الى الرفه والترف، وهذان لا ينتظمان مع الحج ومشاقه ولا سيما اذا كان الفصل صيفا، وأكثر فصول الحجاز صيف ، والقسم الاعظم من الحجاج هم من طبقة المساكين الذين ليسوا من ذوي الفضلة، والذين لا يقدرّون أن يعيشوا إلا ببودجة مالية متوازن واردها مع نafذها والنفقات غير الملحوظة فيها زهيدة جداً ، فهؤلاء لا يقدرّون أن ينفقوا كما ساءوا وهؤلاء أكثرهم يبقى سنين من حياته وهو يوفر شيئاً من رزقه ويقطع عن نفسه حتى يجتمع في يده خمسون جنبها يدخرها للحج فهو يحسب مصروفه منها بالقرش الواحد . وبذيهي ان مثل هذا المستور لا يمكنه أن يقدق نعماً على المطوف أو المزور وان حالة هذا أشبه بمثل قد سمعته من عامي ظريف في أيام الدولة العثمانية : مثل طاقم العسكري لا ينشق من محل إلا ظهر جلده

ومما يؤسف ان ثلاثين في المائة من الحجاج - وربما أزيد - فقراء معدمون لا يستطيعون في الحقيقة الى البيت سبيلاً وايست عليهم فريضة حج ، ولكنهم يحملون أنفسهم إصراراً لا قبل لهم به ، فيعيشون من أكياس رفاقهم ومن أكياس

أهل الحجاز وقد يصيرون عائلة على المطوفين أنفسهم
 فإذا صح من هذه القالة بحق المطوفين قيراط أو قيراطان فالاثنتان والعشرون
 قيراطا الباقية أقاويل تزريف على المطوفين وتزوير على المزورين

المطوف يسكاد يكون كالجمل في الحج لا يستطاع الحج بدونه . يأتي إلى
 السفينة بمجرد أن تلقى أنجرها في بحر جدة فيأخذ حاجه بيده ويضع له حوائجه
 في الزورق ، ويأتي به إلى الميناء ويخرجه إلى البر ، ويخلص له معاملة تذكرة المرور
 ومعاملة المكس ، ويستأثر بالنيء الهين نظراً للزحام ولما يجب على إدارة التذاكر
 وإدارة الجمر من التدقيق . ثم إذا أراد الحاج أن يستريح في جدة يبيت المطوف
 فيها وأركبه ثاني يوم جملاً في شقف وسار به وبغيره من أمثاله وقد حمل لهم
 زادهم وماءهم وكل شيء يلزم لهم وأوصلهم إلى مكة وأفرين آمين . وأنزلهم في
 منزله مكرمين ، وقبل أن صارت الأمانة ماهي عليه الآن بحول الله ثم بآمن سعود
 (إخواننا النجديون لا يجيزون في مقام كهذا إلا استعمال ثم وينكرن استعمال الواو (١)

فنحن لا نقول لهم إلا « ثم ») كان المطوف يشاطر الحاج أخطار الطريق
 وبمجرد وصول الحاج إلى البلد الحرام يأخذ المطوف بيده إلى الحرم فيطوف
 به سبعةً حول البيت العتيق ثم يسعى به سبعةً بين الصفا والمروة يهرول فيه بين
 الميايين الأخضرين وفاقاً للسنة . ويعلمه جميع أصول الحج ويلقنه جميع الكلمات
 والألفاظ التي ينبغي أن تقال في ذلك المطاف الكريم ، ويتلو أمامه الأدعية التي
 يبتهل بها عند مقام إبراهيم ، وبين زمزم والحطيم

ولما كان أربعة أخماس الحاج هم من الهند والجاوي والترك والارناؤط والبشناق

(١) هذا الأدب مأثور والمراد منه الفرق في المرتبة بين ما يسند إلى الرب
 وما يسند إلى عباده ، وهو ما يدل عليه العطف بـ « ثم » من التراخي ، وأما العطف بالواو
 فهو لجرد الجمع فكان ما يسند إلى الرب وما يسند إلى العبد في مرتبة واحدة

والطاغسنان والفرس والصين والزنيج كان على المطوف في تلقين هؤلاء من أصناف الأمم الأعجمية صنوف الادعية والابتهالات والجمال العربية الفصيحة التي تتشقق حلقهم بقافاتها وحآتها، وتتلبك السننهم بضاداتها وثآنها، ما لا يقل عن تعب المعلمين للصبيان، ومالا ينبغي أن يستخف بشأنه ولا يستهان، ولم مرة يضطر أن يعيد له الكلمة أو الجملة وهو يقولها بعكسها، ويألفها بنكسها، ويقبلها عن معناها، ويجملها عن المراد أبعد من الأرض عن سماها، وربما أعادها له المطوف ثلاثين مرة وهو لا يقيمها ولا يفتأ يغلط فيها (١)

ولولا أن الأعمال بالنيات لكان كثير من أدعية هؤلاء غير مقبول ولكن الله سميع الدعاء، ناظر إلى الضمائر عالم بالمقاصد، لا يحبل اصراً على الضعيف، وليس بصحيح قول بعضهم أن الدعاء يجب أن يكون معرباً ليكون عند الله مقبولاً. إذاً لكان سيديويه أمجح الناس دعاء

ولا يجب أن يظن أن المطوف ينحصر تلقينه هذه الادعية وهذه الجمل بالهندي والسندي والجاوي والتركي الخ، بل هو مضطر أن يلقنها أكثر الحجاج حتى من العرب لاسيما العوام والنساء والاحداث. ولا فرق بينهم وبين الحجاج الأعاجم إلا في كون العربي يعيد الكلمة من أول مرة على وجهها ولا يذيق المطوف عرق القرية في تعليمه إياها كما هو شأن الأعجمي

وقد صارت المطوفين وطوافيهم عادة أنهم بمجرد ما يرون طائفاً يتطوف

«١» أكثر هذه الأدعية والاذكار التي يلقونها للحاج غير واجب ولا مسنون، والذي ينبغي لهم هو أن يعلموا الحاج الأذكار الماثورة كالتلبية وبعض الادعية وهي قليلة وأن يدعوا الله فيما عداها بقلبه، سائلاً إياه ما يشعر بحاجته إليه من خير دنياه وآخرته. وقد اقترحت على الملك أن يأمر بتعليم المرشحين لهذه المهنة تعلمها خاصاً بحيث يكونون من المتفهمين في الدين وقادريين على اتقان خدمتهم للحاج من كل وجه ولا بد أن يفعل إن شاء الله تعالى

بالبيت العتيق جاءوا الى جانبه وجعلوا يلقنونه ما يحسن أن يقوله حتى لو كان الامام الغزالي ، أو السيد محمد رشيد رضا من أئمة زماننا ، وذلك ناشئ عن انهم لا يعرفون الناس ولا يفرقون بين العالم والجاهل

وقد جاءني واحد من هؤلاء وأنا أطوف وجعل يقول لي : قل اللهم كذا اللهم كذا حتى أعيدها من بعده فقلت له : أنا غير محتاج إلى من يعلمني العربية ولا كيف يجب ان أخاطب بها ربي

هذا المطوف هو الذي يكفل جميع حاج الحاج وأغراضه منذ يطرأ رصيف جدة إلى ان يطرأ سلم الباخرة قافلاً ، فيحمله إلى مكة ثم إلى عرفة ، ثم إلى المزدلفة ، ثم إلى منى ، ثم يعود به إلى مكة ، وإذا أراد الزيادة هياً له جمع أسباب السفر إلى المدينة وهناك سلمه إلى المزور الذي هو صاحب هذه المصلحة في المدينة لا يتجاوز عليه غيره فيها وإذا سأل الحاج عن أي شيء من الفلك إلى الذرة فلا بد من أن يجيبه المطوف عليه ، وإذا احتاج إلى أي شيء من الجمل إلى البرغوث فلا بد من أن يأتيه به . وإذا وقعت له واقعة مع انسان تقتضي مراجعة الحكومة فعلى المطوف أن يرافقه الحاج إلى صاحب الشرطة ويترجم له عنده

ومما يدهش العقل أن المطوفين والمزورين يعرفون جميع لغات العالم وأكثرهم يعرفون التركي ، ومطوفو العجم يعرفون الفارسي ، ومطوفو الهند يجيدون لسان الاوردو ، ومطوفو الجاوي يعرفون لغة الملايو ، وإن كان أكثر مطوفي الجاوي من الجاويين المقيمين بمكة ، ومطوفو البشناق يعرفون لغة الصرب ، ومطوفو الارناؤوط يعرفون لغة هؤلاء .

وقد بلغني ان بعض المطوفين يعرفون لغة الصين ومنهم من يعرف لغة الفيلبين . والاسان التكروري شائع بمكة كأنه العربي والسودانيون ليسوا فيها بغرباء ، زد على هذا اللغات الاوربية التي يعرفها المطوفون من روسي وانكليزي وفرنسي وغيرها . فالمطوفون في هذا أشبه بمستخدمي الفنادق في أوربة يضطرون .

إلى معرفة لغات كثيرة لتنوع أجناس السياح الذين ينزلون بفنادقهم . لكن دائرة علم المطوفين أوسع من جهة الكمية . فالعمال في فنادق أوربة يتعلمون بخاصة الانكليزي مثلا لكثرة سياح الانكليز والامريكيين ، وقد يتعلمون الاسبانيولي لكثرة سياح امريكا الجنوبية ، ولا تجدهم يعرفون التركي والفارسي والوردو والجايي ، فما ظنك بالصيني والفلبيني ، فمكة أعظم معرض الاجناس واللغات

ولو كان العرب على نمط الاوربيين في اتقان كل شيء ، والاستفادة من كل شيء ، والتفنن في الاستثمار والاستغلال ، لوسعوا دائرة تعلم هذه اللغات على وجه الاتقان ، وزادوا بها تسهيلات فريضة الحج . وكانت لهم من وراء ذلك أرباح مدهشة ، وكانت العربية أيضا تستفيد لان القادمين الى مكة من تلك الامم اذا أطالوا بها المكث تعلموا العربية واستعربوا ، ولما كننا نحن معاشر العرب برغم ذلك كنا الفطري الذي لا جدال فيه نحب البقاء على الفطرة ، ولا نرغب الا فيما هو أقرب الى الطبيعة . وهذا جيد في الشرعيات لافي الرياضيات ولا في الاقتصاديات

واذا مرض الحاج فالمطوف هو الذي يعمله ويأتي لدبا الطبيب والدواء ويسهر عليه ، واذا مات فهو الذي يخبر بذلك الحكومة ويأتي باناس من قبلها ويضرب في حضورهم حوائجهم ، ولو سمي المطوف « كفالا » للحاج لما كان في هذه التسمية أدنى مبالغة ، ومع هذه الكفالة الشاملة الكاملة التي فيها من الركض والعناء وتعب الفكر والمسؤولية ما فيها يكون آخر الامر جميع النحلان جنيتها واحداً عن كل رقبة ، هذا هو النحلان المقرر ، فن طابت نفسه بان يزيد فذلك عائد الى سماحة نفسه ، ولا شك في أن الحاج الذي يحشم المطوف جميع تكاليفه ويريد أن يتخذ منه دليلاً وحارساً ومحامياً ومفتياً وطيباً وصيدلياً وممرضاً ودلالاً وغير ذلك في وقت واحد يكون ظالماً إذا استكثر أن يتقدم هذا المطوف في آخر السفارة جنيتها واحداً ولا شبهة في أن من الحاجاج من يؤدي بدلا من الجنية الواحدة الجنيتات الكثيرة ، والمسلمون يغلب عليهم الخير ، وقد يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ولكن لا ينكر أيضا أن كثيراً من الحاجاج قد يتعذر عليه دفع الجنية الواحد أو لا يبقى في يده شيء عند الاوبة إلا ما يكفيه لاجل الوصول الى وطنه أو يقع العجز في

«بودجته» الضئيلة من أصلها ، فتجد المطوف قد حرم مع حاج كهذا نتيجة تبعه ورضي بنصف جنيه بدلا من جنيه وقد يضطر الى أن لا يأخذ من حاجه شيئا وقد وقع لمطوفين أن أدوا الى حجاج مدممين من صلب ما لهم ، وكثير من أهل مكة من يضطرون الى سددوز بعض الحجاج ويؤدون الى هذا ما كانوا استفادوه من ذاك . وكان ينبغي للحكومات أن تمنع الفقراء من الحج وتأخذ من كل الحجاج رهائن كما تفعل بعضهم ، وذلك لان غير المستطيع ليس عليه حج ، ولان غير المستطيع يصير قرآ على غيره في الحج فيعجز الآخري الذين رتبوا زادهم على قدر احتياجهم ، ولم يجعلوا بينهما فسحة للطواري غير المتظرة ، وكذلك لان أهل مكة والمدينة أنفسهم يضطرون الى غوث هؤلاء الفقراء ولا يقدر أن يشاهدوهم يتضورون جوعا (١)

ولا حاجة الى بيان أن وجود مثل هؤلاء في محشر كمحشر الحج هو خطر على الصحة العمومية لانهم لا يقدر أن يعتنوا بنظافة أبدانهم ولا أن يغسلوا بالصابون ولا بما يكون أسباب النظافة

وقد فقد الحجاز بعد الحرب الكبرى موارد رزق عظيمة كانت تنصب اليه منها الصرة العثمانية ومنها الحج التركي الذي منعه أنقرة ومنها الصرة المصرية وصدقات الحبوب التي كانت ترسل من مصر ، فهذه كان يرتفق بها أهل الحجاز ويعيش بها فقراء الحجاج ، وأبن هي الآن ؟ فلا جرم ان الحجاز أصبح لا يتحمل من الفقراء ما كان يتحملة في الاول

(١) حيا الله الأمير وحزاه خيرا بما انفرد به من بيان حال المطوفين وجليل خدمتهم للحاج وقلة ما يأخذون من الاجرة على هذه الخدمة واستغرا به ذم بعض الناس لهم ونزيم بالطمع ، ومن بيان حال أهل الحرم عامة في معاشهم وقد ذكر الفقهاء أن من آداب الحاج وعلامة قبول حجته أن لا يمد ما ينفقه في الحجاز مفر ما كواصف الله المنافقين وأن لا يتبعج به ولا يؤذي جيران الله ورسوله بقول ولا فعل ولا يشكو بما يقاسي في الحرم من تعب ومشقة وليعتبر المنافقون الذين لا يكتفون ببسط أسننهم البذيئة بهذه الشكاوي والمذام بل ينشرونها في الجرائد فيكون لها أسوأ الأثر في تشييط الناس عن أداء هذه الفريضة فيا ليهم لم يحجوا

أقسام المطوفين والمزورين لحجاج القطار

لقد قسم المطوفون والمزورون العالم الاسلامي فيما بينهم مقاطعات أشبه بما كانت عليه الممالك في الماضي . فبلاد العرب لها مطوفون ، وبلاد الترك لها مطوفون وبلاد الفرس لها مطوفون ، وبلاد الافغان لها مطوفون ، وبلاد الهند لها مطوفون وبلاد الجاوى لها مطوفون . وهلم جرا . وكذلك لكل من هذه مزورون وكل من هذه البلدان الكبار تنقسم أيضا بين المطوفين والمزورين إلى دوائر أشبه بالولايات التي تنقسم إلى متصرفيات . وهذه تنقسم إلى أقضية لعهد الدولة العثمانية . فمصر مثلا يتقاسمها مطوفون متعددون : أناس لهم القاهرة وأناس لهم الاسكندرية ، وأناس لهم دمياط والشرقية ، وأناس لهم المنيا وبني سويف والفيوم وهلم جرا . والغرب أيضا دوائر ، فمصر اطة لها مطوفون ، وبنغازي لها مطوفون ، والقيروان لها مطوفون . ووادي ميزاب له مطوفون . ولكل من الريف وفاس مطوفون . ولكل من مراكش والسوس الاقصى وتبكتو مطوفون وهلم جرا ودمشق وحمص وحماه وحلب وطرابلس وبغروت وصفد ونابلس والقدس والخليل الخ لكل المدة أو بلدين أو ثلاث منها مطوفون معلومون . ولا يتجاوز مطوف على مطوف ، ولا مزور على مزور إلا برضى الحاج نفسه . فاذا اختار حاج أزمير أن ينزل عند مطوف حاج (أماسيه) أو مطوف (كوتاهيه) مثاله ذلك . وإذا راجع حاج (شيراز) مطوف (تبريز) بدلا من مطوف شيراز فلا حرج عليه في ذلك . وإذا وقع بين المطوفين في مكة أو بين المزورين في المدينة خلاف فالمرجع هو شيخ المطوفين وشيخ المزورين ، والخدمة ترأب كلا منهم وللمانيين أيضا مطوفون ولكن فائدة هؤلاء منهم لا تذكر . وليس للحجازيين ولا للنجديين مطوفون ، لانهم يعرفون المناسك كلها ولا يحتاجون إلى ادلاء .

ولا يلزم لهم من يستأجر لهم الجمال ، لان الجمال كلها لهم . وقلما يستفيد منهم الحرمان الشريفان إلا بأكلهم وشربهم من السوق ومن مزايا المطوفين انهم يحجبون الاقطار ولا يستبعدون منها بعسداً ، وتجدهم حتى في الصين وكاشغر وسيام وسومطرة وجزائر الفيليين وكل بلد فيه مسلمون يرغبونهم في الحج ويسهلونه عليهم ، ويصفون لهم اللذات الروحية التي يشعر بها المتطوفون بالبيت الحرام ، والقاصدون إلى عرفات والمشاعر العظام ، والزائرون لروضة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولا يزالون بهم حثا وترغيباً واستحثاثاً للنفوس واستحلاباً للعبرات إلى أن يأتوا بنفر منهم -م إلى الحج . والمطوفون أينما ذهبوا يكرمهم المسلمون ويقومون بضيافتهم تبركا بالبقاع التي صدروا عنها والبيت الذي يخدمون فيه . وهم يستفيدون بهذه الاسفار الطويلة معرفة واطلاعا ويتعلمون اللغات الاجنبية

ولو كانت أمورنا على النسق الاوربي الذي قاعدته استغلال كل شيء لكننا أسسنا مدرسة خاصة بالمطوفين والمزورين ، يتعلمون فيها إتقان التطواف وكيفية ترفيه الحجاج والمزادة ، وتوفير اسباب راحتهم ، وتلقيهم الادعية والاذكار للأثورة بأيسر الطرق ، وبث الدعاية اللازمة بالاوصاف والصور ، حتى يزداد عدد الحجاج القادمين كل سنة . وهكذا تزداد مكة وطيبة عمراناً ويزداد اهلها يساراً والحقيقة ان الحج لا يزداد ولا تزداد أرزاقه وخيراته الا بأمرين (أحدهما) أمان الطرق (والثاني) أسباب الراحة

أما الامان فقد توافر في أيام ابن سعود الى حد لا يتطلع فيه متطلع الى مزيد وانما يرجو دوام هذه النعمة .

وأما أسباب الراحة فقد كانت تعد أسباب راحة بالنسبة الى الماضي ولا تعد كذلك بالنسبة الى الحاضر بعد أن انتشرت الاساليب العصرية في النزول والركوب

والمبيت وتوسيع الشوارع وتنظيفها وترصيفها وانارتها بالمصابيح الكهربائية ليلاً ،
ونسق الحدائق في أوساط المداخن وحواشيتها ، وبناء المقاهي الرائعة المزخرفة ،
وسائر ما يلذ الاعين ويشرح الصدور ولا يقدر ان يعيش بدونه المترفون ولا
يتبها لهم سرور ، فالحجاج في الغابر كانوا يأتون من بلدان لا تفوق مكة والمدينة
في درجة الرفاهية والانتظام او تفوق قليلا فكان الحاج لا يشعر بين بالفرق
المكانين ولا تتغير عليه البيئة

وأما اليوم فقد صار أكثر العالم الاسلامي تحت حكم الافرنج ، فشاهد
الحجاج مدينة الانكليز في الهند ونجبار ومدينة هولاندة في الجاوى ومدينة
فرنسة في شمالي افريقية ومدينة الروس في موسكو وبتروغراد وهلم جرأ ، فعوّد
المترفون منهم رفاهة ورفافة لا يطمعون أن يحصلوا على مثاتها في الحجاز الا
في قضية الطعام ، فان طهارة مكة والمدينة لا يفوقهم طهارة تلك البلدان ، وربما لا
يساؤونهم في تطيب الطعام وتأنيقه ، ولكن ليس المأكل هو كل شيء . فلا بد للمسلم
المترف من أهل تلك البلدان - حتى من أهل مصر والشام والعراق - أن يأمن جهة
راحته بخدافيرها حتى يقوم بفريضة الحج

ومن المعلوم ان حج مترف واحد يعود على الحجاز بفائدة مادية أكثر
من حج خمسين شخصاً من المساكين أو المتوسطين .

أما الفوائد الروحية فلسنا في هذه الجملة بصدددها . وقد نتكلم عنها في موضع
آخر ونشرح ما يكفل الحج من جلائلها ، ولكن مع الاسف قد غلبت النزعة
المادية الاوربية على الناس وصار البدن هو معبود الانسان العصري ، فأصبحت
لا تقدر أن تقتصر في الدعاية الى الحج على ذكر ما فيه من اللذة الوجدانية والراحة
الروحية ، وأتى لبدة الابدان أن يشعروا بمواجيد النفوس ولذائد نعيم العرفان .
وكل المدينة العصرية مبنية على مدنية أوربة وكل مدنية أوربة تقريبا هي مستغرقة

في خدمة الحواس ولسان حالها ينادي : المادة المادة

ولا ينكر أن السيارة الكهربائية والتليفون واللاسلكي قد كفلت في الحجاز في السنوات الاخيرة راحات واختصارات لم يكن يعرفها من قبل، وان مكانها من الاهمية لا يخفى . ولكن على الدولة السعودية أن تضرد مشروعاتها العمرانية في الحرمين الشريفين وجدة وينبع والطائف الذي هو مصيف الحجاز حتى يعرف أغنياء العالم ان سلامي انهم اذا قصدوا الحجاز ، لا يرهقون عسراً ، ولا يصادفون في شيء من اللذات التي يبيحها الشرع حرماناً ، فأما اللذائذ التي لا يبيحها الشرع فان من فضائل الدولة العربية السعودية حظرها وسد الابواب عليها والتصلب في هذا الشأن

ولقد حرم الحجاز منذ سنتين او ثلاث حاج الاناضول لان مصطفى كمال يأنى ان ينفق التركي شيئاً من ماله في بلاد عربية ، فهو قد أراد هذا لاجل التوفير على الاتراك بزعمه . وباليته احتاط للتوفير على أمتة في الطرق التي ذهبت فيها الملايين من أموالهم إلى حيوب الافرنج كالخمر والميسر والالبسة الافرنجية وما أشبه ذلك مما كان السبب في هوي تركيا الاقتصادية إلى ماهوت اليه ، ومما لم يعد سراً مخفياً . فمسئلة نفقات الحج كانت نقطة من غدير بالنسبة إلى هذه

وكذلك كان من أسباب الثورة النجدية التي استأصل الملك ابن سعود جرثومتها ان موقدي تلك الثورة زعموا ان الحجاج الذين يأتون من طريق البحر مشركون - هكذا سمعنا عنهم والعهدة على الرواة - وطلبوا من ابن سعود أن يسد طريق الحج عليهم ، فجادلهم كثيراً في هذه المسألة فأصروا على غيهم ، فقال لهم أخيراً : وكيف يعيش أهل الحجاز اذا سددنا هذه الطريق عليهم ؟ فقالوا له يرزقنا الله واياهم - وقد غاب عنهم ان الرزق له أسباب وان الله جعل لكل شيء سبباً ، وان أعظم أسباب ارتزاق الحرمين هو الحج ، وان الله تعالى أنزل في هذه الحقيقة قرآنا غير ذي عوج

وجوب اعتناء حكومات الدنيا بأمرها بأمر الحج

ينبغي لحكومة الحجاز ولسائر الحكومات الاسلامية والحكومات غير الاسلامية التي غلبت على ديار المسلمين أن تعتني بقضية الحج إلى بيت مكة أشد الاعتناء . أما الحكومات الاسلامية فتعتني به من جهة أنه فرض ديني ممدود من أركان الاسلام يقوم به كل سنة مئات ألوف من المؤمنين

وأما الحكومات الاخرى فتعتني به من جهة ارتباط العالم بعضه ببعض وكونه - لاسيما في العصر الحاضر - أصبح جسماً واحداً لا يشعر منه عضو بالتأثير إلا التاث به سائر الاعضاء . فورد ما نتي ألف شخص أو ثلاثمائة ألف شخص من أقطار الكرة الارضية كل سنة براً وبحراً مشاة وركبانا إلى بقعة من جزيرة العرب لزيارة بيت عتيق أسس على التقوى ليس بمحدث بسيط لا يستوجب الاعتناء، وسيأتي يوم ينتقل فيه أكثر هذا الحاج إلى بيت مكة بالطائرات، فتزداد السهولة وتضاعف السرعة، وقد يزداد بذلك عدد الحجاج زيادة هائلة لاسيما إذا جد في مكة من تسهيلات الحج ما هو غير متيسر إلى حد اليوم .

ولا يزداد عدد الحجاج بالكمية فقط، بل يزداد شأنهم من جهة الكيفية، فيقصد مكة ذوو الترف واليسار وأناس كانوا يتوقفون عن أداء هذه الفريضة بسبب ما كانوا يخشونه من الامراض او من فقد أسباب الراحة التي ألغوها

ولا ينبغي أن يظن أن تقدم المسلمين في المعارف ورفقيهم في سلم المدينة في المستقبل قد ينتهيان بتناقص عدد حجاج البيت الحرام، فقد ترقى الامم الاوربية كثيراً في المدنية، وغلبت على قسم كبير منها الفلسفة والادينية . ولا يزال زوار القدس من المسيحيين كل سنة عدداً كبيراً، ولا يزال قصاد رومة كل سنة من الكاثوليك عدداً أكبر . وما يقدر العلم أن يصنع شيئاً مع الدين مادام سر

الكون النهائي لا يبرح مغلقاً ، وما دام الانسان عاجزاً عن مكافأة الموت ، لا بد للخلق من الدين ، وما ثورات الالحاد إلا غمرات ثم ينجلين
فالتزعات اللادينية والتزعات الالحادية التي تعرض على المجتمع الانساني في
الاحايين إن هي إلا عوارض مؤقتة لا يمكن ان تكسب شكلاً عاماً ولا ان تقوم
مقام العقائد الدينية الضرورية للبشر ، وقد سبقت لها أمثيل متعددة في تاريخ
أكثر الامم ، وعصفت ريج الالحاد في بعض الحقب ، ثم لم تلبث ان هددت
واستقرت وعاد الامر كما بدا

وفي الثورة الفرنسية الكبرى أقفلوا الكنائس ، وقتلوا القسيسين ، وشردوا
جميع خدمة الدين ، واغتصبوا الاوقاف وأزالوا عنها صفة الوقف ، وجعلوا العبادة
للعقل ، وظن الناس ان الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا دخلت في ذمة التاريخ
وصارت أثراً بعد عين . ولكن لم تمض بضعة سنوات على هذا العمل حتى ركبت
تلك الزوبعة ، وعادت العقيدة الدينية إلى نصائها ، ورأى نابليون ان عقلية الفرنسيين
قد تراجعت إلى أصلها ، ففتح الكنائس وأعاد على العبادة كرامتها ، ورفع منار الدين
الكاثوليكي وتوج امبراطوراً في كنيسة نوتردام في باريس ودعا البابا إلى حضور
حفلة التتويج ، فجاء البابا بنفسه ، وكان يطوف بعربته في شوارع باريس والناس تخرج
أمامه جثياً . وهم هم الساجدون له الآن ، كانوا قبل ذلك بسنوات معدودات القوم
الذين اتخذوا هواهم إلههم ، وأقفلوا الكنائس ، وأتوا بفتاة حسناء رعبوبة فجعلوها
على منصة رفيعة وخروا لها ساجدين

فأنت ترى ان زعازع الالحاد مصيرها غالباً إلى الركود ، وان الدين لن
يبرح صاحب الكلمة العليا في الارض مادامت المادة لا تقدر أن تبين عن ذات
نفسها ، ولا ان تحدث الانسان بتاريخها ، وما دام الانسان متشوقاً إلى جواب
عن هذا الوجود لا يجده إلا في الايمان بالغيب

ولذلك أقول: انه مهما ترقى الناس في العلوم والفنون لا يبرحون محتاجين إلى اللدانة فازعين إلى الغيب ، وانه لن تبرح أماكن العبادة وخصوصاً مراكز انبعاث الانبياء والرسل مناباً لا تباعهم يقصدونها من كل فج سحيق ومكة والمدينة وبيت المقدس ستبقى مقصداً للمؤمنين بمؤسسي الشرائع التي تأسست فيها ، ولو فرضنا انه اختلفت فيها مفاهيم السلالات البشرية الآتية عن السلالات الحاضرة .

وأقول: ان اختلاف هذه المفاهيم مهما تناهى فلا يتجاوز جوهر العقيدة الاصيلي ، لان جوهر العقيدة مبني على العقل البشري ، ولانه ليس للمرء مذهب وراء العقل البشري ، فهو أول الشرائع وآخرها ، وأقدمها وأحدثها فتأويل الشرع - بعيداً ما بعد عن المفهوم الحالي - لابد أن يبقى مربوطاً بالعقل البشري وآتلاً اليه وذلك بسبب بسيط هو ان الشرع والعقل متحدان ، وان أحدهما يصح ان يكون مرادفاً للآخر ، وانه لا يمكن الشرائع ان تأتي بما يستحيل في العقول ، إذ لو كان ذلك لهدمت نفسها بنفسها ، ولعلقت الاداة الوحيدة التي يمكن فهمها بها .

وقد روي عن سيدنا علي رضي الله عنه وسمعت روايته من أستاذنا الشيخ محمد عبده رحمه الله مامعناه: ان الشرائع السماوية لم تأت بشيء جديد وانما جاءت اثارة لدقائق القلوب . فالعقل مضمون في صلب الشرع ، كما أن الشرع مضمون في صلب العقل . وبناء على هذا المبدأ قرر الاسلام انه هو خاتمة الشرائع ، وانه لابد من أن يظهر على الدين كله ، كأنه يقول إن آخر ما يصل اليه الانسان من الهدى هو دليل العقل ، وهذا الدليل هو الشرع بعينه ، لان كل ما ناقض العقل هو مردود فيه ، خلا عجب أن يكون الشرع المعقول هو الشرع الاخير (١)

(١) هذه العبارة فيها إجمال وغموض وهي مروية بالمعنى ، وموضوعها أن الاسلام حين الفطرة المبني على دلائل العقل ، والمسألة مفصلة مبينة في رسالة التوحيد للاستاذ الامام ، بما لا غموض فيه ولا ابهام

فما دام العقل الانساني هو هذا الذي نعرفه فالشرع قائم مؤيد ثابت في العقول سائغ في الازدهان، لا يتجافى عنه إلا من حرم سلامة الحس الباطني وسلب اداة الادراك . وما دام الشرع قائماً مؤيداً لا تزعه عواصف الالهواء، ولا تميد به زعازع الشبهات، حتى يعود أمتن مما كان ويعتصم به الجمهور، فمناسك الدين وشعائره لا تبرح قائمة، وأحكام الشرع لا تبرح جارية، ومكة تبقى مكة، وطيبة تبقى طيبة، والمسجد الاقصى يبقى المسجد الاقصى.

اعتداء الحكومات الاسلامية على أوقاف الحرمين الشريفين

من حيث قد قررنا ان الاماكن المقدسة في الحجاز لن تبرح مقصداً للمؤمنين من جميع الفجاج، ومركزاً يجذبهم اليه بجاذبيته المعنوية من بين مطلع الشمس ومغربها، فقد تحتم على الحكومات والجماعات الاسلامية - أحمرها وأسودها - أن توجه العناية إلى اصلاح أحوال هذه البقاع المباركة واجراء المقاصد التي تنحقق بها المناسبة بين طهارتها المادية وقديسيتها المعنوية

وبديهي ان هذه الامكنة وإن كان جيرانها وأصحاب الحل والعقد فيها هم من العرب وخدمهم من جهة انها جزء من البلاد العربية فليس عمارها وقصاها وزوارها من العرب وخدمهم، بل هم من أُم لا يقل عددها عن ثلاثمائة وخمسين مليون نسمة، فليس من العدل أن تنحصر مهمة تنظيمها وتنظيفها وتوفير وسائل الرفاهة والفراحة فيها باهاليها الاصليين الذين لا يزيد عددهم على مليون نسمة والذين لا يتكون منهم إلا جزء من ثلاثمائة وخمسين جزءاً

بل هذه المهمة يجب أن تتوزع على المسلمين جميعا حتى يقوموا بها متضافرين

ولا ينقصهم شيء من شروط السكال الصوري والمعنوي في هذا الوطن العام الذي ينقصهم جميعاً من وجهة العقيدة .

ولا يقدر أحد أن يحتج على ارتفاع هذا الواجب عنهم بأن الحجاج يؤدون ما عليهم للمطوفين، ويؤدون رسوماً أخرى لإدارة الصحة وغيرها، وأن هذا جائز لأجل إصلاح أحوال الحجاز، كف لشقاء النفس من هذه الامنية، فإن الاجور التي يؤديها الحجاج للمطوفين لا تنكاد تقوم بأود هؤلاء، وأن الرسوم الأخرى التي يذكرونها إن هي إلا سداد من عوز، وأن على الحكومة الحجازية من الواجبات الضرورية ما لا يتيسر معه التوفر على الأمور السكالية . ولا بد لمن ضاقت ذات يده من تقديم الأهم على المهم، وماذا يتطلب المسلمون من حكومة الحجاز ودخل هذه الحكومة لا يزيد على جزء واحد من أربعين من دخل الحكومة المصرية مثلاً

فالمسلمون يقدرون أن يقوموا بهذا الواجب بدون أن يضطروا إلى جمع اعانات واستدراة أكف مما لو كانوا فعلوه لكان بهم قتيلاً، وذلك بأن يسلموا ما في ديارهم من مال الحرمين للحرمين . فكل أحد يعلم أنه لا يكاد يوجد بلدة من بلاد المسلمين كبيرة أو صغيرة إلا وفيها أوقاف للحرمين الشريفين

ولا نبالغ إذا قلنا إنه لو اجتمع ربع العقارات الموقوفة على الحرمين الشريفين بعد رد جميع هذه العقارات إلى أصلها واستغلالها على حقها لكانت تضاهي دخل مملكة عصرية من الدرجة الثالثة، وكانت تكفي لازاحة جميع علل الحجاز واصارته من الجهة العمرانية إلى درجة لا يقل فيها عن أي قطر من الاقطار المجهزة بجميع أسباب المدينة

فبدلاً من أن يوفر المسلمون هذه الحقوق لأهلها، وأن يجنوا حاصلات هذه الاوقاف الدارة ويقدموها إلى محلها بحسب شروط واقفيها ومرصديها، لانجدهم.

عنوا في شيء من الاشياء عنايتهم في محو هذه الجبوس التي منذ ثلاثة عشر قرنا
يوجد بها الآباء ويخيس بها الابناء ، إن « شرط الوقاف كنص الشارع » هي جملة
كادت تذهب من اذهان المسلمين قاطبة إلا من رحم ربك

فبعض هذه الاوقاف درست تماما بأيدي النظار الخائنين ، وباغضاء القضاة
المواطنين على مشهد من العلماء المدلسين . وبعضها تحول عن أصله وأجرني في غير
مصلح الحرمين وخولف به شرط الوقاف بدون عذر ولا مسوغ شرعي ، وجميع
هؤلاء ساكتون وبعضها بقي باسم الحرمين الشريفين ولكنه برفع منه إلى الحرمين
من الجمل أذنه - كما يقال

ويا ليت شعري من يفعل هذا أو من يقر على هذا فلا أدري كيف يصلي !
وكيف يصوم ! وكيف يحج ! وكيف يظن انه قام بفرائض الاسلام ؟ ولا أقول :
كيف يزكي ؟ فقد قل اليوم من يفكر بفرض الزكاة ؟ فلزكاة وتأدية حقوق
الوقاف هما من الامور التي كادت ألا توجد إلا في الكتب الفقهية يتعلمها الناس
من قبيل العلم بالشيء لامن أجل العمل بهذا العلم .

واذا جرى شيء من العمل بشروط الخابسين فلا يكون إلا في نفس البلاد
التي فيها الجبوس ، وهذا من خوف المظار والقضاة أن تنتقض عليهم العامة
ويستطوهم ، فأما اذا أمنوا خوف ثورة العامة فالوقف إلى الدثور ، أسرع من الماء
إلى الحدور . وعلى كل حال شرط الوقاف كاد يفقد كل حرمة

وأغرب من هذا أنه لم يكف تلاعب النظار بالوقاف - ولا سيما باوقاف
الحرمين - واغضاء القضاة والعلماء على هذه العظيمة حتى جعلت الحكومات الاسلامية
هي بانفسها تستبد باوقاف الحرمين ، وتتمتع بإصالح ريعها إلى الحرمين غير مراقبة
شرط واقف ، ولا نص شارع ، ولا رضى خالق ، ولا لسان مخلوق

هذه هي الحكومات الاسلامية التي هي أجيرات المسلمين في مهامهم العامة

وليس في أيديها شيء إلا من فضلهم، وليست هي بأجمعها شيئاً لولاهم، وإنما كان وجودها لاجل صيانة مصالحهم الدينية والدينية معاً، لاصالحهم الدنيوية فحسب فهذه الحكومات بلغت جانباً من هذه الاوقاف ومحت رسومه وجعلت شروط واقفيه كامس الدابر وأكلت ريع الجانب الآخر وحولته إلى ممالك معلومة ليس لها تعلق بالحرمين الشريفين ولم تبال ماعملت، وكانت اذا رفعت إلى الحرمين حصة دراهم، أو شحنت سفينة حبوب ظنت انها تصدق على أهل الحجاز من مال أبيها !

وقد فشت هذه العادة الذميمة في الحكومات الاسلامية بفشو الاستخفاف بالدين، وبحمل الواجبات الدينية على المباديء القومية، والحال أن الدين لالعلاقة باللقومية وكل منهما له حدود غير موقوفة على حدود الآخر. ونحن نجد أن الفاتيكان حرجع ديني لاربعمائة مليون كاثوليكي، وهم من أجناس لا يخصى عديدها، ونجد أن خزانة البابا كخزانة دولة من الدول، ولم يمنع كاثوليك الدنيا أن يرفعوا اليه نعاناتهم وصدقاتهم. كونه طليانيا وكون الفاتيكان في ايطالية

طمس الدول المستعمرة لأقواف المسلمين

إقتداء بحكوماتهم في الاعتداء عليها

ولما غلبت الدول المستعمرة على القسم الأكبر من العالم الاسلامي، ووجدت من صنيع الحكومات الاسلامية التي ورثتها ما وجدته في الاوقاف عموماً وأوقاف الحرمين خصوصاً حدث غب هذه المفسدة، واتخذت منها حجة تستظهر بها في طمس الاوقاف الاسلامية واخفاء معالمها فانها تقول للمسلمين: اني لم أفعل شيئاً الا ما كانت حكوماتكم تفعله ... وأجدر بما كان يفعله المسلم بوقفه أن يفعله المسيحي وهو لا يعتقد من حرمة مس هذا الوقف ما يعتقد المسلم

إذاً فالتلاعب بالأوقاف والحبوس كان مبدؤه من المسلمين أنفسهم، فلما غلب على بلادهم الافرنج قلدهم فيه ولم يكن فرق بين الفريقين الا في ان المسلمين كانوا يملكون الاوقاف بمرور الزمن أو يحولونها عما حبست عليه أو يبقونها على اسم الحرمين أو اسماء الجهات الخيرية الاخرى وياكلون أكثر ارتفاقاتها ، وان الافرنج عند ما غلبوا على بلاد الاسلام استولوا على كثير من هذه الاوقاف وهبوها إلى الكنائس ، وإلى جمعيات المبشرين ، وإلى الرهبان ، ورأوا بذلك الجمع بين غرضين مهمين :

أما الغرض الاول فهو طمس هذه الاوقاف من أصلها ، لان الافرنج لا يكرهون في الدنيا شيئاً كرههم للاوقاف الاسلامية ، ولا يخافون في مستعمراتهم من شيء كخافتهم منها ، لانهم يعتقدون ان المسلمين إذا أحسنوا إدارتها وضبط حاصلاتها كان لهم منها منبع امداد عظيم في امورهم السياسية ، فلذلك تراهم يسعون بقدر طاقتهم في محو رسومها

وأما الغرض الثاني فهو إمداد المبشرين والرهبان وتوطيد أقدامهم في بلاد الاسلام ليتمكنوا من بث دعايتهم بين المسلمين مما لم يبق خافياً على أحد ومما لم يبق أدنى سبيل للكفارة فيه . فبدلاً من أن هذه الحكومات المستعمرة تشتري لهؤلاء المبشرين والدعاة عقارات وأراضي من مالهاتجدا الا قصد والافوق أن تصرفهم في أوقاف المسلمين ، فتكون أغنتهم من كيس غيرها ، وتكون جمعت بين دفع مائة مقده ضرراً وجر مائة مقده منفعة

والجلية في هذه الحيلة والحق يقال من بين جميع الحكومات المستعمرة هي الحكومة الافرنسية ، فلم نعهد حكومة استطابت طعم أوقاف المسلمين مثلاً ، ولا استحلّت طعمتها للرهبان والمبشرين بدرجة استحلها ، ولقد تمكنت منها عادة التسلط على أوقاف المسلمين في المغرب إلى حد انها حاولت مثل ذلك في المشرق

فهي تأتي إلا أن تسيطر على أوقاف المسلمين في سورية برغم أن النصارى واليهود فيها متصرفون في أوقافهم بتمام حريتهم

وقد راجعنا في هذا الامر جمعية الامم وأوضحنا لها كيف أن الدولة « المنتدبة » في سورية ترك النصارى واليهود أحراراً في أوقافهم وتعرض لأوقاف المسلمين خاصة ؟ وكيف إنها وهبت الرهبان وقفاً عظيماً من أوقاف المسلمين في اللاذقية وغير ذلك ووجدنا لجنة الانتدابات الدائمة تؤيد رأينا في هذه المسألة وتقرح على فرنسا ترك مسلمي سورية أحراراً في أوقافهم كما هم مسلمو فلسطين التي هي تحت انتداب انكلترا، ولكن الحكومة الفرنسية لا تبرح تماطل وتتعطل في هذا الامر برغم ميل لجنة الانتدابات الى انصاف المسلمين فيه

واذا رجعنا الى أصل البلية وجدناها من المسلمين أنفسهم، لأن حكوماتهم لما كانت مستقلة ولأن حكوماتهم المستقلة الباقية الى اليوم - تصرفت بالاوقاف تصرفاً سيئاً مخالفاً للتسريعة، منافياً للامانة، فهدت للدول المستعمرة العذر في طمسها لهذه الاوقاف أصلاً وفي هبتها منها للرهبان وسيطرتها التامة على مآثرادتها بقاء منها للانفاق من ريعه على المساجد

ولا يزال حتى اليوم في بلاد الاسلام أوقاف لا محصى محبوسة على الحرمين الشريفين كان يجب على حكومات هذه البلدان من اسلامية أو أجنبية أن تحسن ادارتها ولا تحتجن شيئاً من حاصلاتها لانفاقها في حاجات آخر بل ترفعها كلها الى الحرمين بحسب شروط الواقفين

واذا قدّرنا انها لا تثق بحكومة الحجاز أو بأعيان أهالي الحجاز في قضية توزيع هذه الصدقات أو انفاق هذه الاموال في وجوه الخير فليس عليها أكثر من الاشراف أو الاشتراك مع حكومة الحجاز في التوزيع أو الانفاق على المشروعات الخيرية التي باحيائها يعمر الحجاز

ولعمري ان الاولى بهذه الحاصلات الواردة من الآفاق الى الحجاز اذا وردت أن ينفق جلها - ان لم ينفق كلها - على تأسيس ملاجئ للفقراء وللإيتام حتى لا يبقوا عائلة على الناس ووقراً على الحكومة وفي بناء مستشفيات ومصاح للمرضى والضعفاء الذين يكثر عددهم في الحجاز بكثرة الغرباء ولو كان هواء الحجاز يحد ذاته نقياً - وكذلك في تشييد مدارس صناعية ومشغل يحشد اليها العاطلون من العمل والعائشون من التسول ، وعلى مشروعات أخرى خيرية عامة لا ينحرف فيها البر عن أصله ، ولا يخرج الوقف عما ربط عليه ، مع التبعاد فيه عما يغري الاهالي بالكسل ويعودهم البطالة ويوجد عندهم عقيدة معناها ان أهل الحجاز أو أهل الحرمين الشريفين لا يجب عليهم الكسب من عرق جبينهم ولا الاشتغال بصناعة أو تجارة أو زراعة ، وانما وجدوا ليعيشوا من مجرد الصدقات والمبرات وهدايا العالم لاسلامي ، مما لا يليق بهم ولا ينفعهم ولا يكفيهم مهما كثر لان الانسان الذي لا يعيش من كسب يده يجد نفسه دائماً في ضيق . وقد شاهدنا ذوي الثروة والحاصلين على الكفاية من أهل مكة والمدينة انما هم من أصحاب الاشغال والمتاجر ، لا من أصحاب الرواتب والمعاشات التي لا يبرح عائلاً من اعتمد عليها



مرضي في مكة المكرمة وأسبابه

وتأثيره في أثناء أداء فريضة الحج

إذا كان الاجر على قدر المشقة فقد كتب الله لهذا العبد أجراً عظيماً. فإنه لم تمض على مقامي بقرب المقام أكثر من تسعة أيام حتى انحلت قواي والثلاث مزاجي وأصبحت مريضاً تتصاعد بي الحمى إلى أن بلغت درجة الأربعين . وذلك أني من أبناء جبل لبنان ولم تألف أجسامنا الحر الشديد الذي ألفتة أجسام اخواننا أهالي جزيرة العرب لاسيما سكان التهام منهم . وكنت من أصل فطري أكره الحر وأفر منه ، ولم أكن أيام القيظ أفارق الصرود وهذا كان سبب اصطياقي في عين صوفر مدة تزيد على عشرين سنة ، وقد نشأ عن شدة رغبتي في ذلك المكان أني اقتنيت فيه الكروم والعقارات وتأثلت مايقارب ثلثمائة الف ذراع مربع من الارض ، ولم تكن درجة الحرارة في صوفر تزداد بميزان سنتيغراد على ٢٣ إلا نادراً ، وكذلك كنت أقوم أحياناً بعالية وحرارتها لا تعلو فوق ٢٦ أو ٢٧ إلا نادراً ، ومنذ اثنتي عشرة سنة أنا في اوربة وليست هذه القارة بالتي يشكو فيها الانسان شدة الحر ، وما أذكر أني لقيت في اوربة شيئاً يستحق اسم الحر إلا في رومة إذ صادف وجودي فيها إحدى المرات في شهر يوليو . ومن العلوم أني أقمت سنوات بألمانية وهي لا تعرف الحر إلا عابر سبيل ، وأنني منذ سنوات في سويسرة وهي لا تدرى شيئاً من حمارة القيظ . وعدا ذلك تراني في سويسرة نفسها أفضي الصيف من قنة جبل إلى قنة جبل . فتارة في القنة المسماة «روشه دونيه» فوق « مونترو » وهي تعلو عن سطح البحر الفين وخمسين متراً ، وطوراً في « شتانسر هورن » فوق بحيرة «لوسرن» وهي قنة بيضية الشكل تعلو عن سطح

البحر ١٩٥٠ متراً ، وأحياناً في القمم الشاححة التي تقابلها مثل « بيلاتوس »
 المشرفة على لوسرن اشرف المنارة على الجامع ، ومثل « ريغي » التي يطل منها
 الرائي على نماني بحيرات في لمحاة واحدة من شفير شاطئ ، ومن شدة غرامي
 بهذه القنن التي قد كنت أصادف فيها الثلج أحياناً في شهر أغسطس أنذ كراني
 تركت قنن « غورتن كولم » في برن وذهبت فانتجعت قنن « شتانسر هورن »
 في لوسرن لانها أعلى من الاولى ، وأقت هناك شهراً إلى أن جاءني كتاب من
 سعادة الاخ الشهم الهمام عبد الحميد بك سعيد - رئيس جمعية الشبان المسلمين الآن
 في مصر - امتع الله الاسلام بطول حياته ، وكان يسكن في « غورتن كولم » في
 الفندق الذي أنا فيه فكان يؤنني في هذا الكتاب على تلك العزلة برأس جبل
 « شتانسر هورن » ويقول : لا يحل لك هذا .

والخلاصة ان برودة جو سويسرة كلها لم تكن تقنعني . وكنت ألتجع منها
 الشناخيب التي أستيقظ فيها صباحاً فأرى الارض التي حولنا بيضاء من الثلج وذلك
 في ابان فصل القيظ . وقبل ذلك لما كنت في جبلنا لبنان لم تكن عين صوف (وهي في ارتفاع
 ١٣٥٠ متراً) تقنعني وتكفيني فطالما قصدت اهل الباروك (١) وتوأمت نيجا
 وهي تعلو ١٨٠٠ متر (٢) وغير ذاك . فكيف بي الآن وقد صرت في اقليم
 حرارته تقابل من ٤٠ درجة بميزان سنتيغراد إلى ٥٠ وذلك لأول مرة في حياتي .
 لاجرم اني لم أحمل هذا الفرق الشاسع ورأيت نفسي هبطت هبطة واحدة كما
 يقع الزق عن الظهر لامتدرجا ولا متدرجا

وكان قد سبق اني لما مررت بمدينة السويس منتظراً باخرة البوسطة المصرية

-
- (١) الابل بفتح فسكون شجر الارز وفي جنوبي لبنان يقولون اهل ، وفي شماليه
 يقولون ارز وكلاهما صحيح - وهو على ارتفاع اني متراه من الاصل
 (٢) سميت توأمت لانها عبارة عن قمتين متنا وحتين متجاورتين اه من الاصل

الركوب بها إلى جدة لم يشاؤا أن يمحلو في يومين ريثما يأتي ميعاد سفر الباخرة . بل صدر الامر بتسفيري على باخرة هندية سيئة الحال مسلوحة بجميع أسباب الراحة في المنام والغذاء والجلوس وكل شيء . وناهيك انه كان فيها نحو ١٥٠٠ حاج وانها كانت من المواخر الصغيرة . فبعد هذا لا ينبغي لي أن أطيل الشرح وأن أقول كيف مرضت وانما أقول اني وطئت أرض جدة ملثثة .

ثم اني لما وصلت إلى مكة نزلت في منزل سعادة ولدنا فؤاد بك حمزة وكيل الشؤون الخارجية فهينالي سريراً على السطح كما هي عادة أهل البلد الحرام في أيام الصيف . ولسكن هذا السطح لم يكن مفتوحاً من جوانبه الاربعة كما هي بعض السطوح لان الباني الاصلي لذلك البيت (١) كان قد حوطه بجدران عالية فوق قامة الانسان غير على الحرم أن ينظر أحد لمن شبعاً ولو من بعيد ، فأصبح السطح مسدوداً من كل جهاته إلا من الاعلى فلم يكن الانسان ينظر منه إلا القبة الزرقاء ، ومن عادة الناس أن يفتحوا في الحيطان نوافذ لاجل الهواء او للنظر عند اللزوم فأما هذا السطح فلم تكن في جدرانه العالية الا قربتان أو ثلاث مشبكات بحجارة مستديرة بينها تقوب ضيقة لا تكاد المسلة تدخل في الواحد منها ، فكانت في حكم كان لم يكن من جهة نفوذ الهواء هذا على فرض وجوده (٢)

ولما جئت لاضطجع في السرير الوثير قيل لي انه لا بد من الدخول تحت الكلة بلباقة عظيمة حتى لا يتسنى للبعوض أن يدخل ورائي فان البعوض هناك تجب الوقاية منه ، فكانت أدخل تحت الكلة وأنا أسترق السمع حتى إذا سمعت

« ١ » ليس هدام عمل باني ذلك البيت وحده بل عامة البيوت هنالك مثله يترك فيها حجرة بغير سقف ولا نوافذ لاجل السهر والنوم فيها مع عدم كشف الجيران ونظرهم « ٢ » كذا في الاصل المطبوع في جريدة الشورى وهو كما ترى ولعله قد

سقط منه شيء وذهل الاير عنه عند قراءته

طنين بعوضة اجتهدت في محوها او طردها و كنت طول الليل كأني تحت الحصار
أحاذر أن تقع مني حركة يرتفع بها شيء من سجوف السكة فيهمج من خلاله
ذلك البعوض وتسوء العاقبة . على ان قولي « طول الليل » صورة من صور التعبير
فاني ما قدرت ولا ايلة أن أبقي تحت ذلك الحصار أكثر من ساعة لان السرير
كان مسدوداً بالسجوف السابغة والسطح كان مسدوداً بالجدران الاسكندرية
الغالية ، فلم يبق من سطحه إلا الاسم والحر كان شديداً ، وبالاختصار كدت
أختنق ، وصبرت إلى أن غرق مضيبي الشاب في لجة الكرى ونزلت إلى سطح
آخر مفتوح من كل الجوانب يرقد عليه الخدم بدون أغطية ولا سجوف مسدولة
ولا خشية بعوض ولا انتقاء جراثيم ، وقلت في نفسي ليفعل البعوض ما شاء فاني
تحت تلك السكة لا أستطيع الغمض ولا دقيقة والنوم سلطان لا يغالب فلا بد من
طاعته ورحم الله القائل :

إذا لم يكن إلا الاسنة مركبا فلا يسع المضطر إلا ركوبها

فوجدت على ذلك السطح خشبة عارية عن الفرش اضطجعت عليها و كنت
أمشي على رؤوس أصابعي حتى لا يستيقظ أحد لا فتاد حمزة ولا خدمه فاني لأحب
أن أزعج أحداً ولا ان أسلب راحة الناس لأجل راحة نفسي . على اني لو أيقظتهم
وأزعجتهم وسلبت راحتهم فلا أعلم ماذا كانوا يقدرون أن يصنعوا لي وجميع تلك
العلل التي وقفت في طريق رقادي لم يكن مصدرها اعواز أسباب الرفاهة وانما
كان مصدرها الجو .. وما حيلاتي وما حيلتهم هم في الفلك ؟

فارتيت على تلك الخشبة بدون وطاء سواها ولا غطاء سوى القميص .
وهكذا أمكنني قبيل الفجر ان اهوم تهوياً أشبه باليقظة منه بالنام . ولكن لم
يصبح الصباح حتى قامت القيامة اذ استيقظ الجميع فأروني على تلك الحالة فأخذوا
يدوكون في الطريقة التي تلزم لأجل تمكيني من الرقاد ، وبهذه المذاكرات
أطاروا ما كان بدأ من تهويمي ، ولأجل توفير راحتي سلبوا تلك البقية الباقية من

راحتي . وفي هذه الاثناء طامت الشمس ليس من دونها حجاب لاني كنت على السطح كما قلنا ، وانا لم أكن أقدر أن أنام في الظل ولا في العتمة فما ظنك في الشمس فنهضت برغم أنفي وانا اقول : يا من يأتيني بنجر عن الكرى

وأخذ فؤاد بك يفكر في الاستعدادات لمعركة الليلة الآتية ، وصاروا ينظرون في وجوه الوسائل وفنون الذرائع حتى تمكن من الرقاد ثانياً ليلة ، ولكن لم يكن في الحقيقة من وسيلة تنفع ، ولا من ذريعة تنجح ، لأن العلة هي شدة الحر وعدم اعتيادي مثل هذا الجو ، وقد يقال إن فؤاد بك حزة هو لبناني مثلي وبلدته مصيف شهير وهي عيبة ، ولم يتعود جسمه الحرارة ، ولكن يبني وبين فؤاد بك حزة فرق ثلاثين سنة . ففوة المقاومة التي عنده ليست عندي ، ولذلك لم يتمكنوا في الليلة التالية برغم جميع الوسائل من أن يجعلوني أنام ، وخسر فؤاد بك المعركة والحقيقة ان الدائرة اتما كانت تدور علي وحدي لاني أنا الذي لم يكن ينام

ولما وصل الخبر عما أعانيه إلى جلالة الملك ، بمكان ذلك الاسد من الجمع بين الاضداد من الصلابة والشمم والحنو والتواضع ، أشار بان انتقل إلى محلة الشهداء بظاهر مكة رعيًا لخفة حرارتها عن حرارة مكة ، فن لجلالته هناك مقصفاً بديعاً أنيقاً في وسطه صهريج ماء عظيم ، وأمامه بستان حديث الغراس ، فسيح الرقعة سيكون يوماً من الجنان المشهورة ، فيمكن يدري أيده الله ان بين الشهداء والبلدة فرقاً كبيراً في الجو ، واني لو بت في ذلك المقصف الذي لجلالته لما كنت أحرم طيب الرقاد . إلا أن مضيق فؤاد بك لم يكن يرغب في ان أتحوّل إلى الشهداء خشية أن ينقصني شيء من أسباب الراحة التي لا يأمن على اسنكهاها إلا اذا كان هو قريباً ، والحال أن الشهداء هي ربض من أرباض مكة ومن هذه اليها مسافة وأنا لم أكن أريد أن آتي مالا يروق فؤاد بك ، وكنت أقول في نفسي : هن ليال قلائل أقضي مناسك الحج ثم أصدق الى الطائف . فعلى فرض اني لم أنم هذه المدينة ، فلن تنفذ بها قوة مقاومتي للطبيعة . ولذلك عصيت أمر الملك في هذه وندمت ولا ندامة العصاة الذين شاقوه في السنة الماضية

الكلام على الزاهر

الشهداء هو المكان الذي يقال له في التواريخ « الزاهر » وهو اسم طابق
 مسماه : بسيط افصح تلعب فيه الرياح بدون معارض إلا من بمض آكام على جوانبه
 تزیده بهجة ، وأهاضيب وتلعات اذا أقبل الربيع تكللت بالازاهر ، فسمي من
 أجلبها الزاهر . وهو في ابان القيظ أخف حرارة من البلدة لاسما بعد غروب
 الشمس ، وأنتقى هواء وأنشط صقعا . وفيه مياها تجري في قنى تحت الارض من
 قديم الدهر ، وبقايا قصور لاشراف البلد وسراته ، وفيه مقاه على الطريق للسابليين ،
 ومقاه على نجوة من الطريق ينتابها الناس من مكة عند الغرب فيبيتون فيها
 ويغدون عند الصباح إلى أشغالهم بمكة ، ويكون مبيتهم على مقاعد مستطيلة في
 الخلاء فلا يضع الواحد منهم رأسه على مخدته إلا ثقلت أعفانه من لطف الهواء
 فينام إلى الفجر مستريحاً ويقوم إلى صلاة الصبح أسد من الحديد . وفي الزاهر
 مكان صغير اصدقنا الشيخ الشيبى الكبير سادن البيت المعظم الذي بسلامة ذوقه
 له في كل واد من الحجاز متجعج ، وفي كل جبل مصيف أو مرتبع

ولما ودعت الحجاز بعد ايامي من الطائف تلطف الشهم الكريم الشيخ عبد الله
 سليمان ناظر الملية فأدب لي في الزاهر مادبة ودعا الجم الغفير من كل مافي البلد الامين
 من سيادة تحرر أذيالها ، ومحادة تضرب بعروضها أطوالها ، وبلاغة تضرب أمثالها ،
 وفصاحة اذا نطقت يقال من ذا قالها ، فكانت ليلة ندر أن يعرف الناس مثالها ،
 وقال فيها أحد الاخوان انها ليلة من قبيل قصص ألف ليلة وليلة لكثرة ما كان
 فيها من نمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة ، وصاييح منورة ، وأعلام منشرة ،
 ومقاعد مجمللة ، وحفان من الشيزى مكلمة . وناهيك بالعربي القح ، الذي

لا يعرف إلا من القاموس معنى الشج ، وبمن جمع بين الحجاز ونجد ، اذا ما ارتفعت راية المجد

ومن بعد ذلك بقيت في أواخر مقامي مكة أتردد إلى الزاهر عصر النهار وأتندم على قوتي إياه قبل الحج . وكان ينشرح صدري في كل مرة أفيض فيها من وراء تلك الآكام إلى بسيط الزاهر

واذا وصلت إلى المقصف الملوكي جلست طويلا على حرف ذلك الصهريج الذي يجر مزاربه ، ويكاد يتلاطم عبا به ، وقد يشتد الحر فلا تأنف من النزول إلى الصهريج والخوض فيه لاجل التبريد ، ويكون معنا من الاخوان في هذا النزول من جل قدره وعلت منزلته . وقد أمسكنا باديء ذي بدء عن النزول إلى الماء تفاديا من أن ينسب اليينا اطراح الحشمة ، وتغلب الحرارة على الهمة ، إلا اني تذكرت أن قاضي الجماعة بقرطبة المندر بن سعيد البلوطي بمكانه من العلم والورع وجلالة القدر ، ومشيخة الاسلام في ذلك القطر ، قد اشتد به الحر في أحد الايام إلى حد أن أمره الخليفة الحكم المستنصر بن الخليفة عبد الرحمن الناصر أن ينزل إلى صهريج كانا جالسين بجانبه في زهراء قرطبة — التي زرت اطلالها هذه المرة (١) فنزل مولانا الاستاذ ولم يبال ، والحشمة والحرارة قلما يجتمعان على الشروط المرعية في البلاد الباردة

فلما كنت بقرطبة في شهر يوليو الفائت ولقيت قريبا ما لقيته من شدة الحر عذرت قاضي الجماعة في خوضه صهريج الزهراء ، ولكن حر مكة المكرمة يزيد بعشر درجات على حر قرطبة ، فخوض صهريج الزاهر أقرب إلى العذر من خوض صهريج الزهراء ، وأنا أبعد عن المشيخة من القاضي مندر بن سعيد

الصعود إلى عرفة في شدة المرض

ثم نود إلى قضية التياثنا فنقول : اننا بعد قضاء بضع ليال على هذا المنوال بلغ منا النهك مبلغه ، ثم كان لابد من أن نصعد إلى عرفة قبل لوقفة ، فأغى علينا في الطريق وسار بنا اللذان كان معنا في العربة فؤاد بك حمزة والسيد حسين العويني إلى منى ، فاسترحنا هناك إلى الصباح ، ولكنه لم يكن بد من الذهاب تلك الساعة إلى عرفات فذهبنا إليها وأنا على ما أنا عليه من الاعياء ، ثم أفضنا مع الحجاج الكرام عاندين إلى منى حيث بتنا ليلتين لقضاء المناسك ، فما رجعت إلى مكة وقضيت المناسك إلا وكنت مريضاً جداً مريض . ولم يتقل علي ذلك لان الحج الشريف تطهير وتمحيص ، فرجوت ان يكون المولى سبحانه قد غفر لي ذنوبي الكثيرة التي يستحق تمحيصها أكثر من هذه الاوصاف . والله غفور رحيم (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله)

الاتجاه إلى الطائف

ولما اشتد بي الضعف قلت لاخواني : لا ينقضي مما أنا فيه إلا الطائف . فأننا أدري بنفسي ، ومتى نشقت هواء الجبال لم يبق علي خوف ، فتردد فؤاد بك قليلا خشية ان لا يكون قريباً مني وأنا على هذه الحال ، فقلت له : إن كنت تحبني فدعني أصعد إلى الطائف بدون تأخير .

وقد كان هذا رأي سليمان شفيق باشا ناظر الحربية في تركيا سابقا المقيم الآن بمخدمة الملك ابن سعود ، فانه نهى عن ان أترث ساعة واحدة ولو لاجل اعطاء التواصي اللازمة لأمير الطائف بترفيه مقامي وتوثير مسكني . ولما جيء بالسيارات لأصعد بها إلى الطائف شعرت من الفرح بنشاط غريب ممن هو على تلك الحالة ، ونهضت مسرعا أستقبل الحياة من بعد ان كنت على ثنية الهلاك . فسرنا إلى محطة اسمها « الشرائع » على مسافة ساعتين بالسيارة من مكة ، ومن هناك رجع إلى

حكمة الاخوان السراة الافاضل الذين تنطفوا بوداعنا: الدكتور محمود بك حمدي مدير الصحية وفؤاد بك حمزة وكيل الخارجية، والسيد عبد الوهاب نائب الحرم عضو مجلس الشورى، وبقي معي الاخ البطل المجاهد الشهير فوزي بك القاوقجي، والاخ الفاضل الدكتور خيرى القباني الذي صدرت الارادة الملوكية بان يلازمني إلى ان أنال الشفاء ونعم الاخ هو ونعم الطبيب الفاضل .

وليس فيه من عيب سوى قلة الثروة والجمعية وعدم ايها العلم الاوسع والشفاء الاسرع، فاذا استطب العليل لديه ورأى صمته وقلقلة شفتيه قال: يظهر ان المسئلة مقضية وزاده الخوف مرضاً، وقد فات الاخ القباني ان الجمعية هي نصف الطب، وان المريض كلما سمع ألفاظا لا يفهمها وكلمات فنية لم يسمعها ازدادت ثقته بالطبيب، وقد يحصل على الشفاء بدون دواء . لاسيما اذا كان الطبيب يعرف أن يرصف تلك الالفاظ ويسير بها بسرعة كلية، فلا يبقى شبهة عند عايله بأنه أحذق الاطباء

ثم اننا بعد ان رقدنا هزيعاً من الليل قلنا للسائق تقدم بنا نحو « الزيمة » فسرنا اليها ولم يمض نصف ساعة حتى بلغناها . واذا بالزيمة عين ماء ثرة لهاخير يسمع من بعيد، فلما سمعت خرير الماء أخذ مني الطرب أن نفضت الضعف عني ونزلت من السيارة وذهبت إلى العين أتمتع برؤية الماء بعد ان سمعت صوته المطرب . ثم جاءنا شيخ قرية الزيمة يدعونا إلى فك الریق — لقمة الصباح — في بيته فذهب الاخوان ولم أستطع المشي لما كان النهك قد بلغ مني، فجاءوا إليّ بالشاي إلى السيارة . ولم أنشط الى الطعام كما نشطت الى منظر الماء

ومن ثمة صعدنا بالسيارة في واد فيه كثير من شجر الطلح وسرنا ساعة من الزمن قبلنا أعلى الوادي وهو المسمى بالسيل وعنده مقهى بسيط جداً يقوم عليه بدوي من عتيبه، إلا انه ذو قيمة في تلك البرية. والوادي هناك قريب الماء لا يحفر

فيه الانسان ثلاثة أشبار الا أنبط . ولذلك تجد فيه عدة مناطق عذبة
وهذا هو المحل الذي كان في الجاهلية يسمى بذات عرق وفيه يقول الشاعر:
ألا يا نخلة من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام
وأحسست في ذات عرق بنشاط مريع ، ومنها الى الطائف مسافة ساعتين
يمر فيها الانسان على المكان الذي كانت فيه سوق عكاظ بالجاهلية ، وكنت كلما
تقدمت صوب الطائف أشعر كاني آكل العافية أكلا . فلم يخطيء ظي اني لما
كنت من أبناء الجبال لم يكن يشفيني إلا هواء الجبال . ولم تنزل أهوية الصرود ،
ترمم ما هدمته أهوية الجروم

الكلام على ذات عرق

جاء في تاج العروس عن ذات عرق ما يأتي :
« وذات عرق موضع بالبادية كان يقال له قبل الاسلام عرق ، وهو ميقات
العراقيين ، وهو الحد بين نجد وتهامة ، ومنه الحديث « انه وقت لاهل العراق ذات
عرق » وهو منزل من منازل الحاج يحرم اهل العراق بالحج منه ، سمي به لان فيه عرقا
وهو الجبل الصغير ، وعلم النبي ﷺ انهم يسلمون ويحجون فبين ميقاتهم » انتهى .
وجاء في معجم البلدان :

« وذات عرق مهل (بتشديد اللام) اهل العراق وهو الحد بين نجد وتهامة
وقيل عرق جبل بطريق مكة ومنه ذات عرق . وقال الاصمعي ما ارتفع من
بطن الرمة فهو نجد إلى ثنايا ذات عرق ، وعرق هو الجبل المشرف على ذات عرق »
إلى أن يقول :

« وقال ابن عينية : اني سألت اهل ذات عرق أمتهمون أنتم أم منجدون ؟

فقالوا ما نحن بمتهمين ولا منجدين . وقال ابن شبيب : ذات عرق من الغور والغور من ذات عرق إلى أوطاس ، وأوطاس على نفس الطريق ، ونجد من أوطاس إلى القريتين . وقال قوم أول تهامة من قبل نجد مدارج ذات عرق »

وبالفعل تجد نفسك إذا بلغت ذات عرق وأنت ذاهب من مكة إلى الطائف قد ارتفعت ونشقت هواء نجد . ثم إن الطريق من « السيل » الذي هو من ذات عرق كله صعود إلى المكان الذي يقال له اليوم « انقهاوي » والذي يقولون انه كانت عنده سوق عكاظ حسبما سمعت من أهل مكة ، ومن أعرقهم وأعتهم الشيخ عبد القادر الشيبى كبير بني شيبة وسادن البيت الحرام ، ومن ذات عرق إلى الطائف بالسيارة مسيرة ساعتين ، وبعد أن تفوت ذات عرق بنحو نصف ساعة بالسيارة تجد على يسارك مفراً للطريق المؤدية إلى بلاد العارض من نجد ، ومن هذه الطريق يسير الملك عبدالعزيز بن سعود عند ما يقصد الرياض وعليها تدرج سياراته التي تبلغ أحياناً مائة وسبعين سيارة فتصل إلى الرياض من مكة في أربعة أيام ، وهي على الجمل مسافة عشرين يوماً ، ولو كانت الطريق معبدة كما يجب من مكة إلى ذات عرق ومن ذات عرق إلى الرياض لكان من الممكن الوصول في أقل من يومين . إلا أن تبديد طريق كهذه على مقتضى أصول هندسة الطرق ينبغي له أموال لا تطيقها حكومة الحجاز ونجد في الزمن الحاضر ، وهي التي لا يساعد وادها على مثل هذه الانشاءات كلها ، فإن الداخل قليل ، والحل ثقل ، والآمال متوجهة إلى تمهيد هذه الطرق تدريجاً . وأما الآن فإن درجة اصلاح هذه الطرق هي الدرجة التي يقال لها « على قدر الامكان » وتعتبرها السيارات بدواً إليها والخيول يحوافرها والاباعر باخفافها وهلم جرا

الكلام على سوق عكاظ

وأما سوق عكاظ التي لم يسمع أحد بشيء اسمه اللغة العربية إلا سمع بها فليس لها من أثر سوى الخبر وهو أنها في هاتيك المظنة . واصل لفظة «عكاظ» هو من فعل «عكظ الشيء يمكنه» أي عركه . وقال ابن دريد :عكظه قهره ورد عليه فخره ، وبه - كغراب - سوق بصحراء . بين نخلة والطائف ، يريد أن عكاظ على وزن غراب . وقال الاصمعي :عكاظ نخل في واد بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليال وبه كانت تقام سوق العرب . وقال الزمخشري : عكاظ ماء بين نخلة والطائف إلى بلد يقال له المنق كانت موسماً من مواسم الجاهلية تقوم هلال ذي القعدة وتستمر عشرين يوماً . قال ابن دريد : وكانت تجتمع فيها قبائل العرب فيتعاكظون أي يتفاخرون ويتناشدون . قل في تاج العروس : زاد الزمخشري كانت فيها وقائع وحروب ، وفي الصحاح فيقيمون شهراً يتبايعون ويتفاخرون ويتناشدون شعراً ، فلما جاء الاسلام هدم ذلك

وأنشد الجوهري لابي ذؤيب

إذا بني القباب على عكاظ وقام البيع واجتمع الالوف

وقال أمية بن خلف الخزاعي :هجو حسان بن ثابت الانصاري

الامن مبلغ حسان عني مغفلة تدب إلى عكاظ

أنيس ابوك فينا كان قينا لدى القينات فسلا في الحفاظ

يمانيا يظل يشد كيراً وينفخ دائماً لهب الشواظ

فأجابه حسان رضي الله عنه ، ولو لم يكن بالذي إذا سوجل لايملاً الدلو

إلى عقد الكرب - :

أتاني عن أمية زور قول وما هو في الغيب بندي حفاظ

سأنشر ان بقيت لكم كلاما ينشر في المجنة مع عكاظ
قواف كالسلاح إذا استمرت من الصم المعجزة الغلاظ
تزورك ان شتوت بكل أرض وترضخ في محلك بالمقاظ
بنيت عليك ابياتا صلابا كامرالوسق قعّض بالشظاظ
مجلة تعممه شناراً مضرمة تأجج كالشواظ
كهمة ضيفم يجمي عربنا شديد مغارز الاضلاع خاظ
نغض الطرف، ان القاك دوني وترمي حين أدبر بالاحاظ

كأمرالوسق أي كأمير حمل البعير، وقعّض مبنياً للجهول معناه عطف، والشظاظ خشبه عفاء محددة الطرف تجعل في عروني الجواليق إذا عكّا على البعير، والاسد الحاظي المكتنز اللحم. وقال طريف بن تميم :

او كما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلي عريفهم يتوسم

وجاء في معجم البلدان: « عكاظ بضم أوله وآخره ظاء معجمة . قال الليث: سمى عكاظ عكاظاً لأن العرب كانت تجتمع فيه فيعكظ بعضهم بعضاً بالفخار أي يدعك، وعكظه لان خصمه باللدد والحجج عكظا. وقال غيره : عكظ الرجل دابته يعكظها عكظاً إذا جسها، وتعكظ اقوم تعكظاً إذا تحبسوا ينظرون في أمورهم وبه سميت عكاظ، وحكى السهيلي كانوا يتفاخرون في سوق عكاظ إذا اجتمعوا، ويقال عاكظ الرجل صاحبه إذا فاخره وغلبه بالمفاخرة . وقال الاصمعي: عكاظ نخل في واد بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليال، وبه كانت تقام سوق العرب بموضع منه يقال له الاثيداء وبه كانت أيام الفخار وكان هناك صخور يطوفون بها ويحجون اليها . قال الواقدي : عكاظ بين نخلة والطائف . وذو المجاز خلف عرفة ، ومجنة بمر الظهران. وهذه أسواق قریش والعرب ولم يكن فيه أعظم من

عكاظ ، قالوا كانت العرب تقيم بسوق عكاظ شهر شوال ثم تنتقل إلى سوق
مجنة فتقيم فيه عشرين يوماً من ذي القعدة ثم تنتقل إلى سوق ذي المجاز فتقيم
فيه إلى أيام الحج انتهى

وقال في المصباح المنير : عكاظ وزان غراب سوق من أعظم أسواق الجاهلية
وراء قرن المنازل بمرحلة من عمل الطائف على طريق اليمن . وقال ابو عبيد : هي
صحراء مستوية لاجبل بها ولا علم ، وهي بين نجد والطائف وكان يقيم فيها السوق
في ذي القعدة نحو من نصف شهر ثم يأتون موضعاً دونه إلى مكة يقال له سوق
مجنة فيقيم فيه السوق إلى آخر الشهر ، ثم يأتون موضعاً قريباً منه يقال له ذوالمجاز
فيقيم فيه السوق إلى يوم التروية ثم يصعدون إلى منى . والتأنيث لغة الحجاز
والتذكير لغة تميم انتهى

قلت وقوله : وراء قرن المنازل بمرحلة أي وراء الوادي الذي يقال له اليوم
وادي محرم (بفتح فسكون) وسيأتي الكلام عليه وهو من أنزه أودية الحجاز
وهو يمتد إلى ذات عرق

وأما ان عكاظ صحراء مستوية لاجبل بها ولا علم فهو صحيح ، وإنما رأيت
في ذلك الموضع صخوراً كباراً ورأيت أيضاً مسابيل ماء شتوية ، وكثيراً من شجر
السدر والطرفاء هذا إذا كانت عكاظ في المكان المسمى بالقهاوي

ذكر أسواق العرب

لا ينبغي أن يظن أن أسواق العرب هي عكاظ ومجنة وذو الحجاز فحسب بل كانت لهم أسواق عديدة غيرها . وقد جاءت في « صبح الاعشى » خلاصة هذه الاسواق ، قال :

كانوا ينزلون دومة الجندل (هذه في الشمال على حدود الشام وتسمى الآن الجوف وهي من مملكة ابن سعود) أول يوم من ربيع الاول فيقيمون أسواقها بالبيع والشراء ، والاخذ والعطاء ، وكان يعشوم فيها أكيدر دومة - وهو ملكها - ورءا غلب على السوق كلب فيعشوم بعض رؤساء كلب . فيقوم سوقهم هناك الى آخر الشهر (يقال ان كلبا هم الذين يقال لهم اليوم الشرارات . وقوله يعشوم معناه يقصدهم (١) أصله مخصوص بالقصد ليلا ثم عم) ثم ينتقلون الى سوق هجر من البحرين في شهر ربيع الآخر فتكون أسواقهم بها . وكان يعشوم في هذا السوق المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بن دارم - وهو ملك البحرين - ثم يرتحلون نحو عمان من البحرين فتقوم سوقهم بها . ثم يرتحلون فينزلون إرم وقرى الشحر من اليمن فتقوم أسواقهم بها أياما . ثم يرتحلون فينزلون عدن من اليمن أيضاً فيشترون منه اللطائم وأنواع الطيب . ثم يرتحلون فينزلون حضرموت من بلاد اليمن . ومنهم من يجوزها فيرد صنعاء فتقوم أسواقهم بها ويجلبون منها الخرز والادم والبرود . وكانت تجلب اليها من معافر (مخلاف من مخاليف اليمن تنسب اليه اثياب المعافرية) ثم يرتحلون إلى عكاظ في الاشهر الحرم فتقوم أسواقهم ويتناشدون الاشعار ويتحاجون ، ومن له أسير سعى في فدائه ، ومن له حكومة

(١) قال في المصباح: وعشيت بالثقل وعشوته اطعمته العشاء (يعني طامام العشاء بالفتح) وهو الذي يتعشى به وقت العشاء (بالكسر)

ارتفع إلى من له الحكومة، وكان الذي يقوم بأمر الحكومة فيها من بني تميم .
وكان آخر من قام بها منهم الاقرع بن حابس التميمي ، ثم ينفون بعرفة
ويقضون مناسك الحج . اهـ

فيظهر للمقاريء من هنا أن العرب كانوا يقصدون جعل نصيب من هذه
الاسواق لكل الجزيرة العربية مما يدل على الوحدة والاتصال ، فانهم بدأوا
بالشمال وهو دومة ، ثم اتشوا نحو الشرق وهو البحرين و عمان ، ثم انعطفوا إلى
الجنوب وهو اليمن ، ثم جاءوا إلى الغرب وهو الحجاز . والمساف لم تكن تطول
عليهم مهما تراخت وتناثرت ، ولو لم تكن يومئذ سيارات كهربائية ، فانه لا يوجد في
البشر أقدر على طي المراحل وإنشاء الرواحل من العربي ، وهو بطبيعته يحتمل طول
المسافات ولا يراها بالنسبة إلى همته شيئاً .

على أني أرى صاحب «صبح الاعشى» أهمل « المربد » من أسواق العرب
وهو سوق عظيم في البصرة - أو عظيمة ، لان السوق تذكر وتؤنس مثل الطريق (١) .
ولعل إهماله ذكرها هنا هو من أجل أنها سوق محدثة في صدر الاسلام ولم تكن
في الجاهلية ، وأصله سوق للابل ، ثم صار محلة عظيمة يسكنها الناس . قال ياقوت
«وبه كانت مفاخرات الشعراء ، ومجالس الخطباء ، وهو الآن بائن عن البصرة
بينها نحو ثلاثة أميال وكان ما بين ذلك كله عامراً وهو الآن خراب» وعلى كل
حال أشهر أسواق العرب عكاظ ، ومن محفوظي هذا الشعر للفرزدق

«١» في انصفحة التي قبل هذه التذكير والتأنيث في عبارة صبح الاعشى
ولعلها محرفة وتذكير السوق لغة ضعيفة وقيل خطأ واما الطريق فتذكيره لغة
اهل نجد والتأنيث لغة الحجاز وكلاهما فصيح وقوله تعالى (فاضرب لهم طريقاً
في البحر يساً) يوافق اللتين لانه وصف بالمصدر يستوي فيه المذكر والمؤنث
وذهل عن هذا من قال انه جاء بلغة نجد

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها يهدي الي غرائب الاشعار
 فلفت يازرعُ بن عمرو اني رجل يشق على العدو خباري
 أرايت يوم عكاظ حين لقيتني تحت المعراج فاشققت غباري
 إنا اقتسمنا خطيتنا بيننا فحملت رة واحتملت فجار

وللاخ الفاضل المؤرخ، والشاعر المبدع السيد خير الدين الزركلي رأي آخر في مكان عكاظ، واليك ما قاله في كتيبته «مارأيت وما سمعت» الذي ألفه على رحلته إلى الحجاز: «وعلى ذكر طريق السيل أو البجانية لا أرى أن تفوتني الإشارة إلى أشهر سوق من أسواق العرب أعني سوق عكاظ لوقوعها في تلك الطريق على مرحلتين من مكة المذاهب إلى الطائف في طريق السيل يميل قاصد عكاظ نحو اليمن فيسير نحو نصف الساعة وهذا هو أمام نهر في باحة واسعة الجوانب يسمونها «القانس» بالكاف المعقودة — وهي موضع سوق عكاظ الذي لا تكاد تقرأ كتاباً من كتب الادب أو التاريخ العربي الا وجدت له ذكراً فيه

وهذه الباحة التي يسمونها «القانس» هي مجتمع الطرق إلى اليمن والعراق ومكة، وهي مرتفعة تشرف على جبال اليمن وبينها وبين الطائف مرحلة واحدة كل ذلك يدل على ما دعا العرب في الجاهلية لاختيار هذه البقعة المتوسطة من دون غيرها لتكون مجمعهم الأكبر، ومعرضهم الأشهر، ولم أجد فيما بين يدي من مصنفات التاريخ تعليلاً لاتفاق القبائل على الاجتماع في هذا المكان غير ما رفته الآن والواقف في القانس أو «عكاظ» يرى على مقربة منه موضعين مرتفعين أحدهما يسمى الدمة — بكسر ففتح — والآخر البهيمية — بصيغة التصغير — وعكاظ هو الفاصل بين الدمة والوادي الموصل إلى الطريق التي يمر بها سالكو درب السيل «البجانية» ثم نقل قول ياقوت عن عكاظ وختم بقوله:

«وسمعت كثيراً من أهل الطائف يقولون ان عكاظا كان في مكان يعرف

اليوم باسم « القهاوي » في وادي لية من الطائف ، غير أن الشيوع يؤيد ما قلناه
 آفنا من انه هو القانس نفسه وعليه أكثر العارفين من أهل هذه الديار اه
 أفلا يحتمل أن يكونوا أقاموا السوق مرة في القانس ومرة في المكان المسمى
 اليوم بالقهاوي ؟ على أن قول الاخ الزركلي ان القهاوي هي في وادي لية فيه نظر
 لان القهاوي ليست في وادلية ولا وادي لية هو قريب من هناك ، فقد عرفت
 وادي لية ، وسأتكلم عليه وهو الذي فيه لروض النضير ، والماء الغزير ، والدوح
 الكبير ، والكروم التي ليس لها نظير ، والمان الذي حبه كحب اليواقيت والذي
 ذكره في البلاد يسير ، فأما مكان القهاوي الذي نعرفه جميعاً فهو صحراء مستوية
 يابسة ليس فيها الا سدر وطلح وما أشبه ذلك ، فلا امكان للتأليف بين هذا
 القول الذي سمعته وهذا الذي أذكره أنا الا على شرط واحد وهو أن يكون اسم
 وادي لية يطلق على كل هاتيك الاراضي

ولقد رحم الله الحجاز بعدم دخول الافرنج اليه ، وبعدم جوسهم خلاله ،
 وبعدم استطاعتهم الكتابة في جغرافيته وتاريخه ، اذ لو كان ذلك لرأينا العجائب
 والغرائب ، ولشهدنا النجوم طالعة في النهار ، والشمس طالعة في الليل ، ولكانت
 التعليقات على مظنة سوق عكاظ ، ممتضيق عن وصفه الالفاظ ، ولذهبوا فيها
 من المذاهب وأوردوا من الفكر ، مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على
 قلب بشر . فواحد يقول مثلاً ان اختلاف هذه الروايات بين القانس والقهاوي
 قد يجعل ريبة في صحة كل منها - ولو قدر أن بين المسكنين مسافة نصف ساعة -
 وآخر يقول : ان مكان سوق عكاظ الحقيقي محاط بالعموض بحيث لا يقدر أن
 يجزم أحد بشيء . وآخر يذكر انه توجد اسباب تدعو الى الظن بأن قصة
 سوق عكاظ مخترعة لاجل أن تتخذ دليلاً على فساد العرب ، وآخر يقدح زناد
 الفكر فيقول : ان كون الاقرع بن حابس التميمي حاكماً في السوق دليل على انها

لم تكن في الحجاز بل في نجد لان بني تميم يسكنون في العارض لا في الطائف .
 وافرنجي أعرق في مذهب الشك من غيره يقول: من المعلوم ان محمداً كان دعا
 أصحابه الى إلغاء عادات الجاهلية كلها ، فأئمة الاسلام لاجل أن يؤكدوا صحة
 إبطال هذه العادات اخترعوا من عقولهم قصة معناها انه كانت تقام بقرب الطائف
 في الجاهلية سوق يقال لها سوق عكاظ تجرى فيها المنافرات والمفاخرات والمساجلات
 بالشعر وان محمداً ألغاهها ! وانه يوجد أمارات كثيرة تدل على أن تلفيق قصة عكاظ
 هذه قد تقرر بين الخليفة والأئمة في زمن المستنصر العباسي أبي جعفر مثلاً أو في
 سنة ٦٢٢ للهجرة في أواخر خلافة أبيه الظاهر أبي نصر مثلاً لانه كان قد ظهر
 في ذلك العهد فقهاء منعوا الحرية الفكرية، وكانوا يمكن من التعصب الديني ! فلا
 يبعد أن يكون هذا الوضع وقع في ذلك العصر !

وأخيراً تنتهي مسألة عكاظ هذه بأنه لا وجود لعكاظ أصلاً، وانها موضوعة
 بعد الاسلام بكثير، وان روايات مؤرخي العرب عنها هي خيالية، وان التواطؤ
 بين فقهاء الاسلام على اختراع قصص لاجل تأييد محمد قد كان أكثر مما يظن،
 وأن أئمة اسباب تدعونا أن نشبه في كوز الاشتباه الذي يتظاهر به مؤلفو
 الاسلام أحياناً هو من الاشتباه الذي يدعو إلى الشبهة . وما مائل ذلك من
 (التحقيقات أو التحليلات) التي قراءتها نفعي من أصحابه تسمح في المعدة عن اتخاذ مقيء .
 ولفائل أن يقول : أهكذا تحقيقات الافرنج ؟ وهم الذين بلغوا من العلم
 والعرفان ما بلغوا ؟

فأقول: حاشا ان يؤخذ كلامي هذا على إطلاقه . ومن الافرنج العلماء
 المحققون الذين يتزهدون عن مثل هذه الاقاويل المقيئة ، ومن يعرفون أن شعر
 الجاهلية هو الشعر المعروف المنسوب إلى الجاهلية ، وان سوق عكاظ هي التي كانت
 تقام في أرض الطائف المذكورة وان الاشتباه في مثل هذه الامور خطا جائرة ،
 وصفتة خاسرة ، ليست من العلم في قبيل ولا دبير

ولكن من الافرنج أيضاً فئة متحذقة متفلسفة في كل شيء ، مولاة بالمقض
 وهدم النظريات المقررة بدون داع إلى ذلك سوى الميل الى الاطراف والالتيان

بشيء جديد. وفي الشرق أيضا متنطمعون لا يعجبهم إلا تقليد هذه الفئة من الافرنج (١) وإذا جاز أن يكون شعر الجاهلية غير صحيح لزم أن تلحق به سوق عكاظ في عدم الصحة، لأنها السوق التي كان العرب يقناشدون فيها ذلك الشعر الذي زعم بعضهم انه مخترع بعد الاسلام! وعلى هذا تكون سوق المخترع مخترعة أيضا، لانه إن لم يكن المظروف صحيحا لم يكن الظرف صحيحا

❦ الكلام على صخور تلك البلاد ❦

مما اقتضى عجبني في الطائف شكل الصخور - (عامة الطائف تجمع صخوراً على اصغار ، والحال أن فعلاً بفتح أوله لا يجمع على أفعال إلا في الفاظ معلومة) . فانه غريب جداً من وجود (أولها) إن الصخور والجنادل هي بكثرة زائدة في كل هاتيك الجبال وفي السهوب التي تتخللها (ثانيها) إنها قد توجد مجموعة في أمكنة معلومة متراصفة بعضها إلى بعض كأنما هي مجتمعة على ميعاد (ثالثها) إنه تغلب عليها الملاسة بخلاف صخور جبالنا الشامية التي تغلب عليها الحارشة إلا ما كان منها في الاودية السائلة (رابعاً) إن أشكال بعضها غريبة جداً، منها ما يشبه الشجر، ومنها ما يشبه البشر، ومنها ما نخل انه ينظر بعيون ، ومنها ما نخله مطراً برأس ، ومنها ما هو بجوف تجويفاً يظنه الرائي من صنع البشر ، او مثقوب من مكان إلى آخر . وإن كثيراً من هذه الجنادل تراه منضوداً بعضه فوق بعض ، وفي أعلى الجميع صخرة هي الرئيسية تشبه رأس المنارة . والبديرون في هذا جميعه يد الباري تعالى التي جعلت هذه الاشكال لأجل العبرة في قدرته تعالى . ولا شك في يد الله تعالى في هذا وفي كل شيء . ولكن الفرق بين العالم والجاهل هو في معرفة الاسباب المتوسطة . فالعالم يرى ثمة الاسباب وكما ازداد علماً طالت معه السلسلة فلا يزال يرتقي من سبب إلى سبب ومن معلول إلى علة حتى يقف حماره في العقبة فيقول :

« ١ » ذهل الامير اوسى هنا ان هؤلاء المنتظمين من الافرنج ومقلداتهم ينون جل فلسفتهم على الشك والتشكيك فيجعلون هذا الجهل والتجهيل اقوى وسائل العلم والتعليم وقد رد عليهم احسن الرد في مقدمة التي وضعتها لكتاب (النقد التحليلي لكتاب في الادب الجاهلي) تأليف صديقه وصديقنا الاستاذ محمد احمد انعم راوى

لا أدري . أو يقول: هكذا خلق الله . وأما الجاهل فإنه يصل إلى الله رأساً ويحذف السلسلة المتوسطة (١) على أن العالم والجاهل مستويان في العجز عن معرفة الكنه فهذه الصخور التي في الحجاز لا بد من أن تكون لاوضاعها وأشكالها هذه أسباب طبيعية متولدة عن أسباب سابقة. والذي يراها أول وهلة يحكم أن هذه التجاويف والتقاير وهذه الموصة وهذا التدور وهذا الرأس وغير ذلك إنما هي من عمل الريح والماء في ملايين من السنين . وإن هذه الصخور العالية المشرفة المنتصبة على رؤس أكوام أشبه بالانصاب كأنها التماثيل التي ينحتها البشر بأيديهم وينصبونها فوق مكان مرتفع إن هي إلا بقايا صخور كانت كثيرة متلاصقة فلم تنزل سحب الامطار الغزيرة تجرف من حولها الانربة اللازقة بها وتحمل بموازنة بعضها فتھوي به من محلّه وتجره إلى الوادي، وتعري القائم الباقي منها وتجرده من التراب فيصير أملس مع شدة صلابته . ولقد وجب الآن أن نذكر شيئاً عن نظريات العلماء في شأن الصخور فنقول :

كيفية تشكّل الصخور

﴿ أو سنة الله في تكوين الارض وطبقاتها ﴾

كانت الارض من قبل اليوم بمئات ملايين من السنين عرضة لهزاهز بركانية عنيفة، وكانت بومئذ غير مولدة ولا منبثة . وكانت سيول الامطار تغسل الارض بدون انقطاع ، والانهار تجري فياضة إلى البحار ، وكانت تجرف كتلا عظيمة من الطين فتصير فيما بعد صلصالا ، ويصير الرمل منها من نوع حجر المسن ولقد عرف علماء الجيولوجيا هذه الكتل المتجمدة وما فيها من مواد وحكموا عليها بحسب طبقاتها لانها ذات طبقات . وعندهم ان أقدم الصخور هي التي تكونت قبل تكون الابحر المعروفة اليوم . فان الارض بومئذ كانت أسخن من أن تتحمل بجرّاً منفصلاً عن بر ، وانما كانت الكرة في أول الامر كلها مائعة ،

(١) اجدر بمن يعلم سلاسل الاسباب وانتظام فيها ان يكون اعلم بكال خالقها

في علمه وحكمته ومشيئته وقدرته

ومياه البحار الموجودة اليوم كانت بخاراً مختلطاً بالهواء . وكانت الطبقات العليا من الهواء ملاًئى بالسحب المتكاثفة التي تَطُر مياها حارة فوق الصخور ثم تعود فتتبخر ثانية . وبهذه الكيفية أخذت الارض تجمد تدريجاً وظهرت الكتل التي يقال لها صخور ، وكانت هذه ذات قشرة تحتوي مادة سائلة شبيهة بمقدوفات الاطيات النارية عند ما تأخذ بالبرودة . وهذه القشرة كانت على شكل رغوة وصارت تذوب ثم تجمد ثم تذوب ثم تجمد بدون ان يتسنى لها صلابة مستمرة

ثم مضت ألوف من القرون كان من عملها ان بخار الفضاء ازداد تكاثفا وصار يتساقط مائه على الارض سبولا حارة فيصيب الصخور ويملاً المنخفضات والاغواط فتكونت من امتلاء هذه الغيطان الابحر والبحيرات والمستنقعات ، وكانت المياه تأتي إلى هذه الصخور بالرواسب التي تكونت منها الاراضي . ومن هذه الرواسب ما كان يتراكم في المنخفض من الارض ولكن الهزاهز البركانية كانت لا تدع شيئاً منها يطمئن ، وكانت المياه تعج ولا تزال تكنس القشرة الارضية ، فهذه الصخور مضى عليها من صنوف الاضطراب مالا يعلمه إلا صانع الجميع من العدم . وبعضها جاء طبقة فوق طبق ، وبعضها قد قشرته الاضطرابات وقد برز لايحجبه حاجب . ومنها ما انفلق ، ومنها ما انحطم بعوامل جديدة من حرارة صاهرة أو برودة مؤدية إلى الجود

ولم تكن هذه الصخور طبقات منتظمة ، لشدة ما مرت به من ادوار الاضطراب المختلفة ، فتعذر على العلماء فهم تاريخها بسبب التبعض وعدم الاطراد وفقد الذسق ، وغاية ما عرفوا عنها وجود المواد المستحجرة مما كان نباتاً أو حيواناً . فهذا قد كان بدأ اليونانيون يعرفونه قبل المسيح بأربعة قرون ، وقد جرى البحث فيه بين فلاسفة الاسكندرية . ويقول الكاتب الفيلسوف الانكليزي « ولز » ان العرب عرفوا أيضاً هذه المباحث في القرن العاشر بعد المسيح (١) إلا انه لم يبدأ العلم الحقيقي

« ١ » قال الامام الرازي : الاشبه ان هذه المعمورة كانت في سالف الزمان مغمورة في البحار فحصل فيها طين لزج كثير فتحجر بعد الانكشاف وحصل الشقوق بحفر السيول والرياح ولذلك كثرت فيها الجبال . ومما يؤكد هذا الظن اننا نجد في كثير من الاحجار اذا كسرناها اجزاء الحيوانات المائية كالاصداف والحيتان اهم

شرح المواقف

لهذه المواد المستحجرة إلا من مائة وخمسين سنة فقط، فصار الانسان يحل شيئاً فشيئاً من سطورها التي كانت مستعجمة . ولما يتفق الجيولوجيون على عمر هذه الصخور ، فإن أقدمها يقدر له مليار وسبعمائة مليون سنة ، وأحدثها عشرات ملايين من السنين

وقد كانت الارض في آماد - لا يمكن أن يتصور العقل عددها ولا مددها - كنزلة مشتملة بدون حياة ، ثم مضى عليها آماد بقدر الاولى وهي جامدة غاية ما فيها من الحياة جراثيم في غاية الصغر تحتوي عليها أصغر نقطة من الماء . ولكن بعد ذلك دبت الحياة في الارض ووجدت مخلوقات الدابة ، بدليل أنهم عثروا في هذه الصخور الاصلية الرسوبية على مواد رصاصية وعلى اكسيد الحديد الاحمر والاسود مما استنتجوا منه سبق خلائق حية إذ لا يمكن ان تكون هذه المواد إلا بقايا خلائق كهذه .

ونقول باختصار ان تاريخ ديب الحياة على الارض مقترن بتاريخ تجمد الصخور . فالمكرة كانت سديماً فصارت ماء إلى ان صارت جحاداً إلى ان خرج من الجحاد النبات فالحبوان ، وقد كان هذا التحول فيها يميناها من الحرارة إلى البرودة بتولي الدهور . والجيولوجيون يرون أن هذه البرودة ستزداد إلى حد انه - بعد ملايين وملايين من السنين - يمت كل ما على وجه الارض من الخلائق الحية (١)

«١» هذا التقدير الذي يقدرونه للحياة الأحياء على هذه الارض هو من قبيل تقدير العمر الطبيعي لكل حي بحسب استعداده للحياة بمقتضى النظام الذي عرف بالاختيار في اسكمال نوع جنسه وطوار طفولته وشبابه وكهولته وشيخوخته ولكن العمر الطبيعي للمقدر في ذلك غير العمر الحقيقي الذي يحول دون وصوله إلى العمر الطبيعي . بعض الاقدار الالهية من قتل او وباء او مرض لا يوفق لمعالجته بما يكون سبب الشفاء كما وفق الاير أطال الله حياته بالصحة والامانية . كذلك الارض يظهر من نصوص كتاب الله خالقها ان لها عمرا ينتهي بقيام الساعة التي قال انها « لا تأتيكم الا بغتة » ووردت آيات متعددة ناطقة بأن ذلك يكون بفارعة تفرعها وصاخة تصخبها فتكون هباء سديماً كما كانت قبل تكوينها « اذا رجعت الارض رجا * وبثت الحياض بيا * فكانت هباء منبثا » وقد فصلنا ذلك في النار وتفسيره

فلما كانت الحرارة زائدة على الأرض لم تحمل الأرض الحياة لان الحياة لا تتحمل الحرارة الزائدة، وعندما تنقص الحرارة نقصاً زائداً لا تحمل الأرض الحياة، لان الحياة لا تتحمل البرودة الزائدة، كل ذلك يدل على ضرورة التوازن لاجل الحياة ولعل بعض القراء يشتمنون من هذه المباحث « الكفرية » ويرون هذه التعليلات مملاً لا يتألف مع العقيدة . وهذا خطأ محض لان هذه الادوار التي لا تخصى إلا بالملايين والمليارات من السنين هي أدل على قدرة الخلاق الحكيم تعالى وهي ولو طالت أضعاف ما هي لما أمكن ان يعمل لها وجود إلا بواجب الوجود وإما ان الأرض وغيرها من الاجرام الفلكية كانت كلها كتلة واحدة من البخار ، ثم تفصلت كرات شتى وأخذت كل منها تتجمد شيئاً فشيئاً ، وإن مبدأ الحياة كان في الماء فليس إلا وفقاً للوحي النازل على محمد ﷺ وهو (أولو لم ير الذين كفروا ان السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي) ولكن قصود مفسرينا في العلوم الطبيعية وقف بهم عن فهم المراد من قوله تعالى في أكثر الآي الكريمة التي من هذا الضرب . وكانوا اذا قرأوا (يوم تأتي السماء بدخان) أشكل عليهم فهم الدخان هنا فقالوا ان مراده تعالى يوم تأتي السماء بجذب أو قحط، لان الجائع يرى بينه وبين السماء دخاناً من شدة الجوع لو ان الجوع يقال له الدخان لما في الأرض من اليبس في الجذب بحيث يرتفع منها الغبار الذي هو كال دخان وما أشبه ذلك من التفسير التي هي أبعد من السماء عن الأرض (١) والكتاب في محكم آياته قد تأيد بظهور النظريات العلمية العصرية التي

« ١ » لقد كان للأمر مندوحة عن تخطئة هذا التفسير للآية بالاستدلال على الرأي السديمي في التكوين بقوله تعالى « ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها . قالتا أتينا طائعين) فهي نص في التكوين من الدخان الذي يطلق على بخار الماء وفسر به في الآية وعلى ما يشبهه . والآية التي ذكرها موضوع الدخان امر يرتقب حصوله في المستقبل وفيه قولان مشهوران مرويان لا رأيان للمفسرين . الأول ما ذكره الكاتب مجملاً وهو مروي على انه سبب لنزول الآية في الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه والثاني انه دخان يكون من اشراط الساعة وفيه عدة احاديث

أجمعت على الرأي السديمي في مبدأ التكوين ، وأثبتت ان هناك كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأنه أشار بكلمات موجزات تلخص فيها الرأي السديمي الذي أجمعوا عليه في هذا العصر على حين انه في زمن نزول القرآن لم يكن رأي سديمي ولا شي من هذه النظريات وكان الذي أنزلت عليه هذه الآيات أميا لا يقرأ ولا يكتب ومن أراد أن يعلم معجزات القرآن من جهة سبقه إلى ذكر النوااميس الطبيعية التي عول عليها العلماء اليوم في أصل التكوين فليقرأ كتاب « سرائر القرآن » للفازي الفلكي الرياضي احمد مختار باشا رحمه الله (١)

قرية لقيم وكرومها ومياها

ان المسافة من المكان الذي كانت فيه سوق عكاظ إلى مدينة الطائف هي نحو من ساعة بسير الكهزباء، وجميع المسافة من البلد الحرام إلى الطائف بالكهزباء نحو من خمس ساعات واول ما يستقبل الانسان في مسيره إلى الطائف هي قرية لقيم « بضم ففتح فسكون » وهي قرية لطيفة فسيحة الارعاء لا يظنها من رآها قرية واحدة وذلك لعدم فرق بيوتها وتراخي ما بين حاراتها . والسبب في هذا الفرق أن كثرتها خاص بالاشراف وأكثرتهم يسكنون في بيوت منفردة مسورة تحيط بها بساتينهم ومزارعهم ، فكل واحد منهم يريد أن يعيش مستقلا بنفسه في منزله وزرعه وضرعه وجميع حراقة ، ومعظم هؤلاء الاشراف هناك من ذوي ناصر واشهرهم لهذا العهد الشريف (فطن) فهو أطولهم يدا ، وأوسمهم كرما ، وأكثرم كروم غنب ، ومما لا ينبغي أن ينسى ان غنب « لقيم » هو رأس غنب الطائف في اللذة والحلاوة وان غنب وادي محرم اي قرن المنازل هو رأس غنب الطائف في كبر الحجم مع الحلاوة ، وتحسبه جوزا إذا رأيته ، وقد كنا نضع منه الحبة في دورق الماء فتقف في عنقه وتسده وفي لقيم عدد غير قليل من انسواني تحركها البقر لا بالدوران حول البير كما هو الشأن في سورية مثلا ، بل بالتزول في منحدر من الارض إلى جانب البير ثم الصمود (١) قد سبقنا احمد مختار باشا الى بيان كثير من هذه المسائل في المنار وفي تفسيره

ثانية فإذا نزلت الدابة في ذلك المنحدر صعدت الظروف المعلقة بالاشطان من قعر
 البير وقد امتلأت ماء ولم تزل تصعد إلى أن تصبح على قم القفأة التي ينصب فيها
 الماء جاريا إلى البركة ففرغت الظروف ماءها ورجعت الدابة من آخر المنحدر
 صاعدة نحو البير ، فنزلت بتلك الظروف ثانية إلى قعرها التمتليء ماء وهلم جرا ،
 وإلى اليوم لم يعتمد أهل الطائف والقرى التي حولها على الآلات البخارية
 الرافعة ولا يزلون على عاداتهم القديمة في رفع المياه ، وقد رغبتهم كثيراً في استعمال
 المحركات البخارية لما فيها من التوفير ومن زيادة الري وذكرت لهم كيف أن أهل
 المدينة المنورة قد عولوا عليها في السنين الأخيرة فوجدوا فرقاً عظيماً في كمية الماء
 الذي يستفيضونه واستخلصوا دوابهم التي كانت تهلك في هذا الصعود وهذا
 النزول ، فاعتدروا بأن مياه المدينة أغزر من مياه الطائف وأنهما رفعت الآلات
 منها فلا تنزحها ، بخلاف مياه الطائف وجوارها فإن الآلة البخارية إذا اشتغلت
 بضع ساعات فوق قم قليب نزحت كل ما فيه واضطر صاحب البير أن يعطل
 الآلة مدة ساعات أخرى حتى يجتمع فيها كمية من الماء . والحقيقة أن البداية
 كما يقال صعبة في كل عمل والا فإن آبار الطائف وقراها - وقد تحصى بالآلوف -
 ليست جميعها سواء في النزارة ، ومنها آبار فائضة لا تنزحها الدلاء ولو تحركت آلاتها
 الرافعة ليلاً ونهاراً ، وقد اقتنع بهذه الحقيقة في أثناء وجودي في الطائف صيف
 سنة ١٣٤٨ صاحب السمو الأمير فيصل بنجل ذي الجلالة الملك عبد العزيز بن
 سعود - ونائبه في الحجاز عند ما يكون الملك في نجد - فأراد أن يشرع هو
 بالعمل ليقنّدي به أصحاب السواني ، وبمث إلى جدة فاستحضر آلة تدار بزيت
 الغاز وأمر بتركيبها على إحدى آبار « شبرا » في أول الطائف ، وما أظن أصحاب
 البساتين إلا مقتدبن بعمله لانه انما عمله لاجل أن يكون قدوة لاغير

هذا وفي لقيم سدود كثيرة للمياه إذا شاهدها الغريب ولم يكن يعلم طبيعة
 الاقليم ظن انها اسوار للحصار ، وحقيقة الحال ان الماء في هذه البلاد عزيز فاذا

جاءت سحابة ملأت، السهل والوعر واسالت الاودية وقد تكون السحابة لم تستمر أكثر من ساعة . ثم تعود الارض فتتسّف كأن لم يصبها نقطة مطر . فأهالي جزيرة العرب من قديم الدهر احتاطوا للامطار بالسدود والحواجز لتحويل المياه إلى أشجارهم وزروعهم ولعدم ذهاب الماء سدى ، ومن هذه السدود ما كان يضرب به المثل وما كانت تحيا به بلدان وقبائل مثل سد مارب مثلاً ، وكيفما تقلب السائح في جزيرة العرب وجد السدود والحواجز والقنى بين كبير وصغير ناطقة بلسان حالها انه يجب احراز المياه بقدر الامكان لانه لا يتيسر هنا في كل وقت ، ولقد صادفنا في جوار الطائف كثيراً من السدود القديمة الخربة ، ولحظنا آثار عمران دراسة ، كانت في أصولها جنانا ناضرة ، ومما لاسمى فيه ان جزيرة العرب ملأى بهذه الآثار ولكن ليس لها كتب تفي بالتعريف عنها إلا ما كان من كتب الهمداني

و « لقيم » موصوفة بجودة الحنطة والحبوب ولذلك جاء في تاج العروس « الحنطة اللقيمة الكبار السروية التي تؤتى من السراة او نسبة إلى لقيم كزبير بلدة بالطائف موصوفة بجودة الر والشعير »

وفي لسان العرب: لقيم اسم رجل ولا أدري اسميت هذه القرية باسم رجل اسمه لقيم ام هي تصغير لقم بمعنى طريق ؟ وقد جاء ذكر « لقيم » في تواريخ الطائف

نقل ابن فهد الهاشمي المسكي المتوفى سنة ٩٢٢ في كتابه (تحفة اللطائف، في فضائل الخبر بن عباس ووجو الطائف) عن كتاب (زيارة الطائف) لابن ابي الصيف مفتي الحرمين ان النبي ﷺ كان قد كتب إلى ثقيف كتابا يحرم فيه صيد وجم وكانت ثقيف تتوارث هذا الكتاب وتبكر به . قال الشيخ ابوالعباس الميورقي الاندلسي في كتابه « بهجة المهج » مايلي : « قل لي تميم بن حمران الثقفي العوفي: قتل ابي رحمه الله تعالى في نوبة قتل الشريف قتادة الحسني لمشايخ ثقيف أهل

بني يسار من قرى الطائف وانتساب الجيش البلاد، ففقد الكتاب في جملة ما بقدها وهو كان عند أبي لكونه شبيخ قبيلته. ثم قال الميورقي بعد ذلك، قال قاضي الطائف يحيى بن عيسى رحمه الله: قتل عيسى أبي في هذه النوبة في قرية لقيم ثلاث عشرة من جمادى الاولى سنة ثلاث عشرة وستائة، وكان موت الميورقي رحمه الله تعالى بعد موت ابن أبي الصيف رحمه الله تعالى بقليل.

قال ابن فهد المذكور: وقد زرت هذه الآثار المباركة مع والذي رحمه الله وذلك في سنة خمس عشرة وتسعمائة خلا البئر والموقف اللذين بناحية « لية » فلم يتيسر لي زيارتهما، ورأيت المسجد الكبير الذي فيه قبر سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما خرب بل سقط بعض اروقته وجدرانها وعربعضها عمارة ضعيفة، وكذلك بناء الآثار النبوية التي في وسطها، وأحدث به قبور لجماعة صاحب مكة السيد الشريف جمال الدين محمد بن بركات بن حسن بن عجلان الحسيني رحمه الله تعالى، منهم أم ولده الفارس الشجاع السيد هزاع، وقاصده إلى الديار المصرية الشريف عنقا ووير الحسيني، وليس بالمسجد جمعة ولا جماعة والظاهر انهما كانا فيه قديماً لوجود المنبر به، وكذلك جميع القرى المتصلة بالطائف فاني لما زرتها في المرة الاولى لم أرها جمعة. ثم ان الجناب العالي القاضي نور الدين علي بن خالص المغربي المالكي النائب بمكة بعد المقر الحسامي الامير حسين الكردي الاشرفي لما توجه الى جهات الهند لقتال الافرنج المخذولين امر اهل الطائف بصلاة الجمعة وذلك باشارة سيدنا العلامة المفيد رئيس الحكماء نور الدين احمد بن محمد بن خضر القرشي الكازروني الشافعي فجمعوها في سنة خمس عشرة وتسعمائة واستمرت الى ان زرت الزيارة الثانية في السنة التي بعدها وهي موجودة بعد ذلك في غير المسجد الكبير الذي فيه قبر سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، فانه منفرد عن القرى وسط التربة يصعب على اهل البلد التوجه اليه لبعده عن بعضهم وكونهم لا يسمعون النداء منه والله الامر من قبل ومن بعد اه

(قلت) هذا قد كان يوما من الايام فأما الآن فالجماعة تقام في مسجد ابن عباس المعمور- ويصلي فيه اهل الطائف وقراها وفي أيام الصيف عندما يكون اهل

حكمة في الطائف يجتمع فيه نهار الجمعة الوف مؤلفة ثم جاء في كتاب (اهداء اللطائف من اخبار الطائف) للعجمي المكي ان في لقيم قبور بعض الصحابة والله أعلم ومن ذكر « لقيم » الاخ الفاضل المؤرخ السيد خير الدين الزركلي الشاعر الشهير ، فقد أتى على ذكر قرى الطائف باجمعها مما لم يرد مجموعاً ولا في كتاب . ويكفيه أن أبا محمد الحسن بن احمد الهمداني صاحب « صفة جزيرة العرب » الذي لم يؤلف أحد في بابيه مثله وصاحب كتاب الاكامل الشهير قد ذكر طرفاً من قرى الطائف لكنه لم يوفق إلى الاستقصاء الذي استقصاه الخبير الزركلي فهو يقول عن لقيم ما يلي :

« لقيم واد طويل خصيب يجتاز في أقل من ساعتين أوله مزارع الشدايين بحد الملبساء ، وآخره قرية الصفاة على ما يزعمون ، وعندي أن آخره جبل رغاف . وهو كثير القري والمزارع وقد اتيت على اسمائها في مواضعها . وفي كتاب العجمي ان لقيما قرية كبيرة مشتملة على بساتين ومزارع وأبار . ثم قال وهي مسكن جماعة من ثقيف يقال لهم الحمدة ، وقد قتل صناديدهم الشريف زيد بن محسن في حدود سنة ١٠٤٠ لخروجهم عن طاعته اه . والذي صح عندي أن جماعة ثقيف يسكنون قرية الملبساء وقد تدعى باسم الحمدة الذين ذكرهم العجمي لسكنائهم بها إلى الآن أما لقيم ففيه من ثقيف وغيرها من قبائل العرب عدد غير قليل منتشرون في مزارع هذا الوادي وقراه . وأما اطلاق اسم القرية عليه فلا أعلم له وجهاً إلا ان كانت فيه قرية تدعى لقيما تغير اسمها بعد زمن العجمي وأطلق الاسم على الوادي كله « اه قلت : المعروف الآن أن لقيما هي هذه البيوت التي تمر بها تارة تراها عن يمينك وتارة عن شمالك قبل دخولك إلى الطائف . فأما الحدود الاصلية للقيم فلم استعلم عنها ولعلها كما قال الفاضل الزركلي

وقرأت مرة في أحد كتب الادب ابياتاً لرجل اسمه اللقيمي نظمها لتنقش على قبره وضمنها بحساب الجمل تاريخاً يوافق سنة ١١٧٨ وآخر هذه الايات هو هذا
 ماذا ثوى قبر اللقيمي ارحوا مستمنح للعفو أسعد مصطفى
 هذا ما حضرني من أمر لقيم ولا بد لي من أن أردفه بهذه النادرة لوقوعها فيها :

الامن الشامل في بلاد الملك العادل

الإمام عبد العزيز السجستاني

كنت صاعداً مرة من مكة الى الطائف وكانت معي عبادة احسانية سوداء جعلتها وراء ظهري في السيارة فيظهر انها سقطت من السيارة في أرض لقيم، ولم ننتبه لها، فأخذ الناس يبرون فيرون هذه العبادة ملقاة على قارعة الطريق فلا يجروا أحد أن يمسها، بل شرعت اقوافل تنكب عن الطريق القيم عمداً حتى لاتمر على العبادة خشية انه اذا أصاب هذه حادث يكون من مر من هناك مسؤولاً، فكانت هذه العبادة على الطريق أشبه بأفئدة الناس منها، بل لو كانت نمة أفئدة ما تجنبوها هذا لتجنب كله؟ وأخيراً وصل خبرها الى أمير الطائف محمد بن عبد العزيز من سلالة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فأرسل سيارة كهربائية من الطائف أنت بهاء وأخذ بالتحقيق عن صاحبها فقبل له اننا نحن سررن من هناك وان الارجح كونها سقطت من سيارتنا، فجاء الامير ثاني يوم يزورنا وسألنا: هل فقدت لكم شيء من حوائجكم في أثناء مجيئكم من مكة؟ فأهبت برقي ليفتقدوا الحوائج فافتقدوها فاذا بالعبادة السوداء مفقودة وكنا لم ننتبه لفقدانها، فقلنا له: عبادة احسانية قال: هي عندنا وقص علينا خبرها

وقد أنيت على هذه النادرة هنا مثلاً من أمثال لا تمد ولا تحصى من الأمن الشامل للقليل والكثير في أيام ابن سعود لما لم تحدث عن مثله التواريخ حتى اليوم. فالمكان الذي سقطت فيه العبادة كان في الماضي كثيراً ما تقع فيه وقائع السلب والقتل ولا يمر الناس فيه إلا مسلحين. فأصبح اذا وجدت نقطة هناك على قارعة الطريق تجنب الناس الطريق لثلايتهم وهاجها اذا فقدت، وكل يوم يأتي الشرطة والخبراء والمحققون بلفظ وحاجات ضائعة مما فقدته السفار أو سقطت بدون انتباه عن الاكوار وذلك الى دائرة الامن العام فتبحث عن أصحاب هذه اللقطات وتردها لهم بتمامها بما يقضي بالعجب وإنك لتجد هذا الأمن ممدود الرواق على جميع البلدان التي ارتفعت فيها

رأية ابن سعود من منجد. ومتهم ومعرق ومشتم بدون استثناء ، وقد علل بعضهم هذا التأمين البليغ للسوابل بأنه من أركان عقيدة الوهابيين الذين يقولون :

وما الدين إلا أن تقام شعائر وتأمين سبل بيننا وشعاب

قلت أياً كان السبب في هذا الأمان فإنه نعم العمل ولا يوجد معنى للحكومة إن لم تكن أول ثمراتها الأمان والعدل ، ولو لم يكن من مآثر الحكم السعودي سوى هذه الأمانة الشاملة الوارفة الظلال، على الأرواح والأموال، التي جعلت صحاري الحجاز وفيافي نجد آمن من شوارع الحواضر الأوروبية. لكان ذلك كافياً في استجلاب القلوب إليه، واستنطاق اللسان في اثناء عليه ، فايوم نجد الناجر والفلاح، والحادي والملاح، والحاج القاصد على الضواصر أو على الجواري المنشآت بالدر والالواح ، يتحدثون بنعمة هذا الامن الذي أنام الانام بلاء الاجفان ، وجعل الخلق يذهبون ويحيثون في هاتيك الصحاري ، وقد يكون معهم الذهب الرنان، وهم بلا سلاح ولا سنان، فلا تريد من هذه الجهة مزيداً وإنما نرجو لهذه النعمة الدوام، فلا عمران للبلاد إلا بالأمان والاطمئنان

ذكر أمير الطائف الملقب بالصحابي

ليس أمير الطائف المشار إليه هو المنفرد بمزية الضبط والربط في الامارة التي عهد بها إليه ، بل هذه الحلية عامة للامارات والولايات التي يظللها لواء ابن سعود كلها ، إلا ان أمير الطائف محمد بن عبدالعزيز... بن عبد الوهاب وهم يقولون ابن الشيخ- هو نسيج وحده في أخلاقه وتقواه وورعه، ونقاء سريرته وزكاه سيرته، فقد ندر أن ينعقد الاجماع على حب وال انعقاده على حب أمير الطائف الذي لم أسمع من أحد من أهالي هذه البلاد- حضرها وبرها- إلا نعمة واحدة بحقه، وهي الثناء الجميل ، ولحسن أخلاقه واستقامة طباعه ينقبونه « بالصحابي » وقد أقمت بالطائف زهاء أربعة أشهر وهي مدينته صغيرة لا يخفى فيها شيء فاعرفت عن هذا الملقب بالصحابي إلا ما ثبت لهذا الرجل مثل أخلاق الصحابة، أكثر الله من أمثاله

الكلام على الطائف

اول ما يدخل الانسان إلى الطائف، بل أول ما يطل على لقيم يشعر بالسرو و
وينشرح صدره انشراحاً لا يعده إلا في النادر من البلدان .

نقل عن الاصمعي انه قال: « دخلنا الطائف فكأنني كنت أبشر وكان
قلبي ينضح بالسرور ولا أجد لذلك سبباً إلا انفساح حدها وطيب نسمتها »

قلت أما انفساح حدها فانها في بسيط من الارض أفصح، يسرح فيه النظر
ما شاء أن يسرح، وحولها بعض جبال عالية ترى من بعيد، وأهاضيب ترى من
قريب، وجميعها لاتغم الطائف في شيء، وهي مع هذا الانفساح والانزاج
والاستواء في الارض تملو نحو ألف وسبعمائة متر عن سطح البحر، وأما طيب
الذمة فانك تحس فيها من الاتعاش وسعة التنفس مالا تشعر به في مكان،

وقد كان أصابني في سويسرة زكام في شعب الرثة لعل أصله من البرد، فكان
يضيق به نفسي كثيراً لاسيما اذا استطل الشغل، فما مضى علي في الطائف إلا
قليل حتى ذهب هذا الزكام بتمامه وصار الهواء يجري في رئتي كأنه في صحراء،
ولما رجعت الى أوربة قال لي الاطباء بعد المعاينة انه لم يبق هناك أثر لشيء يقال
له زكام في شعب الرثة، ولم يكن هذا بأول فضل للطائف علي، بل هواء الطائف
هو الذي شفاني باذن الله - بل الله هو الذي شفاني به - من الضعف الذي كنت
منه على شفا، فلا عجب فيما رواه ابن عراق من انهم كانوا يغبطون من يصيف
بالطائف . وفيما يروى عن معاوية بن أبي سفيان من قوله: أنتم الناس عيشاً من
يقبض بالطائف ويشتم بمكة ويربع بمكة .

وقال الفاكهي في تاريخ مكة : كان للطائف خطر عند الخلفاء فيما مضى .
وكان الخليفة يوليها رجلاً من عنده ولا يجعل ولايتها الى صاحب مكة

ووجد بخط الشيخ أحمد العبدري الميورقي المتوفى سنة ٦٧٨ انه وقع الكلام
في ترجيح سكني الحجاز على سائر الآفاق، ثم وقع الترجيح بين نواحي الحجاز

ومكة والمدينة فوقع الاتفاق على ان الطائف أقرب للسلامة والسنة، لمدم مصاحبة أهل الاهواء ورؤية من يقسي القلب من ذوي الاطماع . ولم تزل الطائف مصيفا لمكة جاهلية وإسلاما الى يومنا هذا ، وهي في نظري حارة من مكة خاصة بأيام الصيف ولا غنى لمكة عنها

أول ما يستقبل الانسان من الطائف هو قصر شبرة الذي يخص الاشراف ذوي عون ، وهو قصر شاهق حوله بستان طويل عريض هو أكبر بستان في الطائف . وجميع الاراضي التي هناك على مسافة بعيدة هي من مضاف القصر . وقد بنى إلى جانبه الشريف علي باشا أمير مكة سابقا - وهو مقيم الآن بمصر وعهدي به - يكن بجوار قصر القبة بضاحية الزيتون من ضواحي القاهرة - قصراً بديما ملوكيا أنفق عليه عشرات الألوف من الجنيهات لجاء أختم بنية في الطائف بل في جميع الحجاز وفي هذا القصر نزل السلطان وحيد الدين محمد السادس آخر سلاطين بني عثمان عندما جاء إلى الحجاز بعد خلعه وذلك بدعوة الملك حسين ابن علي الذي كان صاحب الحجاز وقتئذ .

وعندما يصيف في الطائف الملك عبد العزيز بن سعود صاحب الحجاز ونجد وملحقاتهما يكون نزول جلالتهم بهذا القصر.

ولقد سمي الاشراف ذوو عون هذا القصر بشبرة على اسم شبرة الشهيرة بمصر (١) وذلك والله اعلم لان أمراء مكة المشار اليهم أصدقاء من قديم الزمان لأسرة محمد علي الجالسين على سرير الكرامة .

وسبب هذه العلاقة القديمة هي انه لما هاجم الوهابيون الحجاز في القرن الماضي واستولوا عليه كان يلي الامر فيه الاشراف ذوو زيد وجميع هؤلاء الاشراف سواء من ذي زيد أو من ذي عون أو من ذي ناصر أو من فروع آخر

«١» شبرا مصر تكتب بالالف قال في القاموس : وشبرا ككسري ثلاثة وخسون موضعا كلها في مصر وقد بين شارحه الزبيدي مواضعها ولكنه كتبها بالالف العمودية « شبرا » كما يكتبونها في مصر الى اليوم

عديدة يجتمعون في الحسن بن أبي نمي من ذرية الحسن بن علي رضي الله عنهما (١) .
وقيل لي ان عددهم في الحجاز يزيد على عشرة آلاف ، إلا ان فرعا منهم
انفرد بالامارة في خبر لو اردنا شرحه يطول جداً هو فرع ذي زيد نسبة للشريف
زيد بن محسن أمير مكة في حدود سنة ١٠٤٠ وهؤلاء الذين منهم الامير عبد
المطلب الذي ولي إمارة مكة ثلاث مرات والذي حفيده الامير علي حيدر باشا
وقد ولته الدولة الامارة في أيام الحرب بعد ان ثار عليها الشريف حسين بن علي
وتلقب ملكاً ، فصار هذا الفرع الذي يقال له ذوو زيد أشبه بالبوربون ملوك
فرنسة بجمعهم وآل اورليان نسب آل « كائيت » الا ان الملك منحصر في آل
بوربون وبقي الامر كذلك في فرنسة الى ان سقط شارلس العاشر سنة ١٨٣٠
فتولى الملك بعد لويس فيليب من آل اورليان .

وهكذا كانت امارة الحجاز منحصرة في ذوي زيد الى ان استولى الوهايون
على الحجاز ، وعجزت الدولة عن اخراجهم منه فرمتهم بمحمد علي والي مصر الذي
جرد عليهم الجيوش وابث قاتلهم نحو عشر سنوات إلى أن أخرجهم من الحجاز ،
فكان اقتراحه على الدولة اخراج إمارة الحجاز من ذوي زيد وتولية أمير من
غيرهم من الاشراف . فتلكأت الدولة بادية ذي بدء عن اجابة طلبه الا انه
مازال يلح بذلك ويبرم إلى ان تمكن من تولية الشريف محمد بن عون أميراً
على مكة ، ومن ذلك الوقت صارت الامارة مداولة بين الفرع بن ذوي زيد
وذوي عون بعد ان كانت منحصرة في الفرع الاول .

« ١ » هو الحسن بن أبي نمي محمد بن بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن
عجلان بن ربيعة بن أبي نمي محمد بن أبي سعيد الحسن بن علي بن قتادة بن
ادريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن
عبد الله بن محمد بن موسى ابن عبد الله المحض بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط
ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رض) وكانت وفاة الحسن بن أبي نمي سنة
عشر بعد الالف اه من الاصل

وقد كان يحدثني في الاستانة بهذه الامور التاريخية الشريف عبد الاله باشا أخنو الشريف عون الرفيق باشا الذي كان تولى اماره مكة أكثر من ٢٠ سنة في أيام السلطان عبد الحميد، وهو عم الملك حسين . وقد تولاهما الشريف عبد الاله نفسه أيضا عند وفاة أخيه لكنه توفي إلى رحمة ربه قبل ان يبرح الاستانة. وكان الشريف عبد الاله رحمه الله ذامقام سام في عاصمة آل عثمان ، وكان على خلق عظيم لا يعرفه أحد إلا بالغ في اجلاله ، وقد كنت كثيراً أسمر عنده وكان له إلى ميل أكيد وبي ثقة شديدة ، فقلما كان يسترسل في الكلام السياسي في مجالسه الا أمامي . وكان يحدثني اذا خلا المجلس بقصص كثيرة من جملتها هذه القصة وهو ان محمد علي باشا جد الاميرة المملوكية بمصر هو الذي نصب والده محمد بن عون أميراً على الحجاز وهو الذي وهبته الاراضي التي لهم في مصر وهو الذي أولاهم تلك النعم الجسام

ومنذ أصبحت اماره الحجاز بين هذين الفرعين اشتد الخلاف بينهما كما هو بديهي . وقد اختلفا في كل شيء الا في بئر واحد وهو أنهم جميعا اتفقوا على الاستثمار باحسن الاراضي وأجل المواقف في ذلك القطر، ولا سيما الطائف ونواحيها وقد يكون ذلك خيراً للبلاد لانهم بمكانهم من الامارة أقدر على العمارة والتأثيل من غيرهم

ففي الطائف المياه كلها ترفع بالسواني وليس في البساتين إلا آبار مركبة على أفواهاها الدواليب . والماء الجاري من نفسه هناك انما هو عينان غزيرتان لاغير احدهما عين سلامة والاخرى عين المثناة

فاما عين سلامة فهي تخرج في قرية بهذا الاسم هي الآن حارة من حارات الطائف واقعة على جانب الوادي الذي يقال له وج . قل الحمداني في صفة جزيرة

العرب « وفي قبلة الطائف حائط أم المقتدر الذي يدعى سلامة » فيظهر انه كان لام الخليفة المقتدر هناك بستان يسقى بهذه العين
وقال ياقوت في معجمه « السلامة بلفظ السلامة ضد العطب قرية من قرى
الطائف بها مسجد للنبي ﷺ ، وفي جانبه قبة فيها قبر ابن عباس وجماعة من
أولاده ومشهد للصحابه رضي الله عنهم »

وقال الشيخ حسن العجمي المكي في كتابه اهداء اللطائف « ومنها قرية
السلامة وهي كثيرة البيوت والبساتين وبها عين ولا أعلم متى كان ابتداء عمارتها
إلا انها كانت معمورة في أوائل القرن التاسع . وبها كان ينزل أعيان مكة
وفضلاؤها بل غالب أهلها ثم خربت في حدود الثمانين وتحول أهلها عنها ولم يبق
منهم إلا القليل الخ »

وقال الخدير الزركلي حفظه الله في « مارأيت وما سمعت » : سلامة قرية
محاذية للطائف من جهة باب ابن عباس كثيرة البيوت بعضها عامر وبعضها خرب ،
سكانها قليلون من قریش وغيرها . ثم قال : هي الآن في ظاهر البلدة يفصل
السور بينها وبين قبة ابن عباس . ثم قال : ان الشريف سروراً نزل بها سنة ١١٩٣
وهذا دليل على انها كانت عامرة لعده . انتهى . والشريف سرور هو جد الشريف
عبد المطلب جد ذي السمو الامير علي حيدر نزيل بيروت اليوم

فعين سلامة هذه جرّها الامراء ذوو عون الى شجرة على مسافة نصف ساعة.
وتركوا منها مشارع لورود الاهالي وأحدثوا عليها هذا البستان البديع الذي
حول ذلك القصر

وأما المنشاة فهي على مسافة ثلاثة أرباع الساعة من الطائف نحو الغرب وتعد
أجل مزرعة في الطائف : وادي وج الشهير على جانبيه البساتين والجنان الغناء
مشتبكة اشتباك الغاب الاشب وعين ماء مجرورة بقنى تحت الارض من مسافة

ساعة ونصف من ناحية جبل برد (بالتحريك) أعلى جبل في أرض الطائف . وهذه العين هي أغزر عيون تلك البلاد تصب في الثانية ٤٤ ليبرة ويسقى منها نحو ٤٠ بستانا في المنشأة ثم تنحدر فضلة المياه صوب الطائف ، وجميع هذه البساتين وما فيها من قصور وأبراج تخص الاشراف ذوي زيد ومنها شيء لاشراف آخرين يقال لهم الشنابرة ، وفي هذه المنشأة من الفواكه من العنب والسفرجل والوخ الذي يقال له في الشام الوراقن ويقال له في اليمن والحجاز الفرسبق ماهو من الطبقة العليا في نوعه

ويلفظون « المنشأة » بالياء المثلثة وكنت ظننتها من غلط العوام وان أصلها المسناة بالسین المهملة . وذلك أنه يقال ان القوم يسنون لأنفسهم اذا استقوا ويقال السحابة تسنو الارض أي تسقيها فقد تكون بمعنى مكان السقيا . وأقرب من هذا ان تكون مخففة من « المسناة » وهي السد الذي يعترض الوادي حتى لا تنطفئ مياهه على الارض ، وفي لسان العرب : المسناة ضفيرة تبنى للسيل لترد الماء سميت مسناة لان فيها معامخ للماء بقدر ما يحتاج اليه مما لا يغلب مأخوذ من قولك سنيت الشيء . والامر اذا فتحت وجهه اه

وفي فتوح البلدان للبلاذري المتوفي سنة ٢٧٩ مايلي « فلما كان زمن قباذ ابن فيروز انبثق في أسافل كسكر بثق عظيم فاغفل حتى غلب ماؤه وغرق كثيراً من أرضين عامرة وكان قباذ واهنا قليل التفقد لامره ، فلما ولي أنوشروان ابنه أمر بذلك الماء فردم بالمسنيات (جمع مسنة) حتى عاد بعض تلك الارضين الى عمارته » انتهى وفي أول المنشأة من جهة جبل برد سدود على وج هي على هذه الصفة مما جعلني أفكر في أن المسناة هي بالسین لا بالياء . إلا أن أهل الحجاز باجمعهم يقولون « المنشأة » وتوارىخ الطائف كلها تذكر المنشأة بالياء . وإذا رجعنا الى كتب اللغة لا نجد مناسبة بين معنى لفظة « المنشأة » وهذا المكان ، فقد قالوا : المنشأة الجبل من

الصوف أو من الشعر مطلقاً : و نقلوا عن عبد الله بن عمر من اشراط الساعة «أن
توضع الاخيار ، وترفع الاشرار ، وأن يقرأ فيهم بالمشناة على رؤوس الناس ليس
أحد يغيرها : قيل وما المشاة ؟ قال ما استكتب من غير كتاب الله» (١) كأنهم جعلوا
كتاب الله مبدأً ، وهذا متنى : فأنت ترى انه لا هذا ولا هذا فيه شيء من
ملابسة معنى بستان أو جنة ، أو واد ذي زرع : وأما قولهم مثاني الوادي ، بمعنى
معاطفه ، واحناؤه فهو جمع ثني - بكسر فسكون - لا جمع مشناة

قل في لسان العرب : وفي الصحاح في تفسير المشاة قال : هي التي تسمى بالنارسية
دوبيتي وهو الغناء (٢) وهذا أبعد عن ذلك المعنى أيضاً . وقد جاءت معان كثيرة
للمثنى بالتذكير وكلها أيضاً بعيدة عن هذا المعنى . وعلى كل حال فلسنا هنا في المثني
بفتح فسكون وانما نحن في المشناة ، ولم يبق إلا أن نردها إلى اسم مكان من فعل
ثنى بمعنى عطف أو حنا كأَن تكون بمعنى منحني الوادي ، أو أن نردها إلى اسم
مكان من ثنى بمعنى صيره ثنياً لأن النهر سقى المزرعة نصفين اثنين . أو أن
يكون أصلها من الثناية بمعنى الفلاحة والزراعة ، ولكن الثناية بمعنى الفلاحة
والزراعة لم يرد منها اسم مكان ، ثم انها لم ترد بهذا المعنى إلا عن ابن الاثير في
تفسير حديث قتادة : كان حميد بن هلال من العلماء فأضرت به التناوة أو
التناية . والعامية عندنا في جبل لبنان تستعمل « التناية » بمعنى الفلاحة أيضاً ،

(١) التحقيق ان المشناة هذه تعريب المشناة أو المشنة بالعبرية وهي الشريعة التي وضعها
اليهود بعد السبي باجتهادهم أو ابتعادهم وبلها الجهمارة وهي الشريعة الشفوية لهم والتقاليد
العملية وهما أصل التلمود وفسرها في القاموس : بقوله كتاب فيه اخبار بني اسرائيل احو
فيه وحرروا ماشاءوا — او هي الغناء او التي تسمى بالفارسية دوبيتي

« ٢ » دبت في الفارسية معناه بيتان لا الغناء فان « دو » اسم لعدد الاثنين قال شارح
القاموس بعد ما تقدم أفا وقوله دوبيتي بالفارسية ترجمة الاثنين والياء في بيتي للوحدة
او للنسبة وهو الذي يعرف في المعجم بالمشنوى كانه نعمة الى المشاة هذه

لكن لا مطلقاً، بل يقولون ثناية للوجه الثاني من حرث الارض . والأظهر أن أصل المثناة بالثاء لا بالباء

بقي علينا وجه ثانيل آخر وهو أن تكون من (تنأ) أقام . وقد سهلوا الهمزة فصارت (ذنا) وجاء منها اسم مكان (المثناة) أي محل الإقامة — وأهمري لنعم محل الإقامة هي — ثم ان العامة حرفتها من انتاء الى اشاء . فهذا كل ما يخطر لي من جهة هذه اللفظة

ثم اني لما عزمت على الكتابة عن الطائف — وكان باغني أن في المكتبة التيمورية بمصر بعض تأليف عن الطائف ووج — كتبت إلى ذلك العالم الفاضل الكبير، الذي من أي الجهات اعتدته فهو أمير، أحمد باشا تيمور قدس الله روحه ونور ضريحه، أرجو منه إذا كانت عنده كتب في هذا الموضوع أن يأمر لي باستنساخها على نفقتي ، فكان منه انه لم يتض على رجائي هذا خمسة عشر يوماً حتى جاءني منه ٤ تأليف في هذا البحث مصورة بالفوتوغرافية بالمطبعة السافية الشهيرة ، ومجلدة تجاميداً مذهبا ، وهذه الكتب هي (إهداء الطائف، من اخبار الطائف) تأليف الشيخ حسن بن الشيخ علي العجمي المكي الحنفي من علماء أواخر القرن الحادي عشر . و (تحفة الطائف، في فضائل الخبر ابن عباس ووج والطائف) للشيخ محمد جار الله بن عبد العزيز بن عمر بن محمد الشهر باين فهد المتوفى سنة ٩٢٢ و (نشر الطائف، في قطر الطائف) لابن عراق من المتأخرين وهو الشيخ نور الدين علي ابن محمد بن عراق الشامي . و (رسالة في فضائل سيدنا ابن عباس والطائف) للشيخ محمد بن عبد الكريم القنوي الذي كان في أواسط القرن الثاني عشر

وتكرم رحمه الله بارسال بطاقة أنيسة ، مع هذه الهدية النفيسة، قابله عليه بكتاب شكر طائل أودعته ما خطر ببالي من جهة لفظه (المثناة) او (المسناة) فأجاني مستحسن ما رأيته إلا أنه قال : ان روايات الكتب المؤلفة عن الطائف

متفقة على كونها بالباء ، فضلاً عن تلفظ أهالي الحجاز بها بالباء أيضاً . وقد كان كتاب تيمور باشا هذا من آخر ما خطه قلمه لان انصاب بوفاته رحمه الله وقع بعد تاريخ المکتوب بخمسة عشر يوماً

ويمتد وقف الاشراف ذوي زيد من المنشأة إلى نفس الطائف بمحطان وبساتين منتظمة بلبه وج ، متابعة له إذا استوى أو إذا اعوج ، وهي من انزه ضواحي تلك البلدة وألطفها وإن أشهرها سانية (حوايا) ذات الصريح الكبير ، والروض النضير ، وبالاختصار كيفما توجه الانسان في الطائف بل في الحجاز كله بين تهايمه ونجوده وبواديه وحواضره بمجد الاماكن الشريفة الاشراف . ففي لقيم اشرف الاماكن للاشراف ، وفي وادي لية اشرفها للاشراف ، وفي وادي وج اشرفها للاشراف ، وفي وادي فاطمة الذي بقرب مكة يمتد بساكنه ١٥ ساعة احسن البقاع للاشراف . وهلم جراً

أما ان الطائف هو قطعة من الشام جعلها الله في الحجاز ، وما ورد في ذلك من الآثار والاحاديث المنقولة في التواريخ التي اطلعنا عليها ، وفي غيرها مما لم نطلع عليه ، واطلع عليه الاخ الزركلي ككتاب «عقود اللطائف في محاسن الطائف» لشيخ عبد القادر الفاكهي المكي المتوفى في أواخر القرن العاشر ، وكتايب الشيخ احمد بن علي العبدري البورقي الاندلسي ثم الطائفي الوجي مسكناً المتوفى سنة ٦٧٨ بعد ذهاب وطنه ميورقة بخمسين سنة ، فكل هذا نحن نحمله على الحجاز . وذلك اننا إذا قلنا زيد أسد فلا يكون المراد انه هو هذا الحيوان المفترس ، بل انه في شجاعته كالأسد : وإذا قلنا زيد بحر ، فلا يكون المعنى انه هو هذا الماء الكثير المتلاطمة امواجه ، وإنما هو كناية به عن الكرم ، أو العلم ، أو الحلم . وإذا قلنا زيد جبل فما يراد بذلك إلا المتانة ، والرصانة ، والثبات . وإذا نظرنا الى الحديث الشريف « ان من البيان لسحراً ومن الشعر لحكمة » لم يمكننا تأويل ان من

«البيان لسحراً الا بالمعنى المجازي كما لا يخفى، وذلك بأن من البيان ما يستولي على العقول ويأخذ بالالباب، لانه هو من السحر المحرم وهكذا حديث «إن الطائف قطعة من الشام جعلها الله في الحجاز» أو ماهو بمعناه لأفهمه إلا على هذا الوجه وهو أن الطائف وارضها شامية في فواكهها ونمراتها وعذوبة مائها وبرودة هوائها، ومن هناك لم يبق حاجة لآرياء بعض المفسرين العنان لتخييلاتهم في كيفية اقتلاع بلاد الطائف من ارض الشام ووضعها في الحجاز.

هذا زائداً الى أن أكثر هذه الاقوال هي آثار وأخبار ليست من الاحاديث المقطوع بها : ونحن نعلم أن الاحاديث المتواترة التي لا يتطرق الشك الى صحة تلفظ النبي ﷺ بها هي احاديث معدودة وأن الاحاديث مهما جاءت على شروط الصحة والشبوت المعروفة عند المحدثين فلا يزال مجال للقول في اسانيدها واسعاً . لان الكلام اذا نقله واحد عن واحد فلا بد أن يتغير فيه شيء بالزيادة أو بالنقصان أو بتغيير لفظة بلفظة مهما كان البقل قوي المذاكرة : ولقد ثبت أن أكثر الاحاديث مروى بالمعنى :

ولقد ثبت أيضاً أن سيدنا عمر رضي الله عنه كره كتابة الاحاديث خوفاً من الزيادات عليها واكتفاء بكتاب الله المنزل الذي حفظه الالوف من الصحابة واتفقوا عليه . وقد ثبت أيضاً أن جماعة من أكابر الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا يحدثون عن رسول الله ﷺ مع طول صحبتهم له جاء في الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد رواية عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال (أي عبد الله بن الزبير) قلت للزبير : مالي لأسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان قال : اما اني لم أفارقه منذ أسلمت ولكنني سمعت رسول الله ﷺ يقول « من كذب علي فليتبوأ مقعداً من النار » قال وهب بن جرير في

حديثه عن الزبير : والله ما قال « متعمداً » وأنتم تقولون « متعمداً » أي ان بعض المحدثين زادوا لفظة « متعمداً » فانظر إلى هذا الحديث الشريف على قصره لم يخل من زيادة لفظة (١)

وجاء في الطبقات عن السائب بن يزيد انه صحب سعد بن أبي وقاص من المدينة إلى مكة قال : فاستمعته يحدث عن النبي ﷺ حديثاً حتى رجع ثم جاء عن يحيى بن عباد عن شعبة انهم دخلوا على سعد بن أبي وقاص فسئل عن شيء فاستعجم فقال : أي أخاف أن أحدثكم واحداً فتزيدوا عليه المائة

وجاء في الطبقات الكبرى لابن سعد عن عمرو بن ميمون قال اختلفت إلى عبد الله بن مسعود سنة ماستعته يحدث فيها عن رسول الله ﷺ ولا يقول فيها : قال رسول الله ﷺ الا انه حدث ذات يوم بحديث فخرى على لسانه : قال رسول الله ﷺ . فعلاه السكرب حتى رأيت العرق ينحدر عن جبهته ثم قال : ان شاء الله اما فوق ذاك واما قريب من ذاك واما دون ذاك

فهذا شأن عبد الله بن مسعود في الحديث وهو هو أحد العبادلة الأربعة ومن أروع الصحابة وأشدهم ملازمة لرسول الله ﷺ كما لا يخفى وذلك كان شأن سعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام في هذا الامر وهما من العشرة المبشرين بالجنة . وذلك كان مشرب الامام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو الذي قيل ان رسول الله قال فيه : « لو كان نبي بعدي لكان عمر » فكيف ينبغي للناس

(١) الحديث متواتر تواتراً صحيحاً بهذه الزيادة ومن رواها عن الزبير نفسه الامام احمد والبخاري وابوداود والنسائي وابن ماجه فلا عبرة بانكار وهب بن جرير لها عنه فالقاعدة ان من حفظ حجة على من لم يحفظ، وهب هذا قد تكلم فيه بعض رجال الجرح والتعديل فقال ابن حبان كان مخطياً وأنكر عبد الرحمن بن مهدي والامام احمد مارواه عن شعبة الخ

بعد ذلك أن يتكثروا من الاحاديث وهم يعلمون ماقد يتطرق اليها من زيادات الرواة وما قد نقل منها بالمعنى (١)

قال صاحب «تحفة اللطائف» قال الزهري ان الله عز وجل نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة خايله اراهيم عليه السلام (وارزق أهله من الثمرات) والله تعالى يقدر أن ينقل إلى الطائف قرية من الشام كما انه يقدر أن يجعل الطائف في خواصها قرية من قرى الشام ، ويرزق أهل ذلك الوادي المقدس مكة من ثمراتها . فاما كون الرسول ﷺ قد ألحق الطائف بمكة والمدينة وحرم لها حرما وقال « لا يختلى حلاها ولا يعضد شجرها ، ولا ينفر صيدها » وانه قدس وادي وج ، فان الاحاديث كثيرة في هذا المعنى ، والدليل على صحتها كون الفقهاء أجمعوا على كراهية الصيد في وج ومنهم من قطع بتحريمه ، وربما كان الاكثرون على التحريم المات ، وقيل في كلام الشافعي : أكره صيد وج . انبأ كراهة تحريم . وعلى كل حال متفق على النهي عن الصيد في وج ، ومختلف في مجرد الكراهة او التحريم كما انه مختلف في أمرها ضمان وعدمه مما أفاض في موضوعه أصحاب التواريخ المار ذكرها . ومع كل هذه الاحاديث بقي أناس لا يطعمئون الى روايات النهي عن صيد وج فقد نقل صاحب « تحفة اللطائف » عن المبورقي انه سأل الشيخ محمد بن عمر القسطلاني امام المالكية في وقته : هل رأيت في مذهب مالك مسألة في صيد وج في الطائف ؟ فقال : لا أعرفها ولا يسعني أن أفتي بتحريم صيدها إلا بالحديث ، ليس فيها من الاحاديث التي يبتني عليها التحريم والتحليل (٢)

« ١ » قد كتب الينا الامير سؤالا في هذه المسألة — رواية الحديث — فاجبنا عن سؤاله في التار بما علم به قصورا في طبقات ابن سعد وما هو الحق في المسألة فليراجع ذلك من شاء في صفحة ٥٠٧ — ٥١٦ من المجلد التاسع والعشرين (٢) قال النووي في شرح المذهب : واما حديث صيد وج « فرواه البيهقي بإسناده عن الزبير بن العوام (رض) ان رسول الله ﷺ قال « الا ان صيد وج ونصاهاه يعني شجره حرام » وذلك قبل زواله الطائف وحصاره ثقيفا لكن اسناده ضعيف قال البخاري في تاريخه لا يصح ، ثم ذكر الخلاف في وج هل هو واد بالطائف او بلد

موقع الطائف وهواؤها وماؤها

وأما فضل الطائف في صقعها وجودة ماؤها وهواؤها فهو مما تواترنا عليه المحسوس والمأثور ، ولست بمستغرب قول بعض المفسرين لقوله تعالى (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) إن المراد بالقريتين مكة والطائف . وكذلك أنا استحلي مارواه صاحب تحفة الطائف من قول بعضهم ان الطائف من تعاليق مكة . أي من مضافاتها . وعندنا في بر الشام إذا بنيت قرية في طرف قرية نسبت إليها ، وقيل إنها « معلقة » لها فيقال مثلاً « معلقة زحلة » و « معلقة الدامور » وهلم جرا . فما أجدر الطائف بأن يقال لها « معلقة مكة » ولعمري لنعم المعلقة هي . ولا نزاع أنهما في الامصار كل المعلقات السبع في الاتحار . ومن الحديث النبوي المأثور « الطائف من مكة ومكة من الطائف » كررها ﷺ ثلاث مرات وقد جاء في بعض الاحاديث التي نقلها الميورقي ورواها العجيمي صاحب « اهداء الطائف » ان الطائف من مكة ومكة من الطائف ، ونقل الميورقي عن سطيج : انه ستكون قن في آخر الزمان خير الناس في ذلك الزمان من كان بمجدرات الطائف إلى عرقوب بحيلة ، قال الميورقي انه حديث ضيف ، وقال العجيمي الا انه يشهد له حديث الترمذي عن عمرو بن عوف قال قال رسول ﷺ « ان الدين لنأرز الى الحجار كما تأرز الحية إلى جحرها » قل في القاموس : والحجاز مكة والمدينة والطائف ومخاليفها كأنها حجزت بين نجد وتهامة انتهى .

قلت وزاد صاحب تاج العروس اللمامة فقال انها من الحجاز ، وقال في شرح قوله انها حجزت بين نجد وتهامة : أو بين الغور والشام والبادية أو بين الغور ونجد ، ثم قال صاحب القاموس : أو بين نجد والسراة أو لانها احتجزت بالحرار الخمس ، فقال صاحب التاج في شرحها : حرة بنى سليم وحرة واقم وحرة ليلى وحرة شوران وحرة النار . وهذا قول الاصمعي

وقل الازهري : سمي حجازاً لان الحرار حجزت بينه وبين عالية نجد قال
وقال ابن السكيت : ما ارتفع عن بطن الرمة فهو نجد إلى ثنايا ذات عرق ، وما
احتزمت به الحرار حرة سوران وعامة منازل بني سليم إلى المدينة فما احتاز في
ذلك كله حجاز ، وطرف تهامة من قبل الحجاز مدارج العرج وأولها من قبل
نجد مدارج ذات عرق ، وقال الاصمعي : اذا عرضت لك الحرار بنجد
فذلك الحجاز وأنشد :

* وفروا بالحجاز ليعجزوني *

أراد بالحجاز الحرار انتهى .

قل المعجمي في تفسير «عرقوب بجيلة» العرقوب ما انحنى من الوادي وطريق
في الجبل ، والعراقب خياشيم الجبال والطريق الضيقة في متونها . وتعرقب أي مسلكها
كذا في القاموس انتهى

(قلت) وزاد صاحب التاج ان العرقوب هو الجبل المكلل بالسحاب ، هذا
وقد جرت التسمية بالعرقوب كثيراً في بلادنا الشامية ففي جبل لبنان داخل
قضاء الشوف ثلاث نواح باسم العرقوب ، وهي العرقوب الجنوبي والعرقوب الشمالي
والعرقوب الاعلى ، وهي أودية يخرج من أحدها نبع الباروك ، ومن الآخر نبع
الصفاء ونبع القاعة ، وهي من أشهر ينابيع الارض في العذوية لا ينابيع لبنان وحده
وفي جبل الشبخ ناحية يقال لها أيضاً العرقوب تابعة لقضاء حاصبيا .

وأما عرقوب بجيلة في الحجاز فهو منسوب إلى بجيلة - كسفينة - وهي قبيلة
اختلف في نسبها فقال ابن الكلبي انها حي من اليمن ، ودروي عن مصعب بن
الزبير انها من نزار ، وقال صاحب القاموس انها حي في اليمن من معد ، قال
الزبيدي في التاج ان صاحب القاموس أراد أن يجمع بين القولين
وقال الامام مالك رضي الله عنه : بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قال : لبيت بركة أحب إلي من عشرة أبيات بالشام . نقل ذلك ابن فهد محمد جار الله بن عبد العزيز صاحب « تحفة اللطائف » وقال ابن وضاح : ركة موضع بين الطائف ومكة في طريق العراق

قال ابن فهد نقلا عن ابن وضاح : يريد — أي عمر — والله اعلم لطول الاعمار بها وشدة الوباء بالشام ، ثم أخذ بعضهم يعترض على هذا التأويل قائلا إن مراد عمر هذا التفضيل قرب هذا المكان أي ركة من مكة والمدينة

(قلت) لا وجه لهذا القول لانه إن كان مراد سيدنا عمر رضي الله عنه هو قضية القرب من مكة والمدينة فيؤد مزية لم نختص بركة بل اشتركت بها بقاع لا تعد ولا تحصى ، وكل من مكان أقرب إلى مكة أو إلى المدينة من ركة هذه التي هي على مسافة يوم ونصف يوم من مكة ، وما أرى عمر قصد إلا طيب الهواء والبعد عن الوباء كما قال ابن وضاح ، فالشام هي مضرب الامثال في جودة الماء والهواء ، ومع هذا فن عمر يرى بقعة مثل ركة من بقاع الطائف أفضل منه للسكنى . انه لم يقسم لي الذهاب إلى ركة وإنما سمعت من أهل الطائف الشيء الكثير عن طيب نجمتها وهجة روضها لاسما في أيام الربيع

وقول ابن وضاح لا يخلو من صحة ، فالشام مع كونها مضرب الامثال في طيب الماء والهواء ومع كونها جنة الله في أرضه موصوفة بالوباء من قديم الزمان حتى ان أحد اخواننا المصريين أخذته فيما يظهر الغيرة مما رأى من محاسن دمشق فنبذها بسرعة الوباء اليها من كثرة المياه المتدفقة في كل أنحائها فقال ذلك البيت الشهير (١) :

قيل لي صف بردى كوثرها قلت غال برداها برداها

(١) قائله اشهر منه وهو ابن الفارض وهو من أبيات له في تفضيل مصر على الشام نسبها الأمير فظن ان البيت لبعض المعاصرين

وقد أبى الله إلا أن يجعل بازاء كل سهل حَزْنا ، ومع كل سرور حُزْنا ، وأن لا يدع الكمال نصيب شيء من هذه الدنيا ، فكثرة المياه في القطر الشامي التي هي مصدر رخائه ، ومرجع نضارته وبهائه ، هي ايضا سبب وبائه ، وشدة بلائه ، فقد تقرر أن الاوبئة تنفث بالبلاد التي تشرب من الانهار ، أكثر مما تنفث بالبلاد التي تشرب من الآبار ، وذلك لان الميكروب انما ينمو في الماء ، وإذا كان الماء مما يشترك الخلق في وروده كانت العدوى به أكثر كما لا يخفى

و كثر حواضر الشام مبنية على الانهر ، فدمشق على (بردى) وحمص وحماه على (العاصي) وحلب على (قويق) وبعليبك على (رأس العين) وزحلة على (البردوني) وطرابلس على (أبي علي) وصيدا على (الاولي) وهلم جرأ ، وقبل ان جر الى بيروت ماء نهر الكلب كانت أقل تعرضا للأمراض الوافدة ، فلماذا كانت بلاد الطائف منزهة عن الوباء بسببين (الاول) وفرة الأكسيجين في هواء تلك الجبال العالية (والثاني) قلة المياه الجارية فيها على الضد من جبل الشام ، والمياه هي التي تنقل الجراثيم بواسطتها ، فمن أين تنفث الاوبئة في ركبة ونواحيها ؟ ومن أين تكون فيها المستنقعات التي تنشأ عنها الحميات ؟ فهذا ما أراده سيدنا عمر بن الخطاب بقوله : لبيت بركبة أحب إلي من عشرة آيات بالشام

وسبق أن روينا عن الاصمعي — ولم يكن الاصمعي بليداً — قوله : دخلنا الطائف فكأنني كنت أبشّر ، وكأن قلبي ينضح بالسرور ، وما اجد لذلك سبباً إلا انفساح حدها ، وطيب نسمتها

ولا أظن أحداً دخل الطائف إلا وشعر بهذا الانشراح في صدره ، والانفساح في رثته ، ولو كانت الطائف مربوطة بسكة حديدية بجدة لقصدها المصطفون من مصر والشام والهند وسواحل جزيرة العرب

عمران الطائف وتقلصه بعد الحربين

وقد كانت الطائف في أيام الدولة العثمانية معمورة حافلة ، قيل لي انه كان فيها ما يقرب من خمسة عشر ألف نسمة ، فقد كانت إمارة مكة والولاية وقيادة الجيش والاجناد كلها والدوائر الرسمية تنقل الى الطائف وتقيم بها مدة ٦ أشهر وكان بسبب ذلك يزداد توارد الخلق عليها من مكة وغيرها ، وتعمر أسواقها ويكثر الاخذ والعطاء فيها ، وقيل لي انه كان فيها ١٥ طييبا بين ملاكي وعسكري وكان كل ما يوجد بمكة يوجد فيها

فبعد الحرب العامة تقلص عمرانها ، وخف قطيعها ، حتى عادت كالعرجون القديم ، فلم يبق فيها إلا نحو ألفين الى ثلاثة آلاف ساكن ، وصارت اكثر البيوت خاوية على عروشها . فتداعت من نفسها . ومن البيوت ما علمت فيه القنابر في اثناء حصار العرب للاتراك فيها ، فهذه كانت المرحلة الاولى من مراحل بوارها وأما المرحلة الثانية فقد كانت في حرب الوهابيين مع الملك حسين فقد زحف اليها سلطان بن بجاد شيخ عتيبة والشريف خالد بن لؤي وحاصروها بجمع كان يعجز عنها لو صادف فيها حامية مستبسلة موطنة نفسها على الكفاح لانها مسورة من كل جهاتها ، وقد كانت فيها مدافع وأعتاد كافية للمقاومة . فأوقع الله الوهن في قلب أمراء الحامية التي كانت من قبل الملك حسين ، فانهمزوا لا يلوون على شيء . ودخلت عتيبة وأولئك الاعراب الغلاظ الشداد ففتكوا بأهلها فتكة شنيعة ملأت شناعتها الخاقين ، وقتلوا بضع مئات من الاهالي الوادعين ، وانتهبوا البلدة وخربوا ما قدروا على تخريبه

وكان بين القتلى جماعة من العلماء والخواص ، ومنهم وبالا لاسف المرحوم السيد حسن الشيبى مبعوث الحجاز ونجل الشيخ عبد القادر الشيبى كبير سدة

بيت الله الحرام . وقد كان رحمه الله زميلي في مجلس المبعوثين في الاستانة وكان من ذوي الشهامة والاخلاق الزكية ، وكانت بيننا مودة أكيدة

فانتهاز اعداء الملك ابن سعود في هذه الوقعة الفرصة للطعن فيه وحاولوا ايهام الناس انه كان راضياً عن هذه الفعلة ، وحاشي له من ذلك فانها وقعت بدون ان يعلم بها وقبل ان يكون جاء الى الحجاز ، ولما نفي اليه خبرها بمكانه من نجد ارتعض جدا وأصدر الامر تلو الامر تحت الانذار بالقتل بعدم التعرض لأحد من الاهالي وبالدخول إلى البلاد الامين بدون سلاح ، فدخل الوهابيون مكة بدون سلاح ، وطافوا واعتمرُوا ولم يمسوا أحداً بسوء مما يشهد به كل اهل مكة

فأما فاجعة الطائف فقد سبق فيها السيف المذل ، وبقيت في قلب الملك عبدالعزيز منها حزازات على سلطان بن بجاد لم يشطه عن عقابه على ما فعل في الطائف سوى حادثة عهده بالاستيلاء على الحجاز ، وانربص ربما تستتب الاحول ، فاكتمى الملك باديء ذي بدء بتضديد جراحت أهل الطائف ومؤاساتهم ، والتعويض عليهم ، ولم يتعرض لسلطان بن بجاد بسوء دعيّاً لسابق عهده ، حتى فتح هذا على نفسه الباب ، وخرج هو وفيصل الدويش عن طاعة الملك وجاذباه الحل ، وظناً انهما بقوة عشائرها - عتيمة ومطير - يبالان منه وطراً ، فحاجزها الملك مدة شهرين حتى أعيته فيهما الحيلة ، فلما لم يبق من الدواء الا الكي نهده إلى الثوار فزق شملهم في أقل من ساعتين ، وطرح منهم بالعرء اكثر من ألفي صريع ، وأخذ مقدميهم أسرى وبينهم ابن بجاد والدويش . فكان الذين فتسكوا بأهالي الطائف الوادعين هم الذين لقوا هذا الشكال الشديد ، فنالوا الجزاء الذي يستحقونه على عملهم بالطائف ، وسقوا السكس التي سقوا بمثلها ، ولكنهم سقوا بيني وعدوان ، وشربوا بتأديب سلطان وحكم فرقان ، وقيد ابن بجاد بالاصفاد وكفى الله شره

ولكن الدويش بعد أن عالج طيبب الملك جراحه ، فر من الامر ونكث

وجمع جموعه وجوعا بمن ماله على نفيه ، واستأنفوا الثورة ، واضطروا الملك أيده
الله أن يزحف اليهم مرة ثانية ، ويصدع شملهم عوداً على بدء . وما زال يضيق
عليهم حتى تفرقوا تحت كل نجم ، وجاء الدويش إلى العراق ظاناً أنه ينجو وأنه
لا يدركه ايل عمله الذي هو مدركه — إلا أن الملك فيصل بن الحسين كان أعقل
وأبصر بمصلحة مملكته العراق وبمصلحة العرب من أن يظهر الخارجين عن
طاعة ابن سعود ، لاسيما أنهم هم الذين كانوا يوالون على العراق تلك الغارات التي
لا نهاية لها . فأنتهى الأمر بتسليم الانكليز فيصل الدويش إلى الملك ابن سعود
عملاً بمعااهدة سابقة في تسليم المجرمين — وصار إلى جانب رفيقه ابن بجاد بحيث
لا يقدر أحد منها بعد الآن أن يقلق راحة العرب ولا أن يهزج البلاد وعمرجها ،
وكانت هذه الواقعة سبباً في اتتلاف الملكين العاقلين الحكيمين ، اللذين أقر
اجتماعهما عيون جميع العرب المتخلصين لعروبة ، وقت في أعضاء الذين يريدونها
دائمة حامية ولو أفضى ذلك الى سقوط العرب

والذي أدى بنا إلى هذا البحث الذي بعد كثيراً عن أصل الموضوع خبر
واقعة الطائف هذه التي كانت الضربة الثانية التي قضت على عمرائها ، والتي لو
أغفلنا ذكرها وأسبابها لم يكن ذلك منا نصحاً بالتاريخ ، ولكيما مسؤولين
عن هذا الاغفال

ومن شاء معرفة خطط الطائف وما فيها من حارات وقصور ومساجد وآثار
وأنصاب وما حولها من قرى ودساكر وما أتته ذلك فعليه بكتاب « ما رأيت وما
سمعت » للخير الزركلي ، فانه قد وعاهها بحذافيرها بأحسن أسلوب وأنا لست
متعرضاً من ذلك إلا لما شاهدته بعيني ، وارتسم في مخيلتي وحك في صدري ،
فاني قد سميت كتابي هذا « بالارتسامات اللطاف » وحصرت الكلام فيما رأيته ،
وما تَجَرَّزته الا الى الضروري مما رويته .

مسجد ابنه عباس بالطائف وقبره وبعضه ترجمته

(رضي الله عنه)

أهم أثر في الطائف هو مسجد عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ، وهو على طرف البلدة إلى جهة (وج) وليس من بعده إلى وج عمارة وقد أنزلتني امانة الطائف في دار شاهقة كانت تخص أحد أمراء الاكراد ممن نفي إلى الطائف في أيام السلطان عبدالحميد الثاني العثماني ، وهي لا تبعد عن المسجد العباسي أكثر من مائة وخمسين ذراعاً . وإمام هذه الدار باحة كبيرة عمومية تصل الى مدخل المسجد العباسي ، وإلى باب السور الذي يجانبه . وتكثر طبقات الدور بالطائف كما بمكة وكما بالمدينة وكما ببجدة ، ، فقد كنت أسكن في الطبقة الرابعة من الدار ، وكثيراً ما كننا نسمر على السطح الاعلى لها ، أنا وإخواني فوزي بك القاوقجي والدكتور خيرى القباني وغيرهما ، لكننا كثيراً ما كننا نشتمل بالاكسية الثقيلة على ذلك السطح خشية البرد . وكنا نضع كيزان الماء على السطح فلا يمضي على ذلك ساعة حتى ينقلب الماء كانه تنج مذاب

والمسجد العباسي كبير رحب المصاحف قبل لي انه وسع في زمن السلطان عبدالحميد العثماني فهو يسع ١٥ الف مصلى فيما قدرت . ولما أقبل الصيف صرت أرى الناس فيه تزدهم لكثرة الخلق الذين يصعدون إلى الطائف من مكة ، وفي بعض الجمع كان يغص بالناس . وقد كان يؤم فيه قاضي الطائف ، وهو رجل حضرمي من اهل الفضل . وبجانب المسجد قبه فيها قبر حبر الامة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ، إلا ان الوهابيين أزالوا القبة وأبقوا القبر ، وذلك بحسب عاداتهم في هدم القباب وكراهية زيارتها على الوجه الذي اعتاده كثير من العوام وبعض الخواص

من الاستغاثة والتوسل وتقبيل الحجارة وما شا كل ذلك مما هو خلاف لشرع ولا يسمعون فيه لومة لائم (١)

ولما كنت هناك زار الطائف قاضي القضاة بمكة الشيخ عبدالله بن حسن، وهو من ذرية الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فرأى بجانب الضريح العباسي خلف الجدار شجرة سدر صغيرة فأمر بقطعها، خشية أن يتبرك العوام بها. ولا إنكار أن الوهابيين يبالغون في الهدم والقطع والنقض والقلع كما مروا بقبة أو مزار أو شجرة تعلق عليها خرق وتتشمر جلودهم من هذه المناظر. ولكنني مع اعترافي بغلوم في هذا الامر لا أراهم حائدين فيه عن سنن الشرع القويم

واني لاروي للقراء قصة جرت معي في تلك الارض وهي اني كنت وجماعة من اخواني ننزه في الوهط قرية عمرو بن العاص المشهورة، وهي على نحو ساعة ونصف من الطائف إلى جهة جبل برد، فرأينا في طريقنا على مقربة من الوهط آثار قرية دارسة يعرف أنها كانت ذات شأن من اتساع جبانتها، وشاهدنا في الجبانة قبة مهدوما أعلاها قائمة جدرانها، قيل لنا انها قبة سيدنا عكاشة من

(١) قد صحت الاحاديث النبوية بالنهي عن الصلاة الى القبور وعن تشييدها وتشريفها وبلعن الذين يتخذون قبور الانبياء والصالحين مساجد والذين يضمنون عليها السرج وصرح الفقهاء بتحريم ذلك وبوجوب هدم ما يبنى عليها، وتسوية القبور المبنية بالارض كما تراه في انرواجر لابن حجر الشافعي، وفقهاء الحنابلة اشد من غيرهم في هذا، والوهايون حنابلة. وذكروا أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) أمر بقلع الشجرة التي سمى النبي ﷺ أصحابه تحته بيعة الرضوان وإعفاء أثرها لانه علم ان بعض حنابلة "مهدوا لاسلام يتبركون بها"، فهل يعد الوهايون غلاة في العمل بما ذكر وقد فشوا في الاس عباد القبور الصالحين كما سيأتي في كلام الامير وهو قليل من كثير؟

الصحابة رضوان الله عليهم (١)

ففحصنا إلى ذلك المكان فوجدنا مسجداً فيه قبور مشيدة منها ما هو قديم من صدر الاسلام عليه كتابات بالخط الكوفي ، ومنها ما هو من القرن الخامس أو السادس للهجرة . وشاهدنا من هذا الخط كتابات لم تر عيني أجل منها في البداعة والاتقان ، وتمت ان تنقل تلك الخطوط اما بالليتوغرافيا واما بالفوتوغرافيا ولا أزال أحدث نفسي بذلك فيما لو زرت الطائف مرة أخرى

وبينما نحن تتأمل في تلك الآثار إذ أقبل علينا هنديان كانا سائرين على الطريق السلطاني فخادا عنه قاصدين هذا المزار وسألانا هل يجوز ان يصليا في ذلك المكان ؟ فقلنا لهما : ليس لنا ان نعترضهما في صلاتهما ، إلا أننا لانعلم لماذا يفضلان الصلاة في الداخل تحت القبة المهذومة بجانب هذه القبور مع كراهية الصلاة بجانبها على الصلاة في الخارج ، والصلاة هي هي (فأينا تولوا فثم وجه الله)

(١) (حاشية المؤلف) الذي رأيته في تاج العروس عكاشة الغنوي أوردته ابن شاهين في الصحابة من طريق حفص بن يسيرة عن زيد بن أسلم عنه وحديثه في سنن النسائي. وعكاشة بن ثور بن أصغر كان عامل النبي (ص) على السكاسك فيما قيل وقال الحافظ هو الغنوي بالعين والمثلثة، وعكاشة بن محسن بن جرثان بن قيس بن مرة الاسدي أحد السابقين كان من أجل العرب واشجع الصحابة رضي الله تعالى عنهم اه وفي لسان العرب عكاشة (بتشديد الكاف ومخفف) بن محسن الاسدي من الصحابة وجاء في الطبقات الكبرى لابن سعد: عكاشة بن محسن بن جرثان بن قيس بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزاعة ويكنى ابا محسن شهد بدرأواحداً والحدوق والمجاهد كلها مع رسول الله ﷺ وبه رسول الله الى الغمر سرية في اربعين رجلاً فانصرفوا ولم يلقوا كيداً. قال اخبرنا محمد بن عمر قال حدثني عمر بن عثمان الجعفي عن آبائه عن أم قيس بنت محسن قالت توفي رسول الله ﷺ وعكاشة ابن اربع واربعين سنة. وقتل بعد ذلك بسنة بزاخه في خلافة ابي بكر الصديق سنة اثنتي عشرة وكان عكاشة من أجل الرجال ثم ذكر ابن سعد كيفية مقتل عكاشة في قتال خالد بن الوليد لاهل الردة اه

فقالا : لانهما رأيا في الداخل محرابا ، فقلنا لهما : نعم إلا أننا لانعلم وجها شرعا يجعل للصلاة عند ذلك المحراب فضيلة ليست للصلاة في الصحراء فانصرفا ولم يصليا . ولعلمهما رجعا بعد انصرفنا وصليا في داخل المزار لانعلم (١)

وكيف كان الامر فن كثيرًا من العوام أو من الخواص أشباه العوام يحبون الصلاة بجانب القبور ، وهذا مما ينفر منه السلفيون أشد النفور وليسوا في هذا بغالطين

هذا وقد توفي عبد الله بن عباس بالطائف سنة ثمان وستين ، وقيل سنة سبعين وسنة إحدى وسبعين سنة ، وقيل اثنتان وسبعين ، وقيل أكثر . وصلى عليه محمد بن الحنفية ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ودفن ابن عباس في الطائف بالمكان الذي فيه المسجد اليوم ، ودفن ابن الحنفية في الطائف أيضاً على أصح الأقوال ، وكانت وفاة بعد ابن عباس باثنتي عشرة سنة ، وكانت أم عبد الله بن عباس أم الفضل ابنة الحارث بن حزم بن بجير بن الهرم بن ذرية بن عبد الله بن عامر وهي التي قيل فيها :

ماولدت نجيبة من فحل بجمل نعلمه أو سهل

كسمة من بطن أم الفضل أكرم بها من كملة وكهل

فان أولادها كانوا باجمعهم أبطالاً مجاهدين ، وقيل انه مارؤيت قبور أخوة أشد تباعداً بعضها من بعض من قبور ستة من بني العباس مع كونهم ولدوا في دار واحدة . وذلك ان الفضل استشهد في وقعة اجنادين بفلسطين وقيل بطاعون عمواس ، ومعبود وعبد الرحمن استشهدا بآفريقية ، وقيل ان معبداً مات شهيداً

(١) يعلم من هذا ان الصلاة لأجل المزار ، لاخالصة لله فهي شرك بالله ، وقد صرح بعض فقهاء الحنابلة ببطالان الصلاة في كل مسجد فيه قبر وان لم تكن الصلاة الى القبر أو لأجله . لأن النبي ﷺ عن بناء هذه المساجد ولمن فاعليها وهو يقتضي بطلان الصلاة فيها . واقتضاء النهي للفساد مسألة أصولية معروفة غير خاصة بالحنابلة

بأفريقية وعبدالرحمن مات بالشام، وقم بسمرقند مجاهدًا، ومات عبيد الله باليمن وقيل بالمدينة، وعبدالله مات بالطائف

وكانت فضائل عبد الله بن عباس أكثر من أن يحصى، وقد ألفت فيها التأليف وأكثرت الكتب المؤلفة على الطائفة ملأى بأخبار عبد الله بن عباس جبر الامة وترجمان القرآن ووالد الخلفاء العظام، وهو الذي قل فيه أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه: انه لينظر إلى الغيب من ستر رقيق

وقد روى بعضهم ان النبي ﷺ قال فيه «لو كان بعدي نبي مرسل لكان عبد الله بن عباس اللهم فقهه في الدين وانشه منه، وعلمه التأويل، وبارك فيه، انه سيدفن في طائف فن زاره فكأننا زار قبري بعثية» روى هذا الحديث الشيخ عبد الرحمن البيهقي عن احمد بن حاتم الموصلي والاشبهه أن يكون موضوعا وأما أن يكون النبي ﷺ دعا له بان يفقهه الله في الدين وأن يبارك فيه وأن يعلمه الكتاب والحكمة فهذا معقول

وقد جاء في الصحيح انه ﷺ ضمه اليه وقال «اللهم علمه الحكمة» (١) وكان عمر ابن عباس لما قبض ابن عمه الرسول ﷺ ثلاث عشرة سنة، وروى السخاوي انه ﷺ دعا بالحكمة لابن عباس مرتين. وكل ما روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ ١٠ أحاديث أو أكثر. ومثل ذلك مما شهد فعله (٢) وبقي

«١» وصح ايضا انه قال «اللهم علمه الكتاب» وايضا «اللهم فقهه في الدين» كل ذلك في صحيح البخاري

(٢) في ترجمته من تهذيب التهذيب: (فائدة) روي عن غندران ابن عباس لم يسمع من النبي ﷺ الا تسعة أحاديث وعن يحيى القطان عشرة. وقال الغزالي في المستصفى: أربعة. وفيه نظر، ففي الصحيحين عن ابن عباس مما صرح فيه بسماعه من النبي ﷺ أكثر من عشرة، وفيهما مما شهد فعله نحو ذلك، وفيهما مما حكى الصريح نحو ذلك فضلا عما ليس في الصحيحين اهـ

أحاديثه إما مرسل محكوم باتصاله أو غير مرسل (١) عن أبيه وأخيه الفضل وخاتمه ميمونة وأبي بكر وعمر وعثمان وخلق من الصحابة

وروى الحسن المدني عن سحيم عن حفص عن أبي بكرة قال: قدم علينا ابن عباس البصرة وما في العرب مثله جسماً وعلماً وديناً وجمالاً وكلاً. وروى الطبراني وغيره حديثاً معناه أن أم الفضل أنة الحارث زوجة العباس لما وضعت عبد الله بن عباس أتت به النبي ﷺ فأذن في أدنه النبي، وأقام في اليسرى، وسماه عبد الله ثم قال «أذهبي بأبي الخلفاء» ويجوز أن يكون هذا الحديث «أذهبي بأبي الخلفاء» صحيحاً وأن يكون الرسول كوشف بذلك كما أنه يجوز أن يكون مما وضع في زمن الخلفاء بني العباس تزلفاً إليهم

ومثله ما رواه ابن فهد نقلاً عن تاريخ دمشق وهو حديث مرفوع صرح ابن فهد نفسه أنه ركيك اللفظ وإياه وهو «هبط علي جبريل عليه السلام وعليه قباء اسود وعمامة سوداء فقلت ماهذه الصورة التي لم أرك هبطت علي فيها قط؟ قال هذه صورة الملوك من ولد العباس عمك رضي الله تعالى عنه. قلت وهم علي حق؟ قال جبريل نعم. فقال النبي ﷺ اللهم اغفر لعباس وولده حيث كانوا وأين كانوا. قال جبريل: ليأتين على أمتك زمان يعز الله عز وجل الاسلام بهذا السواد. فقلت رئاستهم ممن؟ قال من ولد العباس. قلت ومن أتباعهم؟ قال من أهل خراسان، قلت وأي شيء يملكون؟ قال الاصفر والاخضر والحجر والمدر والسربر والمنبر والدنيا إلى المحشر، والملك إلى المنشر» اه والوضع ظاهر كالشبهس في هذا الحديث، ومن عادة بعض الناس التزلف إلى الملوك والخلفاء بأقويل

«١» كذا - والحديث المرسل من سقط من آخر سنده من بعد التابعي وهو الصحابي الذي سمع من النبي ﷺ أو حضروا شاهد ما يرفعه اليه كقول التابعي قال رسول الله ﷺ كذا، ويطلق على ما رواه الصحابي مما لم يسمعه ولم يحضره

كهذه هي داخلة في حكم قوله ﷺ « من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار » وقد يكون بعضهم ممن يستضعف الحديث ولا يثق باسناده لكنه يرويه عملاً بحسن الظن بزعمه او اعتقاداً للمصلحة فيه . وهذا من اكبر الخطأ ولا سيما ان كان من هذا الباب ، والحق غير محتاج إلى دعامة من الباطل . ولقد انتهى ملك بني العباس ولم يبق إلى المحشر ، كما انتهى ملك بني عثمان في أيامنا هذه وذهب معها كل ما قيل في خلود ملكهم سدى

ومن جملة ذلك رسالة للسيد محمود الحزاري مفتي الشام رحمه الله اسمها « البرهان على بقاء ملك بني عثمان الى آخر الزمان » لم أعجب الا من صدورها عن رجل مثله في سعة علمه وعقله .

وقد روى الحافظ بن الابار القاضي البلمسي في « التكملة لكتاب الصلة » ان حيوة بن ملامس الحضرمي من اشراف إشبيلية كانت له منزلة لطيفة من عبدالرحمن بن معاوية (الداخل إلى الاندلس) وروى عن حنش الصنعاني يرفعه ان ملك بني أمية لا يزال الى خروج الدجال ، ولما رواه لعبد الرحمن بن معاوية أقطعه قطيعة معروفة . انتهى وهذا أيضا من الباب المتقدم

وكان ابن عباس أبيض طويلاً وسيماً جسيماً مشرباً بصفرة صبيح الوجه له وفرة بخضب بالحناء ، وكان يعم بعمامة سوداء يرخيها شبراً . ولعل الخلفاء العباسيين اتخذوا السواد شعاراً من أجل عمامة جدتهم هذه

وقد روى ابن فهد في « تحفة اللطائف » انهم كانوا باقين على لبس السواد الى عهده ، وقد كانت وفاته سنة ٩٢٢ وكذلك الخطباء في الحرمين الشريفين وغيرهما من بعض البلدان المعظمة . قال ابن فهد :

« وان معتمدهم في ذلك كونه ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء قد أرخى طرفيها بين كتفيه . وخطب بها الخلفاء كذلك ، لكونه ﷺ كان

في ذلك اليوم منصوراً على الكفار، فاتخذوه شعاراً ليكونوا دائماً منصورين على أعدائهم. وسأل الرشيد الاوزاعي رحمها الله تعالى عن لبس السواد فقال : اني لا أحرمه ولكن أكرهه قل : ولم ؟ قل : لانه لا تجلى فيه عروس ، ولا يلبي به محرم ، ولا يكفن فيه ميت. فالتفت الرشيد إلى أبي نواس فقال : فما نقول أنت في السواد ؟ فقال : النور في السواد يأمر المؤمنين . ثم قال : وفضيلة أخرى يأمر المؤمنين لا يكتب كل من كتاب الله عز وجل وحديث النبي ﷺ وأقوال العلماء رحمهم الله تعالى الا به ، وهو مضاف إلى الخلافة. فلما سمع الرشيد هذا الوصف في السواد اهتز طرباً وأمر له بجائزة سنوية « انتهى

قلت نسبة هذه الرواية للرشيد خطأ محض . وكنا نقول انها سهو ناسخ تبدل لفظة الرشيد بالمنصور لولا مجيء قصة أبي نواس من بعدها . ووجه الخطأ ان الامام الاوزاعي رضي الله عنه توفي يوم الاحد أول النهار للياتين من صفر سنة سبع وخمسين ومائة هذا الذي عليه الجمهور رواه العباس بن الوليد العذري قاضي بيروت المتوفى سنة ٢٧٠ قال عنه ياقوت في معجم البلدان انه كان من خيار عباد الله

وقد نقل هذه الرواية عن وفاة الاوزاعي زين الدين بن تقي بن عبد الرحمن الخطيب في كتابه «محاسن المساعي في مناقب الامام ابي عمرو الاوزاعي » وهو مخطوط اطاعت عليه أخيراً في المكتبة الملوكية في برلين وعلمت منه ان مؤلفه اكمله سنة ١٠٤٨ وهو لا يقول « في مناقب الامام ابي عمرو الاوزاعي » بل « في مناقب الامام أبا عمرو الاوزاعي » لا أعلم اهو من خطأ الناسخ أم من نفس المؤلف عملاً بلفظة * إن أباه وأبأ أباه*؛ وقال ابن خلكان عن وفاة الاوزاعي : وتوفي سنة سبع وخمسين ومائة ، للياتين بقيتا من صفر ، وقيل في شهر ربيع الاول بمدينة بيروت. أما الرشيد فقد كانت ولادته سنة ١٤٨ أي إنه يوم وفاة الاوزاعي،

كان قاصراً . واستخلف الرشيد سنة ١٧٠ . فان خليفة الذي سأل الامام الاوزاعي عن السواد هو المنصور لا الرشيد لأن الاوزاعي جرى بينه وبين المنصور حديث طويل . ولما قدم ابو جعفر المنصور الشام زاره الاوزاعي ووعظه ، فعظمه الخليفة وأحبه . ولما أراد الانصراف من بين يديه استأذنه أن لا يلبس السواد فأذن له ، فلما خرج قال المنصور للربيع الحاجب : الحقه فاسأله . لم كره لبس السواد ولا تعلمه إني قلت لك . فسأله الربيع فقال : لأنني لم أرحم أحرم فيه ولا ميتاً كفن فيه ولا عروساً جلبت فيه . فلماذا أكرهه

أما أبو نواس فيجوز أن يكون قال الرشيد هذا وأكثر منه لكن بدون أن يكون الاوزاعي حاضراً . وكيف كان الامر ؟ فكان السواد شعار العباسيين وكان يقال لهم المسودة . وكان الخلفاء العباسيون يخلعون حلل السواد على من ينتسب اليهم أو ينال الخطوة عندهم جاء في « تاريخ الاعيان في جبل لبنان » للشيخ طوس الشدياق والمعلم بطرس البستاني انه لما وقع اقتتال على نهر بيروت بين المردة والامير النعمان بن الامير عامر بن الامير هاني بن أرسلان وهزم الامير النعمان المردة وقتل بعضاً وأسرى بعضاً وكتب الى موسى بن بغا في بغداد يخبره وأرسل الرءوس والاسرى الى بغداد عرض ذلك موسى للخليفة المتوكل فكتب اليه المتوكل كتاباً يمدح شجاعته ويحرضه على القتال وأقره على ولايته تقريراً له ولذريته وأرسل له سيفاً ومنطقة وشاتراً أسود وكتب اليه أخوه الموفق وغيره كتباً يمدحونه بها وأعاد رسله مكرمين فتقلد الامير السيوف وشد المنطقة ولف الشاش ودعا لامير المؤمنين وزينت البلاد « الخ وهذه الرواية محررة لكن باختصار في سجل نسبنا الارسلاني

والخلاصة أن بني العباس أرادوا أن يتميزوا بشعار فجعلوه السواد اقتداءً بمجدد عبد الله بن عباس الذي اقتدى بابن عمه (ص) في اعتمائه بالسواد يوم فتح مكة

ومناقب عبدالله بن عباس كثيرة ، وأقواله مأثورة ، وما ينسب اليه : مذاكرة
 لعلم ساعة خير من احياء ليلة . ويزوي عن سعد بن أبي وقاص انه قال : رأيت
 ما أحداً أحضر فهماً ، ولا ألباً لباً ، ولا أكثر علماً ، ولا أوسع حلقاً من ابن عباس
 ولقد رأيت عمر يدعو للمعضلات ، فيقول : قد جاءتك معضلة ، ثم لا يجاوز قوله
 وإن حوله لأهل بدر . وقيل أن بعضهم وجدوا على عمر في ادناؤه ابن عباس
 دونهم فقال لهم : انه يعظمه لعله مع صغر سنه . وكان عمر يستشيرهم إذا أهمته
 الامور ويقول : غواص . وأوصاه أبوه العباس أن يحسن صحبة عمر فقال له :
 يا بني إن أمير المؤمنين يدعوك ويقربك ويستشيرك ، فاحفظ عني ثلاثاً : لا يجرب
 عليك كذبا ، ولا تفشين له سرّاً ، ولا تغتان عنده أحداً .

وقالوا انه أورد رجل ذكر القراء أمام عمر فقال ابن عباس : ما أحب أن
 يتسارعوا (١) في انقرآن . فسأه قوله عمر قل ابن عباس : فانطلقت الى منزلي
 فقلت ما أراني إلا سقطت من نفسي ، فيبينا أنا كذلك جاني رجل فقال : أجب
 أمير المؤمنين . فذهبت فأخذ بيدي ثم خلا بي فقال : ما كرهت مما قال الرجل ؟
 فقلت يا أمير المؤمنين إن كنت اسأت فأستغفر الله . قال : لتحدثني . قلت .
 انهم متى سارعوا (٢) اختلفوا ومتى اختلفوا اقتتلوا . فقال لله أبوك لقد كنت
 أكتهم للناس . وعن ابن مسعود انه قال . إن هذا الغلام يعني عبدالله بن عباس
 لو أدرك ما أدر كنهه ما تعلقنا معه بشيء . وسأل أحدهم ابن عمر عن شيء فقال .
 سل ابن عباس فإنه أعلم من بقي بما أنزل على محمد ﷺ

وعن معاوية : ابن عباس أفقه من مات ومن عاش . وعن عبيد الله بن عبدالله
 ابن عتبة بن مسعود : ما رأيت أحداً أعلم من ابن عباس بما سبقه من حديث رسول

الله ﷺ وبقضاء أبي بكر وعمر وعثمان ، ولا أفقهه ولا أعلم بتفسير القرآن والعربية والشعر والحساب والفرائض . وكان مجلس يوماً للتأويل ، ويوماً للفقهاء ويوماً للمغازي ، ويوماً لأيام العرب . وما رأيت قط عالماً جلس إليه إلا خضع له ولا سائلاً يسأله إلا أخذ عنه علماً

وقل عمرو بن دينار : ما رأيت مجلساً اجتمع لكل خير من مجلس ابن عباس : إخلال والحرام والعربية والانساب . وعن عطاء : ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس ، أكثر فقهاً وأعظم خشية ، إن أصحاب الفقه عنده وأصحاب القرآن عنده وأصحاب الشعر عنده يصدرهم كلهم من واد واسع . وعن طاوس : أدركت خمسين أو سبعين من الصحابة إذا سئلوا عن شيء فخانقوا ابن عباس لا يقومون حتى يقولوا هو كما قلت . وسمع أحدهم ابن عباس يخطب ويفسر فقال : لو سمعته الروم وفارس لأسلمت

ولو شئنا استقصاء مناقبه لطال المقال جداً لاسيما إن كتبنا هو رحلة إلى الحجاز ، لا ترجمة لابن عباس رضي الله عنه . وإنما أوردنا ما أوردنا منها لأن التراجم الزكية هي خير ما يطرف به الكتاب القراء ، ولا سيما القراء الناشئين الذين قد يقتدون بما بها من الفضائل ويتعلمون مكارم الأخلاق ومعالى الأمور ، ونعم التاريخ الذي يزكي النفوس ويشحن الألباب

وكان ابن عباس عاملاً لعلي رضي الله عنهما على البصرة وشهد معه صفين ، فلما استشهد أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه استخلف ابن عباس على البصرة عبد الله بن الحارث النوفلي ولحق بالحجاز ، ولما دعا عبد الله بن الزبير الناس إلى مبايعته بالخلافة أبى عبد الله بن عباس أن يبايعه فصعد إلى الطائف ، ولم تزل الطائف لاهل الحجاز حتنفساً ، ومات فيها ، وقال محمد بن الحنفية عند موته : مات اليوم رباني هذه الأمة وقد دفن محمد بن الحنفية في المكان الذي دفن فيه ابن عم أبيه أي ابن عباس

ودفن آخرون من الايمان والصلحاء والامراء. ومن هؤلاء الامير جعفر بن سعيد ابن سعد بن زيد بن محسن تولى إمارة مكة سنة ١١٧٢ ثم نزل عنها لاختيه مساعد ومات بالطائف سنة ١١٧٨ ثم الامير عبد الله بن محمد بن عبد المعين بن عون ولي إمارة مكة بعد وفاة ابيه محمد بن عون اول أمير عليها من ذوي عون وبقي فيها نحو ٢٠ سنة وكانت وفاته بالطائف سنة ١٢٩٤ ثم الامير عون الرفيق ابن محمد بن عبد المين بن عون أخو الامير عبد الله ولي الإمارة سنة ١٢٩٩ وبقي فيها إلى ان توفي بالطائف سنة ١٣٢٣ وله قصر بديع ، اتم الطاق الاول منه وبقي بدون نجارة ولا يزال قائماً من شدة متانته وهو مشرف على السهل الافيح الممتد منه إلى الشكينة العسكرية

ونزل بالطائف رهط من اصحاب رسول الله ﷺ منهم عروة بن مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعيد بن عوف بن ثقيف كان حين حاصرهم الرسول - على ما سياتي خبره - غائباً فترش يتعلم عمل الدبابات والمنجنيق فلما قدم الطائف بعد انصراف الرسول ﷺ عنها قذف الله في قلبه الاسلام ، فقدم على الرسول بالمدينة فأسلم واستأذنه في الرجوع إلى قومه ليدعوهم إلى الاسلام فقال ﷺ « انهم اذا قاتلوك » فقال لو وجدوني نائماً ما أيقظوني ، فلما رجع إلى الطائف اتته ثقيف تسلم عليه بتحية الجاهلية فأنكرها عليهم وقال لهم عليكم بتحية اهل الجنة ، فنالوا منه ، فحلم عنهم وخرجوا من عنده وجعلوا ياتمرون به ، وطلع الفجر فأذن بالصلاة فخرجت اليه ثقيف من كل ناحية فرماه أوس بن عوف من بني مالك فصاب اكحله فقام غيلان بن سلمة وكنانة بن عبد ياليل والحكم بن عمرو وغيرهم وقالوا نموت عن آخرنا او نأثر به عشرة من بني مالك ، فلما رأى عروة ما يصنعون قال لا تقتلوا في ، قد تصدقت بدمي على صاحبه لأصالح بذلك بيسكم ، فهي كرامة اكرمني الله بها وشهادة ساقها الله إلي ، وأشهد ان محمداً رسول

الله لقد اخبرني انكم تقتلونني ، ثم دعا رهطه فقال : انما مت ادفنوني مع الشهداء الذين قتلوا في حصار الرسول للطائف فدفنوه معهم وبلغ الرسول ﷺ خبر قتله فقال « مثل عروة مثل صاحب ياسين دعا قومه الى الله فقتلوه »

ومنهم ابو مليح بن عروة بن مسعود وقارب بن الاسود بن مسعود أسلمها ولحقا برسول الله بالمدينة . ولما وفدت ثقيف على الرسول ﷺ وأسلمت عادا إلى الطائف . وقال ابو مليح للرسول ﷺ ان أبي مات وعليه دين مائة مثقال ذهب فان رأيت أن تقضيه من حلي الربة أي اللات فعلت ، فقال الرسول ﷺ « نعم » فقال قارب بن الاسود : وعن الاسود بن مسعود أبي ، فانه ترك ديننا مثل دين عروة فاقضه عنه من مال الطاغية . فقال الرسول ﷺ « ان الاسود مات كافرا » فقال قارب : تصل به قرابة ، انما الدين علي وأنا مطلوب به ، ففضى الرسول عنه دينه من مال الطاغية .

ومنهم الحكم بن عمرو أسلم في وفد ثقيف على الرسول ، ومنهم غيلان بن سلمة وكان شاعرا ، وفد على كسرى فسأله أن يني له حصنا بالطائف فبنى له ولما جاء الاسلام أسلم ، وكان عنده عشر نسوة فقل له الرسول « اختر منهن أربعا » فاختار أربعا وطلق الباقيات

ومنهم شراحيل بن غيلان وكان في وفد ثقيف على رسول الله ، ومنهم عبد ياليل ابن عمرو وكان رئيس الوفد ، ومنهم كنانة بن عبد ياليل وأسلم يومئذ ، ومنهم الحارث بن كعدة طبيب العرب ، وكان الرسول ﷺ يأمر من به علة أن يأتيه ، ومنهم نافع بن الحارث بن كعدة وهو أبو عبد الله الذي انتقل إلى البصرة ، ومنهم العلاء ابن جارية بن عبد الله بن أبي سلمة بن عبد العزى بن غيرة بن عوف بن ثقيف ، ومنهم عثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد دهمان بن عبد الله بن همام ابن ابان بن يسار بن مالك بن حطيظ بن جشم بن ثقيف ، قدم مع وفد ثقيف

على رسول الله بالمدينة وكان أصغرهم سنًا فكانوا يخلفونه على رحالهم يتعاهدوا لهم ، فإذا رجعوا من عند رسول الله وناموا وكانت الهاجرة أتى عثمان رسول الله فأسلم قبلهم سرًا منهم ، وكتبهم ذلك ، وكان يسأل رسول الله ﷺ عن الدين ويستقرئ القرآن ، وكان إذا وجد رسول الله نائمًا عمد إلى أبي بكر فسأله واستقرأه فأعجب به رسول الله وأحبه ، فلما أسلم الوفد وكتب لهم الرسول ﷺ الكتاب الذي فضاهم عليه وأرادوا الرجوع إلى بلادهم قالوا : يا رسول الله أمر عليمار جلا منا . فأمر عليهم عثمان بن أبي العاص وهو أصغرهم لما رأى من حرصه على الاسلام . قل عثمان بن أبي العاص : استعملني رسول الله ﷺ على الطائف فكان آخر ما عهد إلي رسول الله ﷺ أن قال « خفف عن الناس الصلاة » ولما قبض رسول الله ﷺ كان عامله على الطائف عثمان بن أبي العاص فبقى عليها إلى خلافة عمر ، فاحتاج عمر إلى عامل يستعمله على البحرين فسموا له عثمان بن أبي العاص فقال : ذاك أمير أمره رسول الله ﷺ على الطائف فلا أعزله قالوا له : بأمر المؤمنين تأمره يستخلف على عمله من أحب وتستمع به فكانك لم تعزله فقال أما هذا فنعم . فكتب إليه ان خلف على عمالك من أحببت وأقدم علي خلفه أخاه الحكم بن أبي العاص على الطائف وقدم على عمر فولاه البحرين

قال محمد بن سعد في الطبقات فلما عزل عن البحرين نزل البصرة هو وأهل بيته ونشروا بها والموضع الذي بالبصرة يقال له شط عثمان إليه ينسب . وكان الحكم بن عثمان ممن صحب النبي ﷺ أيضاً

وممن أسلم مع وفد ثقيف أوس بن عوج أحد بني مالك الذي رمى عروة بن مسعود حسباً تقدم القول وكان خائباً من أبي ملبح بن عروة وقارب بن الاسود فشكا ذلك إلى أبي بكر رضي الله عنه فنهاهما أبو بكر عنه وقال لهما ألسما مسلمين ؟ قالوا بلى ، قال فتأخذان بدحول الشرك (١) وهذا رجل قدم يريد الاسلام وله ذمة

وأمان ولو قد أسلم صار دمه عليكما حراماً ثم قارب بينهم حتى تصافحوا وكفوا عنه .
ومنهم أوس بن حذيفة الثقفي وكان ممن أسلم في وفد ثقيف قال خرجنا من
الطائف سبعين رجلاً من الاحلاف وبنى مالك فنزل الاحلافيون على المغيرة بن
شعبة وأنزلنا رسول الله ﷺ في قبة له بين مسكنه وبين المسجد

ومنهم أوس بن أوس الثقفي ومما روى عنه حفيد له انه أومأ اليه وهو في الصلاة
ان ناولني نعلي فناولته نعليه فصلى فيها وقال رأيت رسول الله ﷺ يصلي في نعليه
ومنهم الحارث بن عبد الله بن أوس الثقفي ويروى عنه انه قال سمعت
رسول الله ﷺ يقول « من حج أو اعتمر فليكن آخر عهده بالبيت »
ومنهم الحارث بن اويس الثقفي وقد صحب وروى

ومنهم الشريد بن سويد ، ومما حدث به ان النبي ﷺ قال « جار الدار
أحق بالدار من غيره » وقد استنشدته الرسول من شعر أمية بن أبي الصلت
وجعل يقول « إن كاد ليسلم » مات الشريد في خلافة يزيد بن معاوية .
ومنهم نمير بن خرشة اشقفي كان في وفد ثقيف إلى المدينة .

ومنهم سفيان بن عبد الله وكان يهيم أيضاً وولى سفيان الطائف ،
ومنهم الحكم بن سفيان ، ومنهم ابو زهير بن معاذ الثقفي ، ومنهم كردم بن
سفيان جاء الى الرسول ﷺ فقال له إني نذرت ان أنحر عشرة أبعرة لي ببوانة (١)

(١) حاشية للمؤلف : بوانة ، بضم اوله كشمامة - هضبة وراء ينبع - ويفتح .
وايضاً ماء لبني جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن بالقرب من مكة ، وايضاً ماء
لبني عقيل ، وانشد الجوهري

لقد لقيت شول بجنبي بوانة نصياً كاعراف الكوادر اسحما
وقال وضاح اليعن :

ايانحماتي وادى بوانة حبذا اذا نام حراس النخيل جنابا

فقال رسول الله ﷺ « نذرت ذلك وفي نفسك شي من أمر الجاهلية ؟ » قال لا والله ، قال « فانطلق فانحرها »

ومنهم وهب بن خويلد الثقفي أسلم وصحب ومات على عهد الرسول ﷺ ،
ومنهم وهب بن أمية بن أبي الصلت الثقفي الشاعر وأسلم وهب وصحب ، ومنهم
أبو محجن بن عمرو بن عمير الثقفي وكان شاعراً . ومنهم الحكم بن حزن الكوفي
من بني كلفة بن عوف بن نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن روى عنه محمد بن
سعد في الطبقات انه وفد على رسول الله ﷺ سابع سبعة او تاسع تسعة وشهد
معه الجمعة فقام الرسول ﷺ متوكئاً على قوس او على عصا فحمد الله وأثنى عليه
كلمات خفيفات طيبات مباركات ثم قال « أيها الناس انكم لن تهلكوا ولن تغفلوا
كل ما أمرتكم فسدوا وابشروا »

ومنهم زفر بن حرثان بن الحارث من هوازن ايضاً وفد وأسلم ، ومنهم
مضر بن خلف بن النابغة من هوازن ايضاً وفد وأسلم وشهد حنيناً ، وذكره
العباس بن مرداس في شعره ، ومنهم يزيد بن الاسود من بني سواة روي انه
صلى مع النبي ﷺ الفجر في مسجد منى في حجة الوداع فلما قضى الصلاة التفت
فاذا هو برجلين لم يصليا فقال « اتوني بهما » فأتى بهما ترعد فرائصهما فقال
« مامنكما أن تصليا معنا ؟ » فلا : بارسل الله صايناً في رحالنا ، قل « فاذا جئتم
والامام بصلي فصلوا معه فانها لكم نافلة » وكان يزيد شهد حنيناً مع المشركين ثم
أسلم وصحب . ومنهم عبيد الله بن معينة من بني سواة . ومنهم أبو رزين العقيلي
واسمه لقيط بن عامر بن المشفق ، قيل انه أتى الرسول ﷺ فقال له يا رسول الله
ان أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن فقال « حج عن أبيك واعتمر »

وروى ابن سعد في الطبقات انه كان بالطائف بعد هؤلاء من الفقهاء والمحدثين

عمرو بن الشريد بن سويد الثقفي وعاصم بن سفيان الثقفي، وابوهندي الذي روى عنه سعيد بن المسيب، وعمرو بن أوس الثقفي، وعبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان ابن عبد الله من ثقيف وامه أم الحكم بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية وخاله معاوية . وكان جده عثمان بن عبد الله حامل لواء المشركين يوم حنين فقتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال رسول الله « أبعد الله انه كان يبغض قريشا » وقد ولي عبد الرحمن بن عبد الله الكوفة ومصر . قال محمد بن سعد: وولده اليوم يسكنون دمشق (محمد بن سعد كان في القرن الثالث)

ومنهم وكيع بن عدس (بضم تين) ويعلى بن عطاء أقام بواسط في آخر سلطنة بني أمية وعبد الله بن يزيد، وبشر بن عاصم الثقفي، وإبراهيم بن مسيرة وعطيف ابن أبي سفيان، وعبيد بن سعد، ومحمد بن أبي سويد وسعيد بن السائب وعبد الله ابن عبد الرحمن بن يعلى بن كعب الثقفي ويونس بن الحارث الطائفي ومحمد بن عبد الله بن أفلح الطائفي ومحمد بن أبي سعيد الثقفي ومحمد بن مسلم بن سوسن الطائفي وبحي بن سليم الطائفي وكان قد نزل مكة



وأما شهداء الصحابة في الطائف عام ثمانية للهجرة فهم سعيد بن سعيد بن العاص الاموي . وعرفطة بن عبد الله بن أمية ، والسائب بن الحارث بن قيس القرشي أحد المهاجرين الى الحبشة . وعبد الله بن الحارث بن قيس أخو السائب ومثله في المهاجرة إلى الحبشة . وطلحة بن عبد الله بن ربيعة وثابت بن الجزع الخزرجي من الانصار والمندر بن عبد الله الخزرجي الانصاري، ورقم الانصاري وعبد الله بن عامر بن ربيعة ورجل من بني الليث وألحق بعضهم بهم عبد الله بن أبي بكر الصديق لانه كان جرح في غزاة الطائف واندمل جرحه عدة ثم انتكس ومات

ومن أشهر المولودين في الطائف زياد بن عبيدالمعروف زياد بن أبيه لاختلاف المؤرخين في نسبه وهو الذي استلحقه معاوية بن أبي سفيان وأمه سُمَيَّة جارية الحارث بن كلدة . كان كاتباً لابي موسى الاشعري ، وكانت ولادته سنة الهجرة وقال في الطبقات الكبرى : عام الفتح ، ولي البصرة لمعاوية حين دعاه وضم اليه الكوفة فكان يشتم بالبصرة ويصيف بالكوفة ، ويولي على الكوفة إذا خرج منها عمرو ابن حريث ، ويولي على البصرة إذا خرج منها سمرة بن جندب ، ولم يكن زياد من القراء ولا الفقهاء الا انه كان معروفاً . ثم ذكر صاحب الطبقات ان عائشة أم المؤمنين كتبت اليه كتاباً خاطبته فيه بزياد بن أبي سفيان ، ومات بالكوفة وهو عامل عليها لمعاوية . وكان زياد بلا صراء من أعظم الرجال . قال الشعبي : ما رأيت أحداً أنصب نادياً ولا أكرم مجلساً ولا أشبه صمراً بعلانية من زياد وقال الاصمعي : أول من ضرب الدنانير ولدراهم ونقش عليها اسم الله ومحاً عنها اسم الروم ونقوشهم زياد . وقل العتيبي : ان زياداً أول من ابتدع ترك السلام على القادم بحضرة السلطان ، وقالوا انه أول من عرف العرفاء ورتب النقباء ومشي الاعوان بين يديه ووضع الكرسي وربع الارباع وخمس الاخماس في الكوفة والبصرة .

ونقل الخليل الزركلي عن ابن حزم مايلي : امتنع زياد وهو قفعة القاع (القفعة بفتح أوله القفة من خوص وقد يكون ، أعلاها ضيقاً وأسفلها واسعاً وفي لسان يصفرونها ويقولون قفوعة ، واما القاع فلارض الطمئة ، والمتصو بذلك انه ليس بشيء في نسبه وحسبه) لاعشيرة له ولا نسب ولا سابقة ولا قدم فما أطافه معاوية إلا بالمدارة حتى أرضاه وولاه

وقال الاصمعي : الدهاة أربعة ، معاوية للروية ، وعمرو بن العاص لمبديهة ، والمغيرة بن شعبة للمعضلة ، وزياد لكل كبيرة وصغيرة . قلت فضل زياد في المكانة

التي حازها أنظم من فضل جميعهم لأن معاوية أموي وعمرو بن العاص سهمي والمغيرة ثقفي فاما زياد فهو ابن سمية ... وانما * نفس عصام سو دت عصاما *
ومن أشهر المولودين بديار الطائف الحجاج بن يوسف الثقفي الذي صار اسمه رمزاً للظلم وسفك الدماء ، فإذا قيل سفك دماء قيل حجاج ، قيل انه قتل أكثر من مائة ألف صبراً ، وسمعه يقول عند الموت : رب اغفر لي فان الناس يزعمون انك لاتغفر لي .

قال الذهبي في كتاب دول الاسلام : انه كان شجاعاً مهيباً جباراً غنيماً ، ومخازيه كثيرة إلا انه كان عالماً فصيحاً مفوهاً مجوداً للقرآن . وقال انه قتل الامام المفسر سعيد بن جبير ضلماً . فما امهله الله بعده فهلك في رمضان سنة خمس وتسعين وله ثلاث وخمسون سنة . وقرأت في محل آخر انه عاش خمسا وخمسين سنة ، وقال ابن خلكان انه كان عمره ثلاثاً وخمسين ، وقيل اربعاً وخمسين وهو الاصح . وروى ابن خلكان انه كان يمشي في مرض موته هذبن البيتين لعبيد بن سفيان العملي .

يارب قد حلف الاعداء واجتهدوا ايمانهم اني من ساكني النار
أيحافون على عمياء ويحرم ماضهم بعظيم العفو غفار
قات ان الناس غير مخطئين فيما يذهبون اليه من أمر الحجاج ، فكما ان الله عظيم العفو فهو عظيم العدل أيضاً سبحانه وتعالى ، إن لم يعاقب مثل الحجاج على ماسفك من دماء الابراء فن يستحق العقوبة اذا ؟

وقل ابن خلكان عن مرضه : إن الله سلط عليه الزمهرير فكانت الكواوين تحمل تحته مملوءة ناراً وتدنى منه حتى تحرق جلده وهو لا يحس به . ، وشكا ما يجده إلى الحسن البصري فقال له : قد كنت نهيتك أن تتعرض إلى الصالحين فخرجت ، فقال له : يا حسن لأسألك ان تسأل الله ان يفرج عني ولكن أسألك

ان تسأله يعجل قبض روجي ولا يطيل عذابي . ولما جاء موت الحجاج إلى الحسن البصري سجد لله تعالى شكراً وقال اللهم انك قد أمتته فامت عنا سنته . وكانت وفاته بمدينة واسط ودفن بها وعفي قبره وأجري عليه الماء

قلت ليس الحجاج مسؤولاً فيما أناه من الموبات وقتل من قتل من عباد أكثر من عبد الملك بن مروان الذي استعمله وأملى له . وكان ولاه العراق وخراسان ، وولاه قبل ذلك الحجاز ، وكانت له امرأة بدمشق ولا يزال فيها بناء اسمه قصر حجاج أذلته منسوباً له ، ولما توفي عبد الملك وتولى الوليد أبقاه في عمله فكأنه أعجب بني أمية

وقال ابن خلكان: وكان للحجاج في القتل وسفك الدماء والعقوبات غرائب لم يسمع بمثلاً ويقال ان زياد بن أبيه — او ابن سمية او ابن أبي سفيان — أراد ان يتشبهه بامير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ضبط الامور والحزم والصرامة واقامة السياسات إلا انه أسرف وتجاوز الحد، واراد الحجاج ان يتشبهه بزياد فاهلك ودمر ، وكان الحجاج يخبر عن نفسه ان أكبر لذاته سفك الدماء وارتكاب أمور لا يقدم عليها غيره ، ومن كان كذلك فكيف يوليه الخلفاء الولايات الكبرى ويطلقون فيها يده ؟ نعم ان الضبط والربط والحزم من الامور التي تصلح للولاة ، بل من الامور التي لا يصلح للولاة إلا بها ، لكن على شرط ان لا يخرج ذلك بالولاة إلى الامراف والاعتداء وتجاوز حدود الله ، فان العدل هو الحد الوحيد الذي لا يجوز التأخر عنه ولا التقدم عليه ، ومن تجاوز حد العدل فقد أفرط ومن تأخر عنه فقد فرط ، وما يسهل الجميع إلا العدل، ومن أشد الامور ضرراً ان يعتمد الوالي او القائد اتيان الامور التي تجعل له هيبة في قلوب الناس بزعمة ، او ان يتلذذ بسمعة البطش وارهاف الحد كما كان يفعل جمال باشا التركي قائد الجيش العثماني في سورية أيام الحرب الكبرى ، فقد كان يعتمد البطش وأظهار الاستخفاف بدماء البشر املاً بان ينال المهابة في الصدر وان تسير عنه

الاخبار ، فاضر عمله بدولته وأمته وزاد في شقاق الترك مع العرب وما نفعت سياسته إلا الافرنج الطامحين إلى البلاد، وما نفعت إلا الرائدین لهم الساعين بین أیدیهم من أبناء البلاد

فاما الحزامة والضبط فقد روي فیها عن الحجاج مالو وقف عند ذلك الحد، لما انتقده أحد، قالوا : كان الحجاج وابوه يعلمان الصبیان بالطائف ثم لحق الحجاج بروح بن زنباع الجذامي وزیر عبد الملك بن مروان فكان فی عديد شرطته إلى ان رأى عبد الملك انحلال عسكره ، وان الناس لا یرحلون برحيله ولا ینزلون بنزوله ، فشكا ذلك إلى روح بن زنباع . فقال له إن فی شرطتي رجلا لو قلده أمیر المؤمنین أمر عسكره لارحل الناس برحيله وأنزلهم بنزوله ، یقال له الحجاج بن یوسف ، قال فانا قد قلدناه ذلك . فكان لا یقدر أحد ان یتخلف عن الرحیل والنزول إلا أعوان روح بن زنباع ، فوقف علیهم یوماً وقد أرحل الناس علی الطعام يأكلون فقال لهم : مامنکم ان ترحلوا برحیل امیر المؤمنین؟ فقالوا له انزل یا ابن الاخناء فكل معنا ، فقال لهم هیئات ذهب ذلك ، ثم أمر بهم فخلدوا بالسیاط وطوفهم فی المسکر وأمر بفساطیط روح فأحرقت بالنار ، فدخل روح علی عبد الملك باکیا وقل یا امیر المؤمنین إن الحجاج الذی كان فی شرطتی ضرب غلمانی وأحرق فساطیطی ، قال علی به ، فلما دخل علیه قال ما حلك علی ما فعلت؟ قال انا ما فعلت ، قال ومن فعل؟ قل أنت فعلت انما یدی یدک ، وسوطی سوطک ، وما علی امیر المؤمنین ان یمخف لروح عوض الفسطاط فسطاطین ، وعوض الغلام غلامین ، ولا یکسر فیما قدمنی له . فن ذلك الوقت تقدم الحجاج فی منزلته ، ولكن کان ینبغي لهم ان یلزموه من الحزامة والصرامة هذا الحد ولا یسمحوا له أن یتجاوزه

قال الامام السیوطی فی تاریخ الخلفاء « لو لم یکن من مساوی عبد الملك

إلا الحجاج وتوليته إياه على المسلمين وعلى الصحابة رضي الله عنهم يمينهم وبذلهم قتلا وضربا وشتما وحبسا ، وقد قتل من الصحابة والتابعين مالا يحصى فضلا عن غيرهم ، وختم في عنق أنس وغيره من الصحابة ختما يريد بذلك ذلهم فلا رحمه الله ولا عفا عنه »

(قلت) وأغرب من تولية عبد الملك الحجاج بن يوسف - توصيته ولده الوليد به عند موته فقد قال له وهو يجود بروحه « وانظر إلى الحجاج فاكرمه فانه هو الذي وطأ أكم المناير وهو سيفك يا وليد ويدك على من ناواك فلانسمعن فيه قول أحد وأنت اليه أحوج منه اليك » فكأن عبد الملك تحمل تبعة أعمال الحجاج حيا وميتا

ومن أغرب الغرائب ان بعض الناس يلتبس المذر لعبد الملك بقوله : إن الحجاج هو الذي أنقذ ملك بني أمية وانه لولاه لانتقلت الخلافة لال الزبير. فان الناس بعد موت يزيد بن معاوية بايعوا لعبد الله بن الزبير، وكان فحل قريش الصائل في وقته ، لا يدركه أحد في شجاعة ولا عبادة ولا بلاغة ، وأطاعه الحجاز واليمن والعراق وخراسان ، ولم يمتنع عن مبايعته إلا اهل الشام ومصر فانهم بايعوه معاوية ابن يزيد إلى أن مات ، فبايعوا ابن الزبير إلى ان خرج مروان بن الحكم فقلب على الشام ومصر . والحافظ الذهبي لا يعده من أمراء المؤمنين بل يعده باغيا خارجا على ابن الزبير ويعده عهد لابنه عبد الملك بن مروان غير صحيح وقد صحح السيوطي هذا القول وهذا يدل على ان أصل الولاية في الاسلام هو ولاية الامة ، وان لا ملك ولا خلافة إلا من الامة (١) وان الاختيار هو الشرط الاول لا الارث ، خلافا لظن من لم يقرأ شيئا عن أصول الحكم في الاسلام ، ظنوا أن استمداد الحكم من الامة

(١) والدليل على ذلك أنها لا تشترط الا بمبايعة الامة الاختيارية، واما الارث فلا اصل له ولا دليل عليه البتة

هو منزع أوربي جديد ! قاتلهم الله ما أجهلهم بالتاريخ هذا إن لم يكونوا يتجاهلون
عمداً للمرض الذي في قلوبهم

ولما استوسق الامر لعبد الملك أرسل الحجاج في اربعين ألفاً لقتال ابن الزبير
فحصره بمكة أشهراً ورمى الكعبة بالمنجنيق وخذل ابن الزبير أصحابه وتسلموا إلى
الحجاج فظفر به وقتله، وكان ابن الزبير أخيراً أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق
رضي الله عنهما عن خذلان الناس إياه واستشارها فيما يصنع فأشارت عليه بأن يخرج
ويقاتل إلى أن يقتل في خبر يعرف منه الانسان درجة الانفة وعزة النفس اللتين
عند العرب حتى عند النساء اللاتي كن يفضلن قتل أولادهن على المهانة والذل



ونعود إلى المشهورين من ثقيف ومن سكان ديار الطائف، فمنهم السائب بن
الاقوع الثقفي روى عن عمر بن الخطاب و كان قليل الحديث وولاه عمر ولايات
في فارس بعد ان شهد فتح نهاوند العظيم ومات باصمهان
ويوسف بن محمد بن يوسف الثقفي ابن أنثي الحجاج وهو ممن ولي مكة
تولاها في زمن الوليد بن يزيد بن عبد الملك

العرجي الشاعر

ومنهم العرجي-الشاعر المشهور- وهو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن
عثمان بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس، قال في كتاب الاغانى سمي العرجي لانه
كان يسكن عرج الطائف. وقيل سمي كذلك لما كان له ومال عليه بالعرج. وكان
من شعراء قريش، ومن شهر بالقرنل منهم ونحنا نحو عمر بن ابي ربيعة في ذلك
وتشبه به فاجاد، وكان مشغولاً باللهو والصيد حريصاً عليها قليل المحاشاة لاحد
فيهما. نقل السيد خير الدين الزركلي في كتابه «ما رأيت وما سمعت» عن كتاب
«العقد الثمين في تاريخ البلدا الامين» للمؤرخ الامام الحافظ ابي الطيب محمد

تقي الدين بن أحمد بن علي الحسيني الفاسي المكي المتوفى في منتصف القرن التاسع
 ان محمد بن هشام بن اسماعيل كان والياً على مكة لهشام بن عبد الملك فسجن العرجي
 في تهمة دم مولى لعبد الله بن عمر، فلم يزل في السجن الى أن مات . ولكن رواية
 الاغاني تخالف ذلك، فهو يقول انه كان يشبب بجيذاء أم محمد بن هشام بن اسماعيل
 الحزومي ليفضح ابنها لالحبة كانت بينهما، فكان ذلك سبب حبس محمد اياً وضر به
 له حتى مات في السجن . وذكر صاحب الاغاني انه كان صاحب غزل وفتوة وقال
 انه كان من الفرسان المعدودين مع مسleme بن عبد الملك بارض الروم وكان له معه
 بلاء حسن ونفقة كثيرة . وذكر أن العرجي باع أموالاً عظيماً كانت له واطعم ثمنها
 في سبيل الله حتى نفذ ذلك كله . وكان قد اتخذ غلامين فاذا كان الليل نصب
 قدره وقام الغلامان يوقدان فاذا نام الواحد قام الآخر، فلما كان كذلك حتى
 يصبح يقول لعل طارقاً يطرق . وأخبار العرجي كثيرة ونكاته مشهورة، والظاهر
 انه كان على كرم عريض وفتوة أكيدة الا أن الله ابتلاه بالنسيب بنساء قريش في
 شعره مما كان يعرض من يتشبه بهن للظنة وسوء القالة . ومعنى ظريف ما يحكى
 ان جارية من مولدات مكة صارت إلى المدينة فلما أتاهم موت عمر بن أبي ربيعة
 اشتد جزعها ، وجعلت تبكي وتقول : من لمكة وشعابها وأباطحها ونزهها ووصف
 نساؤها وحسنهن ؟ فقيل لها : خفضي عليك فقد نشأ فتى من ولد عثمان رضي
 الله عنه يأخذ مأخذه ويسلك مسلكه . فقالت : انشدوني من شعره فانشدها
 فسححت عينها وضحكت وقالت الحمد لله الذي لم يضع حرمه

* *

أمية بن أبي الصلت

ومن اشتهر بالنسبة إلى الطائف أمية بن أبي الصلت عبد الله بن أبي ربيعة
 ابن عوف بن عقدة بن غزاة بن قيس وهو ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن

قال صاحب الاغاني : هكذا يقول من نسبهم إلى قيس . وأم أمية بن أبي الصلت
قرشية وهي رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف

وكان أمية من أشعر العرب واليه ينسب هذا البيتان

قوم إذا نزل الغريب بارضهم ردوه رب صواهل وقياف
لا يكتون الارض عند سؤلهم لتلمس العلات بالعيدان
وهما من قصيدة أولها

قومي ثقيف إن سألت وأمرتي وهم أداقم ركن من عاداني
قل ابو عبدة : اتفقت العرب على أن أشعر اهل المدن اهل يثرب ثم عبد القيس .
ثم ثقيف ، وان أشعر ثقيف أمية بن أبي الصلت . قلوا وطمع أمية في النبوة وكان
قد نظر في الكتب وقرأها ولبس السوخ تعبداً وحرّم الخمر وشك في الاوثان
وكان مما قرأ أن نبيا يبعث من العرب فكان يرجو أن يكون هو . فلما بعث
النبي ﷺ قيل له هذا الذي كنت تنتظره فحسده وقال انما كنت أرجو أن
أكونه . وكان يرثى قتلى قريش في وقعة بدر
وما استحسن من شعره قوله معاتباً ابناً له أعضبه

غذوتك مولوداً ومنتك يافعاً تعلم بما أجني عليك وتنهل
إذا ليلة آبتك بالشجو لم أبت لشكواك الا ساهراً أنمل
كأنني أنا المطروق دونك بالذي طرقت به دوني فعبني تهمل
تخاف الردى نفسي عليك وانني لاعلم ان الموت حتم مؤجل
فلما بلغت السن والعاية التي اليها مدى ماكنت فيك أومل
جملت جزائي غلظة وفظاظة كأنك أنت النعم المتفضل

ومات ولم يؤمن بمحمد ﷺ لكنه كان يقول ان الحنيفية حق لذلك كان.

الرسول يقول ﷺ « ان كاد أمية ليسلم »

طريح بن اسماعيل الثقفي الشاعر

ومنهم طريح بن اسماعيل بن عقبة الثقفي وساق صاحب الاغانى نسبة هكذا:
 طريح بن اسماعيل بن عبيد بن أسيد بن علاج بن أبي سلمة بن عبد العزيز بن عزة
 ابن عوف بن قسي وهو ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة
 ابن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر . قال ابن الكلبي : ومن النسابين من
 يذكر أن ثقيفا هر قسي بن منبه بن النبيت بن منصور بن يقدم بن أقصى بن
 دعبي بن اياد بن زرار . وروى الكلبي ان ابارغال هو ابو ثقيف كلها وانه من
 بقية نمود وكان ملكا بالطائف . وقيل بل ذكرت القبائل عند النبي ﷺ فقال
 «قبائل تنمى الى العرب ، وليسوا من العرب حمير من تبع وجرهم من عادو ثقيف من نمود»
 وكان طريح شاعراً فخلاً انقطع الى الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي كان
 يمت اليه بالقرابة لان أم الوليد ثقفية واستفرغ شعره في الوليد وأدرك دولة
 بني العباس ومات في زمان المهدي العباسي وقبل في زمان الهادي

وكان الوليد مكرماً لطريح عظيم البر به . وكان طريح يغلو في مديحه ما شاء ،
 قيل ان الوليد جلس يوماً في مجلس له عام ودخل اليه أهل بيته ومواليه والشعراء
 وأصحاب الحوائج فقضاها وكان أشرف يوم رؤي له فأنشده طريح ما يأتي

انت ابن مسلتح البطاح ولم تطرق عليك الحني والولج
 طوبى لفرعيك من هنا وهنا طوبى لاعرافك التي تشح
 لو قلت للسيل دع طريقك والموج عليه كالهضب يعتلج
 لساخ وارند أو لساكن له في سائر الارض عنك منزعج

مسلتح البطاح ما اتسع منها . والحني ما انخفض من الارض . والولج كل
 حوض في الوادي ، أي لم تكن بين الحني والولج ليخفى مكانك ، وطوبى لفرعيك

من هنا وهنا أي انه كريم الاب والام من قريش وثقيف، وانه يطعمه من هيبته
كل شيء حتى انه لو أمر السيل بالانصراف لاطاعه .

قيل انه لما انقضت دولة بني أمية واديل منهم لبني العباس دخل طريح على
المنصور في جملة الشعراء فقال له المنصور : لاحياك الله ولا يياك أما انتقت الله ،
وبلك حيث تقول للوليد بن يزيد

لوقلت للسيل دع طريقك والمو ج الخ
فقال طريح : قد علم الله عز وجل أنني قلت ذاك ويدي ممدودة اليه تبارك
وتعالى واياه تعالى عنيت فقال المنصور : ياربيع أما ترى هذا التخلص ؟
ويجبني جداً من شعر طريح هذه القصيدة في الوليد

لم انس سلمى ولا ليالينا	بالحزن اذ عشنا بها رغد
اذ نحن في ميعه الشباب واذ	أيامنا تلك غضة جدد
في عيشة كالفرند عازبة الش	قوة خضراء غصنها خضد
نحسد فيها على النعيم وما	يوانع إلا بالنعمه الحسد
أيام سلمى غريرة أنف	كانها خطوط بانه رؤد
ويحي غداً إن غدا علي بما	أكره من لوعة الفراق غد
قد كنت أبكي من الفراق وأح	يانا جميع ودارنا صدد
فكيف صبري وقد تجاوب بال	فرقة منها الغراب والصرد

ومنها في المديح

دع عنك سلمى لغير مقلية	وعد مدحا بيوته شرد
للافضل الافضل الخليفة عب	د الله من دون شأوه صعد
في وجهه النور يستبان كما	لاح سراج النهار إذ يقد
يمضي على خير مايقول ولا	يخلف ميعاده اذا يعد

من معشر لا يشم من خذلوا عزاً ولا يستذل من رقدوا
 بيض عظام الحلوم حدهم ماض حسام وخيرهم عتده
 أنت امام الهدى الذي أصلح الـ له به الناس بعد ما فسدوا
 لما أتى الناس ان ما كهم اليك قد صار أمره سجدوا
 واستبشروا بالرضا تباشروهم بالخلد لو قيل انكم خلد
 رزقت من ودهم وطاعتهم مالم يحده من والد ولد
 أثلجهم منك أنهم علموا أنك فيما وليت مجتهد
 ألفت أهواءهم فاصبحت الـ ضغان سلما وماتت الخقد
 كنت أرى ان ما وجدت من الـ فرحة لم يلق مثله أحد
 حتى رأيت العباد كلهم قد وجدوا من هواك ما أجد
 قد طلب الناس ما بلغت فما نالوا ولا قاربوا وقد جهدوا
 يرفعك الله بالتسكرم والتقه وى فتعلو وأنت مقتصد
 حسب امرىء من غنى تقربه منك وإن لم يكن له سند
 فانت آمن لمن يخاف ولا مخذول أودى نصيره عضد

غيلان الشاعر

ومن يذهب إلى الطائف من الشعراء غيلان بن سلمة بن معتب بن مالك بن
 كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن قسي وهو ثقيف وأمه سبيعة بنت عبد شمس بن
 عبد مناف بن قصي أخت أمية بن عبد شمس أدرك الاسلام فأسلم بعد فتح
 الطائف ولم يهاجر ، وأسلم ابنه عامر قبله وهاجر ومات عامر بطاعون عمواس بالشام
 سنة ١٨ وكان مع خالد بن الوليد وكان فارس ثقيف في زمانه فرثاه غيلان بقوله
 عيني تجود بدمعها الهتان سمحا وتبكي فارس الفرسان
 يا عامر من للخير لما أحجمت عن شدة رهوبة وطعان

لو أستطيع جعلت مني عامراً بين الضلوع وكل حي فان
وكان له من الولد غير عمر ثلاثة عمار ونافع وبادية ، وقيل إن خشم جمعت
جوعاً من اليمن وغزت ثقيفاً بالطائف فخرج اليهم غيلان بن سلمة في ثقيف فقاتلهم
قتالاً شديداً فهزمهم وقتل وأسرهم من على الاسرى فقال :

ألا يا أخت خشم خبرينا بأي بلاء قوم تفخرينا
جلينا الخيل من اكناف وج وأية نحومك بالدار عينا
تركن نساءكم بالدار نوحا سيكون البعولة والبنينا
جمعتم جمعكم فطلبتمونا فهل أنبئت حال الطالبينا

واستشهد نافع بن غيلان مع خالد بن الوليد بدومة الجندل فجزع عليه غيلان وقال :

ما بال عيني لا تنمض ساعة إلا اعترتني عبرة تغشاني
أرعى نجوم الليل عند طلوعها وهنا وهن من الغروب دوان
يا نافعاً من لغوارس أحجمت عن فارس يعلو ذرى الاقران

وكثر بكاء غيلان على نافع فعوتب في ذلك فقال : والله لا تسمح عيني بمأثما
فأضن به على نافع ثم تطاول العهد ففتر مابه فقيل له في ذلك فقال : بلي نافع وبلي
الجزع ، وفني وفنيت الدموع واللاحاق به قريب .

وفد غيلان على كسرى في خبر استوفاه صاحب الاغانى فعهد اليه كسرى
بان يديني له قصراً بالطائف ففعل

ومن ينسب إلى الطائف واشتهر جداً المختار الثقفي بن ابي عبيد ولد عام
الهجرة ورحل من الطائف مع أبيه في أيام عمر حين ندب الناس إلى العراق وكان
منقطعاً إلى بني هاشم وصحب علياً وسكن البصرة بعد علي ، ولما تولى بنو أمية
نفوه إلى الطائف بلده فأقام بها إلى ان بويع عبدالله بن الزبير بمكة فأتاه واستعمله
ابن الزبير على الكوفة فخرى بينه وبين مصعب بن الزبير خلاف أدى إلى القتل
فقتله مصعب في سنة ٦٧ وقيل ادعى النبوة فقتله ابن الزبير

تخطيط الطائف

وسبب نزول ثقيف بها

وانذكر الآن ما قيل عن تخطيط الطائف وسبب نزول ثقيف بها فنقول
قال الهمداني صاحب « صفة جزيرة العرب » الذي لم يؤلف في بابه مثله مايلي :
« الطائف مدينة قديمة جاهلية وهي بلد الدباغ يدبغ بها الالهب الطائفية
المعروفة وتسمى المدينة أيضا الطائف والمعنى مدينة الطائف ، وساكنو الطائف
ثقيف ، ويسكن شرقي الطائف قوم من ولد عمرو بن العاص ، وواد قريب من
الطائف يقال له (برد) فيه حائطان لزبيدة عظيمان يقال لموضعهما (وج) وبشرقي
الطائف واد يقال له (لية) يسكنه بنو نصر من هوازن . ومن يماني الطائف واد
يقال له (جفن) لثقيف وهو بين الطائف وبين معدن البرام ، ويسكن معدن البرام
قريش وثقيف . ومن قبلة الطائف أيضا واد يقال له (مشرقي) لبني أمية من قريش
ووادي (جلذان) منقلب إلى نجد في شرقي الطائف يسكنه بنو هلال . وفي قبلة
الطائف حائط أم المقتدر الذي يدعى (سلامة) وبين الطائف وبين عرفة وادي نعمان
وفيه طريق الطائف المختصرة إلى مكة وأما المحجة فعلى قرن المحارم » انتهى
قلت أما ان الطائف قديمة جاهلية فما لاشك فيه . وقال في صبح الاعشى :
انها كانت قديما للعالمقة ثم نزلها ثمود قبل وادي القرى ويقال انه نزلها عدوان
بعد العالمقة وغلبهم عليها ثقيف فهي الآن دارهم ،
وأما الدباغ فليس له أثر اليوم فيما رأيت . وأما برد (بالتحريك) فالذي سمعته
من أهل الطائف انه اسم الجبل الذي في غربي الطائف يبعد عنها نحو ثلاث إلى أربع
ساعات وهو أعلى جبل هناك ومن أسفله يأتي ماء الشناة ومنه يسيل وادي وج . ولا

ينافيه قول الهمداني انه واد فان الجبل لا يكون بلا واد والوادي لا يتصور وجوده. بلا جبل ففد يكون اسم « برد » للجبل والوادي معاً. وهذا الجبل شديد البرد ومنه اسمه « برد » لدال على برده إلا انه لا ينزل عليه الثلج في الشتاء مثل جبال الشام وإنما ينزل البرد (حركة) وهو حب الغمام ويتجمد فيها الماء. والجبال في جزيرة العرب وإن أذفت على جبال الشام في الارتفاع فانها لوقوعها في المنطقة الحارة (إن الهمداني يستعمل الحبة بالكسر بمعنى المنطقة ولعله أخذها من قولهم الحبة مثثة. طريقة من رمل أو سحاب، والحبة من الثوب شبه الطرة، وقيل شبه طية من الثوب مستطيلة) لا ينزل عليها الثلج مثل جبالها فلماذا لا تجدد في الجزيرة الانهار الكبار التي نجدها في الاراضي الضاربة في الشمال (١)

وقد ورد في كتب اللغة اسم « برد » و « بردى » و « برديا » لاماكن كثيرة من أنهار وغدران وجبال وغيرها وقيل ان « برد » وضبطها البكري بكسر الراء — جبل في أرض عطفان، ولا أظن انه هو هذا الجبل الذي بقرب الطائف لان هذا مفتوح الراء ثم لان عطفان وهم بطن من قيس — عيلان كانوا ينزلون بوادي القرى شمالي الحجاز وبجبل اجا وسلمى فليست منازلهم بالطائف وجبالها وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان « برد » حركة بفتح الراء وقال انه موضع في قول بدر بن حزان الفزاري :

ما اضطرك الحرز من ليلي إلى برد يختاره معقلا عن جش أعيار

ولم يعين هذا الموضع. اما جش أعيار الذي ذكره بدر الفزاري فهو موضع أيضاً لم يذكر ياقوت أي موضع هو؟ وجاء في تاج العروس هذا البيت منسوبا الى بدر المازني لا بدر الفزاري. ولم يفسر « جش اعيار » الا بقوله موضع

(١) يقول بعض علماء الافرنج انه كان فيها انهار عظيمة وعمران عظيم قبل

عصر التاريخ وبدل على ذلك وجود الوديان العميقة

وأغرب منه ان البيت نفسه وارد في لسان العرب منسوباً إلى النابغة «وجش أعيار» غير مفسر فيه إلا بقوله موضع؛ وأورد ياقوت بيتاً آخر عن «برد» مفتوح الراء للفضل بن العباس اللهمي :

اني إذا حل أهلي من ديارهم بطن العقيق وأمست دارها برد

وبعده :

تجمعنا نية لا اخل واصله سمدى ولا دارنا من دارهم صدد
ولا نقدر أن نعرف منه هل برد المقصود في هذا الشعر هو هذا الجبل الذي
نحن بصده أم غيره ؟ وقد ورد اسم « بردى » بالالف المتصورة لجبل في الحجاز
فهل ياترى هو هذا الذي يقولون له « برد » وقد أوردوا شاهداً عليه قول النعمان
ابن بشير كافي تاج العروس

يا عمرو لو كنت أرقى الهضب من بردى او الملا من ذرى نعمان او جردا
بما رقيتك لأستهنوت مانعها فهل تكونين الا صخرة صلدا
فلا شبه أن يكون هو المراد وذلك نظراً لذكره « نعمان » وهو الوادي الذي
بين مكة والطائف ومنه الى « الهدا » العقبة الكبرى التي يقال لها « الكبرى
الكبرى » واما « جرد » محركة فهو جبل في بني سليم

واما قول الهمداني « ان في برد حائطين كبيرين لزبيدة عظيمين يقال لموضعهما
وج » فأظنه يعني بهما « الوهط » و « الوهيط » الاول بفتح فسكون والثاني
بالتصغير وذلك انه لا يوجد في سفوح برد مياه جارية تسقي بساتين الافي الوهط
والوهيط، الاول جار الآن في وقف الاشراف ذوي زيد والثاني يخص ذرية
الشريف عون الرقيق من ذوي عون . ولقد ورد ذكر الوهط في معجم البلدان
قال ياقوت : والوهط المكان المطمئن المستوي ينبت العضاة والسمر والطلح وبه
سمي الوهط .. وهو مال كان اعمرو بن العاص بالطائف وهو كرم كان على الف

الف (أي مليون) خشبة شري كل خشبة بدرهم. قال ابن الاعرابي: عرّش عمرو ابن العاص بالوهط الف الف عود كرم على الف الف خشبة ابتاع كل خشبة بدرهم فحج سليمان بن عبد الملك فر بالوهط فقال: أحب أن أنظر اليه. فلما رآه قال هذا أكرم مال وأحسنه، ما رأيت لاحد مثله، ولولا ان هذه الحرة في وسطه. فقيل له: ليست بحرة ولاكنها مسطاح الزيب و كان زيبه جمع في وسطه فلما رآه من البعد ظنه حرة سوداء. وقال ابن موسى الوهط قرية بالطائف هي على ثلاثة أميال من وج كانت لعمر بن العاص

قلت: لما فتح عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر ثم غزا منها طرابلس مر بالجليل الاخضر الذي يندر نظيره في الخصب والامراع وخضرة البقاع فقال: لولا أموالى بالحجاز ما اخترت على هذه الارض. فكنت إذا قرأت هذا الكلام ولم أكن عرفت جبال الطائف أعجب منه قائلًا ماذا عسى أن يكون لسيدنا عمرو من الاموال في قطر ناشف كالخجاز؟ ولما ذهبت في جهاد طرابلس الغرب الى الجبل الاخضر وأقيمت به أشهراً وعرفت عين منصور وعين ماره والقيقب وشحات (محل سيرنا القديمة) والمرج وغيرها، وسرت بين فينان الدوح ومشبك الشجر الذي لا يتخلله نور الشمس في كثير من المواضع مسافة عشرة أيام ورأيت تلك المناظر المشرفة من شاهق على المحر لا يحاكي فسحة منظرها الا عالية وعبية وبيت مري وبرمانا وما في خطها من جبل لبنان، قلت لنفسى لما عرفت ما الجبل الاخضر وما هو من طيب النجمة علمت معنى افتتاح عمرو بن العاص بالجليل الاخضر لكنني لم أعلم وجه مقايسته له بالحجاز وعدم رغبته عن أمواله في الحجاز الى ذلك الجبل المنقطع النظير في الخضرة والنضرة، لا أنى لما شهدت جبال الطائف وأقيمت بها أيضا عدة أشهر علمت ان عمرو بن العاص وجهها لقول وحقا في التيه بأمواله في الحجاز، فان في جبال الطائف جنانا مدت عليها الخضرة وراقها، ورياضا

شدت بها النضرة نطاقها، فاما الوهط فقد انحط كثيراً عن درجته السابقة ورتبته السامقة ولا تجد فيه لاف الف عود كرم ولا الف عود كرم ولا مسطحا واحداً للزبيب (١) ومن أغرب الأمور التي حدثت كثيراً في أرض الوهط على ما هي عليه الآن فلم أجدها تسع هذه النعمة التي وصفوها ، ولم أجدها للماء كافياً لشيء منها ، بل رأينا عين الوهط وكان ذلك في شهر أغسطس لا تجري إلا الى مسافة قصيرة جداً وقال لنا أهل القرية انها في بعض السنين التي يكون المطر فيها نزراً تنقطع تماماً ويضطرون الى الاستقاء من المئناة أي من مسافة ساعة . فكيف كان الوهط بتلك النعمة التي حدثوا عنها وهو الآن لا يكاد ماؤه يسقى بعض حيطان ، وقد ينقطع بعض السنين ، ان في ذلك لسراً . والذي أظنه انه قد كان الشجر في جبال الطائف لذلك العهد أكثر جداً فكان المطر أغزر وكانت العيون أجري وكانت الجنان أعظم ، وان الذي أصاب هذه الجبال من قلة المطر التي لا تسمع أهل تلك الديار إلا شاكين منها انما هو من أثر قطع الاشجار وزوال الحراج المتتعة . وهناك سبب آخر للغصب والعمران قد زال أيضاً بتناول الأعصر وهو السدود التي كانوا يجمعونها على الأودية ومجاري المياه الشتوية فكانت تخزن المياه الى مدة طويلة وتسقى الأراضات العطاش وتمسك بأرماق الخضرة في سني القحط ،

(١) الذي في لسان العرب وفي القاموس هو المسطح لا المسطح قال في اللسان والمسطح تفتح ميمه وتكسر مكان مستو يبسط عليه التمر ويجفف ويسمى الجرين يمانية ، وقد استدرك صاحب تاج العروس على القاموس بقوله والمسطح لغة في المسطح . ومنه قول ياقوت الحموي او قول الذي نقل عنهم ونحن أبصنا حبل لبنان نقول مسطح تين ومسطح زبيب)

وأينما ذهبت في جزيرة العرب تجد سدوداً دارسة وقنياً خربة (١)
ولما كن العرب منحصرين في الجزيرة لا يتجاوز ملكهم شطوطها البحرية
وبادية الشام من الشمال كانت الجزيرة عامرة والمدن كثيرة والقرى متصلة والمزارع
ناضرة والقصور والجواسق وأما كن النزهة لا يأخذها العد ، فإن أراضيها المنبتة
كانت تضيق بأهلها فكانوا يحملون فيها بكء عظيم ليستغلوا منها كل ما يقدرون
أن يستغلوه ويتذرعون للخصب بأصناف الحبل . فلما ظهر الاسلام وهب العرب
للفتوحات ونشر عقيدة التوحيد من جبال الهند كوش الى جبال الالب وكان
خلفاؤهم يندبونهم للغزوات ويستجيشونهم بدون انقطاع ، وكانوا هم مادة الاسلام

« ١ » حاشية للؤاف : قرأت في ارجوزة أحمد بن عيسى الرداي في الحج قوله

الضيعة الطلحي مستقيمة	صادرة عنها تؤم الزيمة
ثم على سبوحة القديمة	حيث ربد الصخرة القديمة
مطربة في السير ذي الزيمة	الى اربك تنلى صميعة
حيدة في الركب لا مابة	باقية اعراقها كريمة
الى لا رجوان ترى سلبية	محمودة في الركب لامذيمة

قال الهمداني في تفسير هذه الايات ضيعة الطلحي من قريش نخل قديمت .
الزيمة موضع فيه بستان ابن عبيد الله الهاشمي وكان في ايام المفتر على غاية العمارة
وكان يغل خمسة الاف دينار مثقال وفيه حصن المعانلة مني بالصخر ويحميه بنو
سعد من ساكنه عروان وعدد جذوعه الوف . وفيه نيل مستخرج من وادي نخلة
عز يز يفضى الى فوارة في وسط الحائط تحت حنية ثم الى ماجل كبير، وفيه الموز
والحنا وانواع من البقول . وسبوحة موضع واربك عقبة تضاف الى المكان فيقال
عقبة اربك يضم الالف واربك بفتحها اه

قلت مررت بالزيمة مراراً ولم اجيد شيئاً من تلك العمارة التي كانت في ايام
المفتر ولا حصناً هذا وصفه . وإنما هناك دين فوارة من الصخر يسمع خريرها
من بعيد وليس فوقها حنية ويسقي بها العرب بعض زرائع واشجار في الوادي

وحملة الدين الجديد الى الامم ، كانت القواصي تأكلهم والحروب تفني منهم مئات
الالوف ، وكانت قبائلهم أصبحت منتشرة من الصين الى الهند الى فارس الى
الروم الى مصر الى أفريقية الى الاندلس الى فرنسة الى جزائر البحر فلم يبق
منهم في الجزيرة العدد الذي يقوم بعمرانها

وكانوا في هذا أشبه باسبانية التي بعد فتحها للمكسيك ولاريكا الجنوبية
قد تقهقرت الى الورا بما هاجر من أهلها الى تلك الديار التي فق فيها الاسبانيول
في العدد من بقى منهم في وطنهم الاصيل

فهذا هو السبب الحقيقي في تقاص عمران الجزيرة بعد الاسلام حتي عاد
الوهط . مثلاً دسكرة حقيرة بعد أن كان مسطاح الزيب فيه يظن حرّة لسواده واتسائه
ومما لا ريب فيه ان كروم الطائف كانت لعهد البعثة أكثر مما هي الآن
مراراً وكانت الخيرات فوق النصور ، فقد روى البلاذري في «فتوح البلدان»
ان سفيان بن عبدالله اثنى في كتب الى عمر وكان عاملاً له على الطائف يذكر ان
قبلة حيلة انا فيها كروم وفيها من الفرسك (١) والرمان ماهو أكثر غلة من الكروم
أضعافاً . تأمره في العتمر فكاتب اليه عمر : ليس لها عشر

ويظهر من كلام البلاذري انه كانت تصدر من الطائف غلات عظيمة من
الزيب ومن سائر المحصولات ومن العسل ، ولقد بقي من هذا شيء لكنه
لا يقاس في قاييل ولا كثير إلى ما كان في الجاهلية وصدر الاسلام ، وانما غاضت
هذه الغلات بغيض العمران الذي يتوقف على الرجال . وكان أكثر الرجال
خرجوا الى الفتوحات واعتمروا أطراف الارض .

«١» المؤلف : الفرسك هو ما نسميه نحن في الشام بالدراقن بالتشديد وقد يخفف . قال

وتضربني الحبيبة بالدراقن وتحسني الحبيبة لا اراها

ويقولون له في مصر والمغرب الخوخ . وأما في اليمن فيقولون له فرسك كما في

الحجاز وهي لفظ فارسية فان اسم هذه الفاكهة فرسك في بلاد المعجم . ويظهر ان
الامان اخذوها من فارس فهم يقولون لها ايضاً فرسك Pfirsich

والأصلح الآن لاستئناس العمران طريقتان : إحداهما زرع الحراج والاكتثار من غرس الاشجار حتى تكثر الامطار ، فان الله خلق لكل شيء سبباً وهذه من أسباب الامطار . والثانية الرجوع الى السدود والخزانات التي تحفظ المياه وتروي الأرضين عند عطشها ، وعند الوهط مكان ضيق على وج لو ان ادارة الزراعة في الحجاز بنت فيه سداً لما كانت كلفته كثيرة ولاستأنف به الوهط عمرانه القديم

وأما وادي « لية » الذي يسكنه بنو نصر من هوزان فقد زرته وبنت فيه ليلة . وهو واد ضيق مستطيل يمتد مسافة اربع ساعات ، مبدؤه من بلادالسفانية من ثقيف . وهو ينحدر نحو الشرق الجنوبي وعليه من الجانبين البساتين والجنن والزروع وكلها تسقى بالسواني لأن مياه الوادي تشح كثيراً في الصيف وقد ينقطع بعضها عن بعض فلا يبقى منها الا غدران تردها المواشي اشهرها الذي يقال له غدير البنات . وبيوت سكان الوادي مرتفعة عن النهر احتياطاً من السيل لأنه كثيراً ماتغطي المياه على الجانبين . والبيوت مبنية بالحجرتن بعضها برأجا منيعة . وللوادي تربة هي الحد الاقصى في الخصب فتجد من ثماء الشجر ما يحار له العقل . وجميع ما في هذه الجنان اشجار مثمرة منها الكرم والسفرجل والمان والفرسيك والحماط والكمشوى وغيرها وكلها عدا الحماط أي اثنين هي في الطبقة العليا بين الفواكه . أما المان فهو كحب الياقوت ليس له نظير منظرأ وطما وقد اشتهر وادي لية به . ومما يجب على ادارة الزراعة في الحجاز أن تبني في أعلى المعمود من هذا الوادي سداً يتكون منه خزان يكفل جميع حاجة الوادي في ايام القميط عندما تشح آبار السواني . وقيل لي إن خزاناً كهذا لا تزيد كلفته على خمسة أو ستة آلاف جنيه على حين مايزيده من ريع البساتين يعدل هذه القيمة من أول سنة . فان أثمان الفواكهة في مكة لا يعادلها شيء ويمكن الحكومة أن تبني لاهل

وادي لية هذا الخزان ثم تسترد منهم كلفته تقسيماً
 هذا وقد ذكر ياقوت هذا الوادي في المعجم فقال : لية بتشديد الياء وكسر
 اللام لها معنيان : اللية قرابة الرجل وخاصته واللية العود الذي يستجمر به وهو الالوء
 ولية من نواحي الطائف مر به رسول الله ﷺ حين انصرافه من حنين يريد
 الطائف وأمر وهو في لية بهدم حصن ملك بن عوف قائد غطفان وقل حفاف
 ابن ندبة :

سرت كل واددون رهوة دافع وجلدان أو كرم بلية محقق

في ابيات ذكرت في جلدان وقال مالك بن خالد الهذلي

امال ابن عوف انما الغزو بيننا ثلاث ليال غير مغزاة اشهر

متى تنزعوا من بطن لية تصبحوا بقرن ولم يضمر لكم بطن محمر

اه واستشهد بابيات أخر على ذكر لية

وأما جلدان بكسر الجيم وسكون اللام — واختلف في الدال فمنهم من رواها

معجمة ومنهم من رآها مهملة — فوضع بقرب الطائف . قال ياقوت يسكنه بنو

نصر بن معاوية من هوازن ، ومن الامثال المضروبة : أسهل من جلدان . فنقل

ياقوت عن نصر بن حماد انه حمى قريب من الطائف مستو كالراحة ، وجاء في

المعجم عن جلدان هذان البيتان لحسن بن ابراهيم الشيباني من سكان الطائف :

وجلدان العريض قطعن سوقا يطرن بأجرعيه قطعاً سكونا

تخال الشمس إن طلعت عليها لناظرها علالي أو حصونا

ومن الامثال المضروبة . صرحت به جلدان وبجدان وبجداء اذا تبين لك

الامر وصرح ، والتاء في قولهم صرحت اشارة الى القصة أو الخطة

وقال أمية بن الاسكر :

أصبحت فرداً راعي الضان يلعب بي ماذا يريك مني راعي الضان

أعجب لغيري اني تابع سلفي أعمام مجد واخوان وأخذان
وانعق بضأنك في أرض تطيف بها بين الاصافر وانتجها بجلذان
وقال خفاف بن ندبة يذكر جلذان :

ألا طرقت أسماء من غير مطرق وأنى-وقد حلت بنجران-نلتقي؟
سرت كل واد دون رهوة دافع وجلذان أو كرم بلية محدد
تجاوزت الاعراض حتى توسدت وسادي لدى باب بجلذان مغلق

فالكروم المحدة في (لية) هي من قديم الزمان
وأما سكان وادي (لية) الآن فاولهم الاشراف الذين يقال لهم الفغور ولهم
أفضل البساتين والباقي من العرب شاطئاً، وأكثرهم من عتبية ، ويقال إن
عتبية هي من هوازن ، وقد بحثت عن عتبية في الكتب القديمة فلم أجد إلا قولهم
عتبية قبيلة من العرب ، وقد ذكروا ان حياً من اليمن اسمه عتيب

وأما هوازن فمن قبائل قيس ، وهم بنو هوازن بن منصور بن عكرمة بن
خصفة بن قيس عيلان ، ومن هوازن بنو سعد بن بكر بن هوازن كانوا أفصح
العرب وكان النبي ﷺ رضيعاً فيهم ، قال في صبح الاعشي نقلاً عن العبر :
وقد افترق بنو سعد هؤلاء في الاسلام ولم يبق لهم حي فيطرق ، إلا ان منهم
فرقة بأفريقية من بلاد المغرب بنواحي باجة يعسكرون مع جند السلطان

قلت : وقد أصاب هذا التشدت كثيراً من قبائل العرب بسبب الفتوحات
الاسلامية في صدر الملة والرحيل الى الآفاق ، ففي كاشغر قبائل تركية أصلها
من العرب من عهد قتيبة فاتح بلاد الترك ، وفي الطاغمتان على شواطئ بحر
الخرز بطون كثيرة أصلها عرب من زمن الفتح . وفي السند والهند أناس كثيرون
متحدرون من أصول عربية . وفي افغانستان وفارس أسر كثيرة أصولها عربية ،
وفي الاندلس وفي جنوبي فرنسا وفي صقلية وعلى شطوط ايطالية أمم أصلها من

العرب ، هذا عدا القبائل التي تفرقت في الاقطار والتي هي الى الآن عربية كالشام والجزيرة والعراق ومصر والسودان وبرقة وطرابلس والصحراء الكبرى الى اواسط افريقية وبحيرة تشاد ، وكذلك تونس والجزائر والمغرب والسوس الاقصى الى تنبكتو ، وأصف الى هذا بلاد الحبشة والصومال وزنجبار وجزائر القمر ومادغشقر وموزامبيق ، ولا تجد في افريقية قطراً إلا فيه أقوام من العرب ولا تنس سنغافورة والجاوى وسومطرة الخ (١)

ومن هوازن بنو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ، ومن بني عامر بن صعصعة بنو كلاب الذين هاجروا الى الشام وكانت لهم دولة وصولاً في حلب . ومن بني عامر بن صعصعة بنو هلال ، وهم الذين ذكر الهمداني انهم يسكنون وادي جلدان ، وقد هاجر بنو هلال الى مصر والشام والمغرب ولم يبق لهم في جبال الطائف الا آثار وأخبار فكل شيء قديم يقول عنه الالهالي انه من زمن بني هلال . قال الهمداني وكان لهم بلاد صعيد مصر كلها وذكروا بنو سعيد في عرب برقة وقال : منازلهم فيما بين مصر وافريقية ، ولم يزلوا الى أن بايعوا لابي ركة في أيام الحاكم العبيدي فرماهم بغيرهم من العرب وأفنى أكثرهم ونزع من بقي منهم الى المغرب الاقصى فهم مع بني جشم هناك ، ومنهم طائفة بحلب وطوائف في اسوان واخميم وأصفون واسنا من الصعيد

ولا يزال من بني هلال في الحجاز حرب فيما ذكره ابن سعيد ، وهم ثلاثة بطون بنو مسروح وبنو سالم وبنو عبيد الله

ومن هوازن بنو عقيل بضم العين وفتح القاف وهم بنو عقيل بن كعب بن

(١) العبرة الكبرى في هذا ان العرب كانوا في ايام حياتهم ودولهم يدحلون مصر او الفطر من بلاد الاعاجم فيحولون اهلها الى دينهم وانتمهم بقوة تأثيرهم في الهداية ثم انعكست القضية فتحولوا هم الى لغة بعض الاقطار والى دين بعض آخر ولغته فهل يعتبرون فيعلموا أكتب يرحمون؟

ربيعة بن عامر بن صعصعة . وكانت منازلهم بالبحرين وكان معهم من العرب بنو تغلب وبنو سليم (بضم ففتح) فاقتتلوا في احدى المزارع ، وكان بنو تغلب وبنو عقيل يداً على بني سليم فأخرجوهم من البحرين فجاءوا إلى مصر ومنها نزلوا ببرقة ، فأكثر عرب الجبل الاخضر من بني سليم بن منصور . ثم اقتتل بنو تغلب وبنو عقيل فتغلب بنو تغلب على هؤلاء ، فخرجوا إلى العراق ومنها تغلبوا على الموصل والجزيرة وكانت لهم هناك دولة وسلطان ، ثم لما جاء الاتراك السلاجقة وانزعوا منهم بلاد الجزيرة رجع منهم أناس إلى البحرين وتغلبوا على بني تغلب فيها ومن بني عقيل بنو عبادة بالجزيرة الفراتية وبنو خفاجة بالعراق وكانت لهم إمارة فيه

ومن بطون هوازن بنو جشم وكانوا بالسراوات وهي تلال تفصل بين تهامة ونجد ، وسراواتهم متصلة بسراوات هذيل ، وقد هاجر أكثرهم إلى بلاد المغرب وثقيف من بطون هوازن وقد تقدم ذكر نسبهم ، ويقال لوادي وج بلاد ثقيف ، وللمدينة الطائف سوق ثقيف — إلى يوم الناس هذا

عرض الطائف الجغرافي وسبب تاسيسه

والطائف في الاقليم الثاني وعرضها احدى وعشرون درجة كما في معجم البلدان ، والظاهر في تسميتها بالطائف انه من الحائط المصدق بها ، ومنه قول أبي طالب بن عبدالمطلب * نحن بنينا طائفا حصينا * قال ياقوت : وهي مع هذا الاسم الفخم بليدة صغيرة على طرف واد ، وهي محلتان احدهما عن هذا الجانب يقال لها طائف ثقيف ، والاخرى على هذا الجانب يقال لها الوهط ، والوادي بين ذلك تجري فيه مياه المدافع التي يدبغ فيها الاديم يصرع الطيور راثحتها إذا مرت بها ، ويبيتها لاطئة حرجة ، وفي أكنافها كروم على جوانب ذلك الجبل

ففيها من العنب العذب مالا يوجد مثله في بلد من البلدان ، وأما زبيبها فيضرب
بحسنه المثل ، وهي طيبة الهواء شامية ربنا جمد فيها الماء في الشتاء ، وفواكه أهل
مكة منها ، والجبل الذي هي عليه يقال له غزوان ، ونقل عن عرّام ان الطائف
ذات مزارع ونخل وأعقاب وموز وسائر الفواكه ، وبها مياه جارية وأودية تنصب
منها الى تباله وجل أهل الطائف ثقيف وحير ، وقوم من قريش وهي على ظهر
جبل غزوان ، وبعزوان قبائل هذيل اهـ

فان يظهر ان هذا الواصف لم يشاهد الطائف ، لانه لو شاهدها لعرف انه
ليس بها نخيل ولا موز إلا اذا كان يعني بالطائف جميع البلاد التي حولها فقد
يوجد في الهابط من جوارها شيء من النخيل

قلوا: وكانت الطائف تسمى وجا باسم وج بن عبد الحلي من العماليق وهو أخو
أجا الذي سمي به جبل طيء ، قالوا وكان رجل من الصدف يقال له الدمون بن
عبد الملك قتل ابن عم له بمحضر موت وفر هاربا . فأتى مسعود بن معتب الثقفي
وكان معه مال كثير فرغب إلى ثقيف أن يزوجه فزوجوه ، وكان من رأيه أن
يبني لهم طوفا مثل الحائط حتى لا يصل اليهم أحد من العرب ، فبناه لهم فسميت من
ذلك الوقت الطائف ، وقيل بل كانت الطائف بين ولد ثقيف وولد عامر بن
صمصمة ، فلما كثرت الحيات قالت ثقيف لعامر : انكم اخترتم العمدة على المدن والوبر
على الشجر ، فليست تعرفون مانعرف ، ولا تلاحظون مانلطف . ونحن ندعوكم إلى
حظ كبير لكم ما في أيديكم من الماشية والابل ، والذي في أيدينا من هذه الحدايق ،
فلكم نصف ثمره فتكونوا بادين حاضرين يأتيكم ريف القرى ولم تتكلفوا مؤونة
وتقيمون في أموالكم وماشيتكم في بدوكم ولا تتعرضون للوباء (كانوا يعلمون ان الوباء
انما يكون في الحواضر) ولا تشتغلون عن الرعى . ففعلوا ذلك فكانوا يأتونهم
كل عام فيأخذون نصف ثلثهم ، وقد قبل ان الذي وافقهم عليه كان الربيع

فلما اشتدت شوكة ثقيف وكثرت عمارة وج رمتهم العرب بالحسد، وطمع
 فيهم من حولهم وغزوهم، فاستنقوا بني عامر فلم يعثوهم فأجمعوا على بناء حائط
 يكون لهم حصناً، فكانت النساء تلبن اللبن والرجال يبنون الحائط حتى فرغوا
 منه وسموه الطائف لاطافته بهم وجعلوا الحائطهم بابين (أحدهما) ابني يسار
 (والآخر) ابني عوف وسموا باب بني يسار صعباً وباب بني عوف ساحراً، ثم
 جاءهم بنو عامر ليأخذوا متعودوه فنعوهم منه وجرت بينهم حرب انتصرت فيها
 ثقيف وتفردت بملك الطائف فضر بهم العرب مثلاً، فقال ابوطالب بن عبد المطلب
 منمنا أرضنا من كل حي كما امتنمت بطائفها ثقيف
 أتاها معشر كي يسابوهم خلات دون ذلكم السيوف
 وقال بعض الانصار :

فكونوا دون بيضكم كقوم حوا أعناهم من كل عاد

وذكر المدائني: ان سليمان بن عبد الملك لما حج مر بالطائف فرأى ببادر
 الزيب فقال ماهذه الحرار؟ فقالوا ليست حراراً ولكنها ببادر الزيب، فقال
 لله در قسى: بأي أرض وضع سهامه، وبأي أرض مهد عش فراخه اه

قلت لعل سليمان بن عبد الملك سمع بذكر عن الطائف الشهير فحج اليه من
 بعد ان حج البيت ورأى مارأى منه، وهنا يخطر ببالي قصة عن شدة نهمه رواها
 عنه أحد أصحابه وهو انهم ذهبوا معه يوماً إلى بستان للنزهة فأتوه بزنبيلين أحدهما
 ملآن تيناً والآخر ملآن بيضاً، فلم يزل يأكل من هذا تينة ومن هذا بيضة حتى
 أتى عليهما، ثم قام يطوف على الاشجار المثمرة فقطف بيده من كل نوع وأكل
 أكلاً ذريعاً. قال راوي القصة ثم صرنا نقول له وهذا العنود يأمر المؤمنين
 فيخرطه في (١) الخ فلا عجب ان عرج أمير المؤمنين سليمان على كروم الطائف...

(١) خرط العنود: وضعه في فيه فقمض حبه واخرج عشموشه عارياً

(خبر فتح النبي ﷺ للطائف)

قال يا قوت : ثم حسدهم طوائف العرب وقصدهم فصمدوا لهم وجدوا في حربهم . فلما لم يظفروا منهم بطائل ولا طمعوا منهم بغرة ، تركوهم على حالهم أغبط العرب عيشاً إلى ان جاء الاسلام فغزاهم رسول الله ﷺ ففتحتها سنة تسع من الهجرة صلحاً وكتب لهم كتاباً . نزل عليها رسول الله ﷺ في شوال سنة ثمان عند منصرفه من حنين وتحصنوا منه واحتاطوا لانفسهم غاية الاحتياط فلم يكن اليهم سبيل . ونزل إلى رسول الله ﷺ رقيق من رقيق أهل الطائف منهم ابو بكر نفع بن مسروح مولى رسول الله ﷺ في جماعة كثيرة منهم الازرق الذي تنسب اليه الازارقة والد نافع بن الازرق الخارجي الشاري فعتقوا بنزولهم اليه ونصب رسول الله ﷺ منجنيقاً ودبابه فأحرقها أهل الطائف ، فقال رسول الله ﷺ « لم يؤذني في فتح الطائف » ثم انصرف عنها إلى الجعرانه ايقسم سي أهل حنين وغنائمهم فخافت ثقيف أن يعود اليهم فبعثوا اليه وفدهم وتصالحوا على أن يسلموا ويقروا على ما في أيديهم من أموالهم وركازهم ، فصالحهم رسول الله ﷺ على أن يسلموا وعلى أن لا يزنا ولا يربوا وكانوا أهل زنا وربا « اه

قل يا قوت وكان معاوية يقول : أغبط الناس عيشاً عبدي أو قال مولاي سعد ، وكان يلي أمواله بالحجاز ، ويتربع جدة ، ويتقيظ الطائف ويشتو بمكة . ولذلك وصف محمد بن عبد الله النميري زينب بنت يوسف أخت الحجاج بالنعمة والرفاهية فقال :

تشتو بمكة نعمة ومضيفها بالطائف

(انتهى)

وقال البلاذري في فتوح البلدان عن غزوة الرسول ﷺ للطائف ما يأتي :
« لما هزمت هوازن يوم حنين وقتل دريد بن الصمة أتى فلهم أوطاس ،

فبعث اليهم رسول الله ﷺ أبا عامر الأشعري فقتل . فقام بأمر الناس أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري ، وأقبل المسلمون إلى أوطاس ، فلما رأى ذلك مالك بن عوف بن سعد أحد بني دهمان بن نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن ، وكان رئيس هوازن يومئذ هرب إلى الطائف فوجد أهلها مستعدين للحصار قد رموا حصنهم وجمعوا فيه الميرة فأقام بها وسار رسول الله ﷺ بالمسلمين حتى نزل الطائف فرمتهم ثقيف بالحجارة والنبل ، ونصب رسول الله ﷺ منجنيقا على حصنهم ، وكانت مع المسلمين دبابة من جلود البقر ، فألقت عليها ثقيف سكك الحديد الحماة فأحرقتها فأصيب من تحتها من المسلمين ، وكان حصار رسول الله ﷺ الطائف خمس عشرة ليلة وكان غزوه إياها في شوال سنة ثمان قتلوا ونزل إلى رسول الله ﷺ رقيق من رقيق أهل الطائف ، منهم أبو بكرة بن مسروح مولى رسول الله ﷺ واسمه نافع ومنهم الأزرق الذي نسبت الأزارقة إليه كان عبداً رومياً حداداً وهو أبو نافع بن الأزرق الخارجي فأتعقوا بنزلهم ، ويقال إن نافع ابن الأزرق الخارجي من بني حنيفة وإن الأزرق الذي نزل من الطائف غيره .

ثم إن رسول الله ﷺ انصرف إلى الجمرات ليقسم سبي أهل حنين وغنائمهم ، خافت ثقيف أن يعود اليهم فبعثوا إليه وفدهم فصالحهم على أن يسلموا ويقرهم على ما في أيديهم من أموالهم وركازهم ، واشترط عليهم أن لا يربوا ولا يشربوا الخمر وكانوا أصحاب ربا وكتب لهم كتابا ، وكانت الطائف تسمى وج فلما حصنت وبني سورها سميت الطائف

ثم قال البلاذري: حدثني المدائني عن أبي اسماعيل الطائفي عن أبيه عن أشياخ من أهل الطائف ، قال : كان بمخلاف الطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويترب فأقاموا بها للتجارة فوضعت عليهم الجزية ومن بعضهم ابتاع معاوية أمواله بالطائف ، قالوا : وكانت للعباس بن عبد المطلب رحمه الله أرض بالطائف وكان

ما شرطه النبي ﷺ على أهل الطائف في صلحهم وإسلامهم

الزبيب يحمل منها فينبد في السقاية للحاج وكانت إمامة قريش أموال بالطائف يأتونها من مكة فيصاحبونها ، فلما فتحت مكة وأسلم أهلها طمعت ثقيف فيها حتى إذا فتحت الطائف أقرت في أيدي المبكين وصارت أرض الطائف مخرافاً من مخاليف مكة ، قالوا وفي يوم الطائف أصيبت عين أبي سفيان بن حرب « اه قلت ان من عرف ان أكثر المؤرخين ينقلون في الفتوح عن البلاذري نظراً لقرب روايته من أيام الفتح ومثانة أسانيده وقارن بين رواية ياقوت الحموي في معجم البلدان ورواية البلاذري في فتوح البلدان ، علم ان ياقوت إنما أخذ عن البلاذري لان العبارة تكاد تكون واحدة ، وقد نقلها البلاذري عن السكابي ، وإنما تجنب ياقوت أن يذكر ان الازرق الذي نسبت الازارقة اليه « كان عبداً رومياً حداداً » لأن ياقوت نفسه كان عبداً رومياً تحذف من روايته عن البلاذري ما يذكر الناس بأصله هو . . .

وقد روى محمد بن سعد بن منيع صاحب « الخبقات الكبرى » غزوة الطائف كما يلي :

« ثم غزوة رسول الله ﷺ الطائف في شوال سنة ثمان من مهاجره . قالوا اخرج رسول الله ﷺ من حنين يريد الطائف وقدم خالد بن الوليد على مقدمته وقد كانت ثقيف رموا حصنهم وأدخلوا فيه ما يصلحهم لسنة ، فلما انهزموا من أوطاس دخلوا حصنهم وأغلقوه عليهم وتجهؤا للقتال وسار رسول الله ﷺ فنزل قريباً من حصن الطائف وعسكر هناك ، فرموا الساميين بالنبل رمية شديدة كأنه رجل جراد حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة وقتل منهم اثنا عشر رجلاً فيهم عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة وسعيد بن العاص ، ورمي عبد الله بن أبي بكر الصديق يومئذ فاندمل الجرح ثم انتفض به بعد ذلك فمات منه . فارتفع رسول الله ﷺ الى موضع مسجد الطائف اليوم ، وكان معه من نسائه أم سلمة

وزينب فضرب لهما قمتين ، وكان يصلي بين القمتين حصار الطائف كله فحاصرهم ثمانية عشر يوما ونصب عليهم المنجنيق ونثر الحسك (١) سقبين من عبدان حول الحصن (٢) فرمىهم ثقيف بالبلل فقتل منهم رجال ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناقهم وتحريقها فقطع المسلمون قطعاً ذريعاً ثم سألوه أن يدعها لله وللرحم ، فقال رسول الله ﷺ « فاني أدعها لله وللرحم » ونادى مادي رسول الله ﷺ « أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر » فخرج منهم بضعة عشر رجلاً منهم أبو بكر نزل في بكرة فقيّل أبو بكر فاعتقه رسول الله ﷺ ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة ولم يؤذن لرسول الله ﷺ في فتح الطائف . واستشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلي فقل « ما ترى ؟ » فقال ثعلب في جحر ، إن أقت عليه خذته ، وإن تركته لم يضرك ، فأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فأذن في الناس بالرحيل فضج الناس من ذلك وقولوا : نرحل ولم يفتح علينا الطائف ؟ فقال رسول الله ﷺ « فغدوا على القتال » فغدوا فصابت المسلمين جراحات ، فقال رسول الله ﷺ « إنا قفلون إن شاء الله » فمروا بذلك وأذعمو وجعلوا يرحلون ورسول الله ﷺ يضحك ، وقال لهم رسول الله ﷺ « قولوا لا إله إلا الله وحده صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » فذارتحلوا واستقلوا قال « قولوا آمبون تأبون عابدون ، لربنا حامدون » وقيل : يا رسول الله ، أدع الله على ثقيف . فقال « اللهم اهد ثقيفا وائت بهم » « أخبرنا عمرو بن عاصم الكلابي أخبرنا أبو الأشهب أخبرنا الحسن بن علي :

- (١) آلة من الحديد واحباً من الحشب تلقى حول المعسكر لتشب في رجل من يدوسها وهي أشبه بما يقال له اليوم الاسلاك الشائكة
(٢) السقب بفتح فسكون الطويل من كل شيء وكل شيء تم وامتلأ فهو سقب ، والنصن الغليظ الريان ، سقب انتهى والحاشيتان لهؤلاف

دعوته ﷺ أهل الطائف إلى الاسلام ودعاؤه البليغ حين ردوه

حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف قل فرمي رجل من فوق سورها فقتل فأتى عمر فقال : يا نبي الله ادع على ثقيف . قل « إن الله لم يأذن في ثقيف » قال فكيف تقتل في يوم لم يأذن الله فيهم ؟ قل « فارتحلوا » فارتحلوا اه

وقالوا في كتب السير في سبب غزاة الرسول للطائف : انه لما حصرته صلى الله عليه وسلم قريش في الشعب ومات معه ابوطالب الذي كان يحوطه وماتت زوجته خديجة التي كانت تثبته وتقر عينه في الناس ، خرج الى الطائف من شدة الكرب يرجو عند أهلها النصرة لان الله جعل الطائف متنفساً لأهل مكة . فلما انتهى رسول الله الى الطائف عمد الى نفر من ثقيف وهم ثلاثة اخوة : عبدالمطلب ، ومعهود ، وحبيب ابناء عمرو بن عير بن عوف اثقيفي ، وكانوا سادات قومهم ، وكانت تحت أحدهم امرأة من قريش من بني جمح . فجلس اليهم رسول الله يدعوهم الى الاسلام والى نصرته فيما جاء به . فقال له أحدهم : امرط ثياب الكعبة أن كان الله ارسلناك ! وقال الآخر : أما وجد الله من يرسله غيرك ؟ وقال الثالث والله لا أكلك ابداً ، لأن كنت رسول الله كما تقول لانت اعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغي لي أن أكلك . فقام رسول الله ﷺ وقد بئس من خير ثقيف وقال لهم « إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا ذلك عني » وكره ﷺ أن يبلغ ذلك قومه فيثيرهم . ولكن هؤلاء لم يفعلوا فاغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم وبصيحون به حتى اجتمع عليه الناس ونحوه الى حائط لعتبة بن ربيعة وشمية بن ربيعة وهما فيه . ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه . ثم جلس في ظل حبله من عنب (الحبللة بالتحريك شجرة العنب) وابنا ربيعة ينظران اليه

فلما اطمان رسول الله ﷺ قال : « اللهم اليك اشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلاتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، انت رب المستضعفين ، وانت ربى

إلى من تكلفني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أو إلى عدو ملكته امري، ان لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع بي. اعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصالح عليه امر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي غضبك أو علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»

فلما رآه ابنا ربيعة وما لقي تحركت له رحمتهما فعدوا غلاما لها نصرانيا، وقيل يهوديا، يقال له عداس فقلاله: ياعداس خذ قطعاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق واذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه. ففعل عداس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له كل. فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال «بسم الله» ثم أكل. فنظر عداس في وجهه ثم قال. والله ان هذا الكلام ما يقوله اهل هذه البلاد. فقال له رسول الله «ومن أي البلاد انت؟» فقال. انارجل نصراني من اهل نينوي، فقال رسول الله «أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟» فقال عداس وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال له رسول الله «ذاك اخي، كان نبياً وانا نبي» فأكب عداس على رسول الله ﷺ بقبول رأسه ويديه واسلم، فقال احد ابني ربيعة لآخيه اما غلامك فقد افسده عليك، فلما جاءهما عداس قالاً وبلك ياعداس مالك تقبل رأس هذا الرجل وبديه وقدميه؟ فقل ياسيدي ما في الارض شيء خير من هذا الرجل، لقد اخبرني بامر لا يعلمه إلا نبي قال له ويحك ياعداس لا يصرفك عن دينك فان دينك خير من دينه. ولكن عداسا لم يتزعزع بقولهما، ولا يزال في المثناة محل يزار يقال انه المكان الذي اسلم فيه عداس

وقد روى اهل السير أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى الطائف يدعو ثقيفا إلى الاسلام كان معه زيد بن حارثة وأقام شهراً يدعوهم إلى الله ولم يجيبوه، ثم اغروا به سفهاءهم وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى لقد شج في رأسه ﷺ وحتى إن رجله

لتمديان، وزيد يقيه بنفسه. ثم انه غزا الطائف وضرب في اثناء حصاره الطائف قبتين لزوجتيه: أم سلمة وزينب رضى الله عنهما. وكان يصلي بن القبتين. فلما أسلمت ثقيف بنى عمرو بن أمية بن وهب بن مالك على مصلى رسول الله ﷺ مسجداً. قالوا ونصب الرسول على حصن الطائف منجنيقا قيل اشار به سلمان الفارسي رضى الله عنه، وقيل قدم به الطفيل بن عمرو، وقيل يزيد بن زمعة ومعه دبابتان وقيل قدم بالمنجنيق والدبابتين خالد بن سعد بن حريش، وكانوا يضعون الدبابات ويغطونها بجلود الابل والبقر ويدخلون في جوفها فتيقهم من السهام والحجارة. ثم قال ابن فهد في تاريخه للطائف، نقلا عن الحافظ مغلطاي: ان هذا المنجنيق هو اول منجنيق رمي به في الاسلام. وقد نثر رسول الله الحسك حول حصن الطائف. ورمى رجل ثقيف الدبابتين بسكك الحديد المحماة بالنار فأحرقت الدبابتين وأصيب جماعة من المسلمين. وقالوا ان رسول الله قال «لم يؤذن في ثقيف» ثم انصرف من الطائف إلى الجمرانة، وأرادوه على أن يدعو على ثقيف فكان دعاؤه «اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم» ولما أسلمت ثقيف ثبتت وحسن اسلامها ولما لحق رسول الله بالرفيق الاعلى وارتدت العرب ثبتت ثقيف على الاسلام ومن ارتد منهم قتلوه وقالوا ما دخلنا آخر الداس إلا لما تبين لنا من الحق

﴿ وجوب اتخاذ آلات الحرب الحديثة وفنون صناعاتها ﴾

قلت: ان رسول الله ﷺ قد استخدم اذاً الصناعة في الحرب بما أجمعت عليه الرواة من ضربه حصن الطائف بالمنجنيق ونثره حوله الحسك وقتاله بالدبابات وكل هذا من الصناعة. انه ولمجنيق كان بمنزلة المدفع في هذه الايام. والحسك أتبه بالاسلاك الشائكة. دبابات هي دبابات «النانك» التي يصفحونها اليوم بالفلاذ حتى لا يخرقها الرصاص، وكانوا في ذلك العصر يجلونها بالجلود، وعليه يكون استعمال الآلات الحربية بأنواعها اسنة نبوية أكيدة لا يجوز اهمالها ولا التهاون

بها هذا فضلا عن الامر الالهي الصريح الذي تتضمنه آية (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ونحن مع الاسف نرى المسلمين اليوم أقل الامم اعتناء بالميكانيكيات والطبيعيات والكيمياء وجميع العلوم التي يكفل لهم اتقانها الحيل الحربية وجبر الاثقال واختراع الآلات التي توفر دماءهم وتصون دماءهم ، ونرى جمهور علماءهم نافرين من هذه العلوم والفنون كأنها من عمل الشياطين، يقضون الاعمار الطويلة في درس علوم مخصوصة لا يتعدونها ، من نحو وصرف وحديث وتفسير وما أشبه ذلك مما لاشك في ضرورته ، لانه به قوام اللغة والعقيدة، ولكنه ليس يعني أصلا عن العلوم الطبيعية التي هلك اليوم من أهمها وعن الميكانيكيات التي لو أفرغوا لها من الوقت ربع ما أفرغوه للحديث والتفسير والفقه والنحو والصرف لكانوا من الصناعة ومن ثم من التجارة والثروة على حظ يضاهي حظوظ الامم الاوربية ، ولكننا قد أمعلمنا علوم هذه الدنيا وحصرنا جميع عنايتنا بعلوم الآخرة (١) غير ذاكرين ان الاسلام انما هو شرع دنيا وآخرة ، وان من أهل أحد الشقين فهو آثم ، كما لو أهل الشق الآخر .

ونعود الى الدبابات فنقول :

ان الافرنج قد استعملوها من القديم ، وأهم ما روي عنهم فيها ما صنعوه في حصار عكا في الحرب الصليبية . فقد صنعوا ثلاثة أبراج طول البرج ستون ذراعا جاءوا بخشبها من جزائر البحر وعملوها طبقات وشحنوها بالمقاتلة ولبسوها جلود البقر والطين بالخل وقربوها من الاسوار ، وكادوا يأخذون بها البلد لان المسلمين رموها بالنيران فلم تعمل فيها فغاروا في أمرهم ودخل عليهم من الخوف ما لا يوصف قال ابو الغداء : فتحيل المسلمون وأحرقوا البرج الاول فاحترق بمن فيه من الرجال

«١» قد ضعفت كل هذه العلوم ايضاً في جميع الامصار الاسلامية وقلما يوجد

احد يشتغل بها لأجل الآخرة

والسلاح، ثم أحرقوا الثاني والثالث وانبسطت نفوس المسلمين لذلك بعد الكآبة. وقدرى بهاء الدين ابن شداد في سيرة صلاح الدين يوسف الايوبي — وكان ابن شداد شاهداً تلك الوقائع ملازماً للسلطان : ان الذي تحيل لاحراق هذه الابراج المسيرة على العجل بعد أن أعياهم أمرها كان نحاساً حموياً قال للمسلمين : أنا كفيتكم أمرها بشرط أن تهينوا لي كذا وكذا — وذكر مواد أتوا له بها — فطبخ من هذه المواد ثلاث قدور ورمى كل دابة بقدر منها فلم تكذب تصيبها حتى اشتعلت بمن فيها جميعاً فكان من فرج المسلمين بصناعة هذا النحاس الحوي مالا تفي به عبارة وقد ذكر المستشرق الفرنسي الشهير رينو Reinaud صاحب كتاب « غارة العرب على فرنسا » انه لما زحف العرب من الاندلس الى فرنسا وافتتحوا اربونة Narbonne وقرقشونة Carcassonne ووصلوا الى افينيون وليون وغيرها تحت قيادة السمع بن مالك الخولاني وعنبسة بن سحيم الكلبي والحراثقي كانت معهم آلات لم تكن عند الافرنج في ذلك العصر ذكر « رينو » ذلك في كلامه على حصار السمع الخولاني لطولوزة Toulouse

فليوم قد انعكست الامور وصرنا في وسائل الدفاع عيالا على أعدائنا أنفسهم ، فان طاب لهم أن يتفقوا علينا ويمنعوا عنا السلاح بأجمعه أمسينا وليس مانداًف به طياراتهم ودباباتهم ومدافعهم وقذائفهم سوى أصابعنا وأظافرنا ، ولقد رأيناهم بالفعل قرروا منع الاسلحة عن جزيرة العرب في مؤتمر نزع السلاح الذي انعقد منذ بضع سنوات في جنيف ووقع هذا القرار بأصوات أكثرية الدول بناء على رغبة انكلترة وفرنسة وإطالية وتوابعن ، وغاية ما فعلته الاقلية انها استمكنت عن اعطاء الرأي لا سلباً ولا إيجاباً ، وهي لو كانت راضية عن سياسة الاكثرية لما تأخرت عن موافقتها على منع السلاح عن العرب . فكان اعتناء العرب وجميع العالم الاسلامي بقضية التسليح فرضاً عليهم كفرض الصلاة ، إذ

لا بقاء لهم بدونه ، وكان هذا متوقفاً على الصناعة التي هي من ثمرات العلم الطبيعي ، ولاجل هذا كان انصراف المسلمين الى اتقان العلوم الطبيعية وادخالها بمذاخيرها في برامج تعليمهم من الامور الحيوية التي لا يجوز ان يغفلوا عنها طرفة عين .
وأراني قد بمدت عن الموضوع الذي كنت فيه وايسر هذه بأول مرة جرتنا الاستطراد الى ما هو بعيد عن المقام الذي نكون فيه ، ولكننا في كل مرة لم نخرج الى شيء غير مرتبط بأصل الموضوع .

عود الى الطائف

وآثار حضارة العرب فيها

ولنعد الى سياحتنا في الطائف وجبالها بمدن رويننا مالا بد منه من تاريخها فقول:
من أنصع الدلائل على مدنية العرب ، لا في دور الجاهلية فقط بل في صدر الاسلام أيضاً - كثرة الكتابات المنقوشة على الصخور
فمن المعلوم ان الامم الهمجية لا تعرف قيد الحوادث ولا تخليد الذكريات ولا تفكر في اطلاع الاعقاب على ماجري في سالف الاحقاب ، وانه لا يعنى بأمر كهذه إلا من علا كعبهم في الحضارة ، وبعد شأوهم في العبارة ، وهذه أمة الافرنجة اليوم بعد أن بلغوا ما بلغوه من هذا المدى البعيد في المدنية نجدهم لا يبرحون يشيدون المباني وينحتون التماثيل ويقيمون الانصاب ، وينقشون عليها كل ما للتواريخ المتعلقة بها خدمة لعلم التاريخ في مستقبل الدهر ، وحرصاً على اطراد سلسلته ووصل فصوله ، وتغاديا من انقطاع أسانيد وضياح مصادره . وبالجملة لا يجتمع حفر الكتابات والنقش على الصخور مع الجهل والامحطاط واخلوا الدار من الفاضل ، وما عثرنا في أثناء الحفر عمداً أو عرضاً على حجارة من أنقاض السلف عليها كتابات قدمة

الاوجدناها محررة بلغات أمم عظيمة الآثار، جليلة المقدار، كالرومانيين واليونانيين ومن قبلهم كالمصريين والفينيقيين والحثيين والبابليين والعرب الذين كان الناس لا يدركون درجة مدنيتهم العالية في العصر المتوغل في التقدم الى أن اطلوا على ماتركوه من المباني الباذخة والقصور الشاهقة والمصانع والسدود وغير ذلك من الآثار الدالة على رسوخ الحضارة وقرأوا ما عليها من الكتابات بالحيرية

وقد كان أول من نبه على ذلك الهمداني الحسن بن أحمد صاحب كتاب «صفة جزيرة العرب» وكتاب «الاكليل» لا سيما في الجزء الثامن من الاكليل الذي فيه ذكر محافد اليمن ومساندها وقصورها ونقل كتابات بالقلم المعروف بالمسند، وجاء بعض المستشرقين مثل «مولر» وغيره فحققوا ما قاله الهمداني ولم يجدوا فيه مبالغة، ونشر «مولر» كتابا طبعه في «فيينا» سنة ١٨٨١ عن هذه الآثار الباهرة واعتمد في تأليفه على «الاكليل»^(١)

(١) (حاشية المؤلف) هذا الكتاب عشرة اجزاء في اول الجزء الثامن منه ما يلي :
الجزء الثامن من الاكليل للحسن بن أحمد الهمداني وهو كتاب محافد اليمن ومساندها ودفانها ومرآتي حمير والقبوريات وشعر عاقمة، والحفد القصر، وانما سمي محفداً لحفود الناس حوله اى شدم وقصدهم، منه دعاء الوتر «إليك نسبي ونحفده» والحفد الحدم . واعلم ان كتاب الاكليل عشرة أجزاء . فاول مخصص في المبتدا واصول الانساب والثاني نسب ولد الهميسع بن حمير . والثالث في فضائل قحطان . والرابع في السيرة القديمة الى عهد تبع ابني كرب . والخامس في السيرة الوسطى من اول أيام اسعد تبع الى أيام ذو نواس . والسادس في السيرة الاخيرة الى الاسلام والسابع في التنبيه على الاخبار الباطلة والحكايات المستحيلة . والثامن في ذكر قصور حمير ومدنها ودواوينها وما حفظ من شعر عاقمة والمرآتي والمسند . والتاسع في امثال حمير وحكمها بالاسان الحميري وحروف المسند . والعاشر في معارف حاشا وبكيل . والله اعلم واحكم =

وملخص الكلام انه لا يتصور العقل بلاداً تكثر فيها النقوش والرسوم على
الحجارة المنصودة في الابنية أو الصخور المبعثرة في الجبال والغلات إلا اذا
كانت تلك البلاد في أعصرها الخو الي حافلة بالعمران موصوفة بكثرة السكان .
ومما لا ريب فيه أن الطائف وجبالها كانت من جملة أقسام الجزيرة العربية
المعمورة وانه قد تقلص عمرانها كما تقلص عمران سائر الجزيرة بسبب الفتوحات
الاسلامية التي ضربت من الجزيرة إلى الصين والهند شرقاً ، وإلى الاناضول

= كنت سمعت بوجود جزء من هذا الكتاب في مكتبة جامع بايزيد في استنبول
فارسات الى الاخ الفاضل خالد بك القرقي الطرابلسي الغربي المنسوب الى بني
هر دماوك مرقسطة بالاندلس وكان يومئذ بتلك العاصمة لي بحث لي عنه فوجدته
نقلوه الى مكتبة دار الفنون ونقل لي بعض صفحات منه ، فاذا به الجزء الثامن ،
وقال لي انه قد بلغه وجود نسخة من هذا الجزء في برلين ، فلما ذهبت الى برلين
اواخر السنة الماضية ١٩٣٠ بحثت عنه في المكتبة الملكية فوجدت منه جزئين الجزء
الثامن والجزء العاشر ، ووجدت مع الجزء العاشر في جلد واحد بعض رسائل منها
مضى عن المهادن التي في اليمن وكتاباً من تأليف الملك الاشرف ابي حفص عمر
ابن رسول الغساني اسمه (طرفة الاصحاب في معرفة الانساب) فاخذت صور جميع
ذلك بالفوتوغرافيا ، وبينما انا معهم على طبع هذين الجزئين من الاكليل اذ بلغني
أن الدكتور المحقق الاب انستاس الكرملي مباشر طبع الجزء الثامن بيفداد معتداً
في ذلك على خمس نسخ وقعت في يده وانه سيطبعه مع حواش وتفسير ، فلما علمت
ذلك وقفت عن طبع هذا الجزء حتى ارى ما يكون ثم اني ارسات الى حضرة
صاحب السمو صديقي الامير سيف الاسلام محمد والي تهامة ونجل الامام المتوكل
على الله يحيى بن محمد بن حميد الدين صاحب اليمن اسأله عما يوجد من اجزاء هذا
الكتاب في اليمن ، فاجابني بانه لا يوجد من الاكليل الا جزءان وثلاثة مقطعة
مفرقة ، وانه مع ذلك سيبحث ثانية وهذا ما عرفنا الى الان عن هذا الكتاب

والطاغستان شمالاً ، وإلى الاطلنتيك غرباً ، وكانت كلها على أيدي العرب الذين التهمتهم القواصي وأفنى رجالهم قراع الكتاب ، فحلا كثير من ديارهم الاصلية ، وصفرت الجزيرة من تلك الجموع التي كانت تموج بها ، وتداغت القصور ، وانهارت السدود ، وتعطلت القنى ، وتصوحت النضرة ، وعطشت الارض . وأما الكتابات المنقوشة على الصخور فلم يضر بها الجوع ولا العطش ، فبقيت على حالها ناطقة بما كان ثمة من عمران سابق ومجد سامق

ولقد أتيج لي ان أرى طرفاً من هذه الكتابات وان اقرأ بعضها وان يشكل علي قراءة البعض الآخر ، فعولت فيه على بعض الاساتيد المحصنين بمعرفة الخطوط القديمة ، وذلك اني نسخت ماقرأته في جبل السكارى في وسط الطائف وبعثت به إلى برلين وذلك إلى الاستاذ مورتيخ من فحول المستشرقين . فخل الكتابة وأعادها لي ، ولم تكن من الخط السند بل من الخط الكوفي القديم الذي لم نألفه فإن الخط الكوفي ليس شكلاً واحداً . وهذه الكتابات خالية مع الاسف من التواريخ .

وأكثر ما عثرت به من هذه الكتابات في كل محل خلو من ذكر السنة التي كتبت فيها إلا ما كان منها متأخراً من آثار القرن الرابع والقرن الخامس للهجرة وما بعد ذلك فهو مؤرخ بالاشهر والسنين كما هي العادة ، ويظهر ان الكتابات التي في جبل السكارى هي من القرن الاول للهجرة وربما كان بعضها من زمن الجاهلية ونص واحدة منها « اعف يا الله ، عبدك أود بن موسى » ونص أخرى « اباد بن عيفر بن أوس ، بره واثق » ونص أخرى « بالله محمد بن عبد الرحمن ابن أبي (كلمة لم تمكن قراءتها) واثق بالله » ونص أخرى « اللهم حكم عبدك عيفر بن ابي قبيع من النادي وكتب » ونص أخرى « اللهم صل على محمد النبي وكتب محمد بن ابي قبيع » وجبل السكارى هذا على طرف الطائف إلى جهة المثناة - رابية لا تملأ أكثر من ستين متراً عن سطح الارض ، ولكنها لشدة قربها من البلدة يشرف

الذي يتوكل فيها على جميع الطائف وبساتينها فيقصد الناس النزهة هناك ، ولما كان الجبل كله صخرية كانت فيه جنادل كثيرة بعضها فوق بعض . ومنها ماهو ملاق الآخر على شكل يتكون منه شيء أتبه بالكهف فيتقي الذين يقولون تحت هذه الصخور حر الشمس

وقد كان لنا هناك قيلات لم نزل نتذكر لطفها بدعوة الشيخ عبد القادر الشيبى كبير سدة البيت الحرام الذي هو المثل البعيد في الكرم وحسن الوفادة والذي ذكرته مراراً في هذه الرحلة إلى ان قال لي الكثيرون : تالله نفثاً تذكر الشيبى ، فقلت أرتجالاً :

يقولون لي : نبغي جواب سؤالنا ويسألني عن ذلك صبي وجلاسي
لماذا نرى الشيبى عندك أولاً وتؤثره في كل شيء على الناس
فقلت : أرى الشيبى ينذر مثله بهر وإكرام ولطف وإيناس
وفي خدمة الاسلام قدشاب مفرقي لذلك أرى الشيبى تاجاً على رأسي

وبعد ان برحت الحجاز بقيت المكعبة بيني وبين الشيخ المشار اليه متصله يتخللها النظم والنثر ، ومقابلة الشيء بثله من القافية والبحر . ولاعجب في فصاحة بني شيبه وهم لباب قریش وخلاصة العرب ، ولانقصر فيهم سابق حتى لقد قرأت في « بغية الملتبس في تاريخ رجال الاندلس » لاحمد بن يحيى بن احمد بن عميرة الضبي ان أبا العباس احمد بن رشيق الكاتب لما كان في سن المراهقة يظلم علم النحو بتدمير من بلاد الاندلس دخل عليهم من طريق البحر رجل أسمر ذكر انه من بني شيبه حجة البيت وانه يقول الشعر على طبعه ولا يقرأ ولا يكتب . وكان يقول انه دخل عليه الاحب بدخول الخضر وروى ابن رشيق من شعره :

ياخيلبي من دون كل خايل لاندي على البكا والويل
إن لي مهجة تكنفها الشو قوعينا قد وكلت بالهمول

كلما عودت هتوف انعشاي والضحى هيجت كمين غليل
ذات فرخين في ذرى اثلاث هدلات غضف الذوائب ميل
لم يغيبا عن عينها وهي تبكي حذر الدين والفراق المديل
أنا أولى بغربتي وانزاحي واشتياقي منها بطول العويل
حل أهلي بالابطحين وأصبح تـمع الشمس عند وقت الافول
فأت ترى فصاحة الامي منهم، فما ظنك بالمتأدب الذي قرأ العلم وثافن العلماء
رأى من رجال الاسلام قصاد البيت الحرام مالم يتيسر لأحد ان يره .

ثم ان لهذا البيت من مزية خدمة البيت مالا يشركهم فيه غيرهم منذ بضعة عشر
قرنا حتى ان النبي ﷺ لما فتح مكة قل لقريش « ماتظنون ؟ » قالوا: نظن خيراً
ونقول خيراً، اخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت ، قل « فاني أقول كما قال أخي
يوسف عليه السلام (لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) »
ثم قال ﷺ « الا كل دين ومال ومأثرة كانت في الجاهلية فهي تحت قدمي
إلا سدة البيت وسقاية الحاج »

وحدثوا من طريق آخر انه ﷺ قل في خطبة « الحمد لله الذي صدق
وعده ، ونصر جنده ، وهزم الاحزاب وحده ، ألا ان كل مأثرة في الجاهلية وكل
دم ودعوى موضوعة تحت قدمي ، إلا سدة البيت وسقاية الحاج » وقالوا ان النبي
ﷺ كان أخذ مفتاح البيت يوم فتح مكة من عثمان بن طلحة بن ابي طلحة ثم
نزلت الآية (إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها) فاستدعى عثمان وأعاد
اليه المفتاح قائلاً له « خذوها يا بني ابي طلحة بامانة الله سبحانه لا ينزعها منكم إلا
ظالم » وفي رواية أخرى « خذوها يا بني ابي طلحة خالدة تالدة لا يظلمكموها إلا
كافر » وقيل « إلا ظالم » ولهذا بقي مفتاح البيت في هذا البيت إلى اليوم ،
و ليس في مكة أعرق منهم لانه لم يبق من صدر الاسلام ملازما مكة بسبب

سدانة البيت غيرهم . ولقد رأيت فتاوى كثير من العلماء في وجوب البر بهم مكافأة على هذه الخدمة المقدسة التي اختصوا بها بمحكم الذكر من قديم الدهر هذا واقد ذكر السيد خير الدين الزركلي جبل السكارى الذي كنا بصده وقال انهم بسمونه « ام السكارى » وروي عن قاضي الطائف الذي كان يومئذ (سنة ١٣٣٩) أن على هذا الجبل أسطراً تاريخها سنة ١٨٨٨ قال فصعدته ورأيت كتابات كثيرة ولم أر التاريخ الذي ذكره (قلت) وأنا لم أركتابه عليها تاريخ ، ولكن يجوز أن تكون على صخر لم يقع نظرنا عليه فان هذا الجبل مغطى بالصخور وفيه مقطع حجارة لبناء أهل الطائف وايس كل ما يراه الواحد يراه الآخر

وأما تسمية هذا الجبل « بأم السكارى » أو جبل « السكارى » فنظنها من جهة اجتماع الناس فيه للفرجة والشرب من أيام الجاهلية . ويقال ان أبا سفيان ابن حرب انما اجتمع مع سمية أم يزيد في هذا الجبل اتاه بها أبوهريرة الخمار وهناك جبل مناوح لمسجد ابن عباس على مسافة ٢٠ دقيقة م ، فيه صخور كثيرة عليها كتابات وصور حيوانات . ومن هذه الكتابات ما يظهر انه قديم ومنه ما هو من القرن الثالث أو الرابع أو الخامس . وقد نقل الخير الزركلي منها كتابة هي (ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وفي آخرها « محمد بن مهدن »

وجبل آخر اسمه « الردف » بفتح الدال وتشديدها . يذهب السائر اليه من الباب الذي بقرب مسجد ابن عباس رضي الله عنه ويأخذ الوصول اليه نحو ساعة من الزمن على طريق بستان « حوايا » وبستان « شهار » وفي « الردف » هذا حجارة كبيرة مترادفة على بعضها كتابات قرأنا بعضها وهو من الخط الكوفي القديم من القرن الاول وما يليه . نقل من ذلك الخير الزركلي في كتابه (ما رأيت وما سمعت) الجبل الآتية :

(عبد الله بن علي بن أبي محجن يسأل الله بوجهه الكريم الجنة)
 (عبد الله بن علي بن أبي محجن يسأل الله القتل في سبيله على بركتته)
 (عبد الرحمن بن سعيد بن عبد الرحمن يشهد أن الله على كل شيء قدير وأن
 الله قد أحاط بكل شيء علماً)

وبينما كنا قافلين من وادي «لية» إلى الطائف رأينا أيضاً كتابات على صخور
 منها كتابة ممحوة بعض كلماتها فمنها انه كان أصاب البلاد قحط وأمطار وابتعد ذلك
 ورأينا كتابات على الصخور في طريق الطائف إلى وادي محرم . وقد تقدم
 اننا رأينا خطوطاً كوفية وأخرى من القرن السادس في سيدنا عكاشة من ارض الوهط
 وقيل لي ان بين المدينة المنورة وحائل كتابات كثيرة ولا أعلم هل هي من
 الخط الكوفي أو من الخط النبطي أو من خطوط أخرى ؟ وغاية ما يدرك الانسان
 من كثرة هذه الخطوط في جزيرة العرب انها كانت حافلة بالسكان ، باللغة الشأو
 الاقصى من العمران . وان الفتوحات الاسلامية أثرت في درجة عمرانها فقلبت
 عليها البسادة في التالي . ويظن بعضهم ان هناك أسباباً طبيعية أيضاً تقلص بها
 العمران : من غيض مياه ونضوب أنهار جارية وما أشبه ذلك مما حدا بالعرب إلى
 الجلاء والتفرق في الاقطار

ونعود إلى الطائف فنقول : ان عمرانها كان قبل الحرب العامة أكثر منه
 اليوم بكثير ، وانه بسبب الحرب بين الشريف حسين والأتراك ثم بينه وبين
 النجديين خرب جانب كبير منها ونزح أكثر سكانها

اشراف الحجاز على العمران ، بشمول العدل والامان ﴿

وقد بدأ عمرانها بل عمران الحجاز كله بالراجع في هاتين السنتين بعد استقرار الامن وشمول الدعة مما أقر به القاضي والداني واعترف الناس بالفضل فيه لله ثم لابن سعود

ولقد شافهمنا هناك الاهالي في الفرق الذي بين حالتهم الحاضرة وحالتهم الماضية فأجمعوا على ان نعمة الامن التي هم متمتعون بها الآن لم يعرفوا شيئاً منها من قبل لا هم ولا آباؤهم ولا أجدادهم ولا سمعوا بها عن سلفهم

حدثني بعض الاشراف الهاشميين من أولاد امراء مكة انفسهم انهم كانوا في القرى التي لهم حول الطائف يوصدون أبوابهم ليلاً ولا يفتحونها لأي طارق خيفة الغيلة وحذراً من سطو اللصوص حتى جاء هذا العهد السعودي فصاروا يأمنون أن يبيتوا وأبوابهم مفتحة وصاروا يفتحون لأي طارق جاءهم

وحدثني الجميع انهم كانوا لا يقدرّون على التجوال الا مساحين ، فأصبح الآن كل انسان يجول في الحواضر والبوادي أعزل لا يحمل شيئاً ولا السكين وقد يكون حاملاً الذهب ولا يخشى عادية ولا حادثة . وكثيراً ما يترك الناس أوقار دوابهم في قارة الطريق وتمقياً ليلالي إلى ان يعود أصحابها فيأخذوها ولا يجرأ احد ان ينظر اليها

وقيل ان عدلاً من الشعير تركه صاحبه لأعياء مس دابته ومضى ينشد دابة أخرى يحمل عليها عدله فجاء ووجد في العدل ثقب سكين تقساقط منه حبوب الشعير فأخبر الشرطة فلم يزالوا يبحثون حتى عرفوا ذلك الرجل الذي وجأ العكم بسكينه وجلدوه بالسياط ، لانه حاول أن يعرف ما احتوى عليه ذلك العكم (١)

(١) حكى الريحاني وغيره مثل هذه الحادثة في بلاد نجد والحالة العامة تلد حوادث متشابهة

وكل يوم يؤتى الى دوائر الشرطة في كل بلدة بأمتعة وأسباب وحوائج وأموال منها الكثير ومنها القليل ومنها الثمين ومنها الخسيس مما يجده السابلة في الطرق اتفاقاً، فلا تجد أحداً يطمع في شيء بعد أن كان الدعارة يذبجون ابن السبيل من أجل حاجة لا تنكاد تساوي قطميراً

فسبحان الذي أدال من تلك الحال لهذه الحال ، وأوقع الرعب في قلوب الادعار، في السهول والاعوار . وليس في باب الامن في ممالك ابن سعود متطلع لمزيد ، وقصار ما يتمنى الانسان دوام هذه النعمة

ومن هذا الباب ان الثارات والدماء كانت بين قبائل العرب متصلة والغارات مستمرة، وانه إذا وقع دم بين قبيلة وأخرى انقطع كل اتصال بينهما وصار ابن احدهما لا يقدر ان يمر بارض الاخرى إلا تحت خطر القتل . وقد سمعت من القبائل التي شافيتها في الحجاز انها الى زمن استيلاء ابن سعود كان بعضها لا يقدر أن يدخل منطقة بعض ولو كان في أقرب محل اليه ، وان كل ذلك قد نسخ الآن باحكام ابن سعود وصار الناس يمر بعضهم بارض بعض عزلاً من السلاح ولا يخشى أحد منهم مكروهاً ، وانطوت تلك الثارات والذحول كأنها لم تكن، ولا نظن ان الاعراب ينسون الثارات وليس ذلك من طبيعتهم ولكنهم اذا وقعت هيبة الساطان في قلوبهم وعرفوا ان ليس عند السلطان الا العدل واقامة الحد الشرعي بدون هواة مع أحد انقادوا لاحكام انقياد الغنم

لهذا نجد العمران قد بدأ يتراجع إلى الحجاز شعوراً لامن واستراحة الفكر فالتوافل والسيارات المكهربات ذاهبة جاثية تخترق الصحاري بالامنة التي تمر بها في شوارع البلد الخرام ، والناس بعد ان امنوا على أموالهم وزروعهم وضروعهم قد نشطوا للعمل ووثقوا بالمستقبل ، واذا مضت عشرون سنة - وهذه الحالة لم تتبدل وهذه الامنة ممتدة الرواق على البلاد كما هي اليوم - فان البلاد تسير شوطاً

بعيداً في ميدان الفلاح ، ويتضاعف عدد قطيعها ، وترتفع أثمان أراضيها ، ويقصد إليها كثيرون من أهل العالم الاسلامي الذين يشغل عليهم حكم المستعمرين الاوربيين ، كما كانوا بدأوا يهاجرون إليها قبل الحرب العامة . مع ان أمانة السوابل لم تكن حينئذ كما هي الآن

ومن الاغلاط المشهورة التي شهرتها لا تمنع كونها غلطاً الظن بان بلاد الحجاز هي من القحولة بحيث لا تتحمل عدداً من السكان يزيد على أهلها الحاضرين وان زاد فلا يكون إلا قليلاً ، وان الحجاز باتف ، وان الحجاز يابس ، وان الحجاز كثير الحجار والحرار قليل الرياض والغياض ، غير اريض الاراض الى غير ذلك من وجوه الاعتراض . وهذا كله من الكلام المرسل بدون تحقيق ، الذي يقوله من لا يعرف الحجاز او لا يعرف شيئاً عن الحجاز او بعض الكسالى من أهل الحرمين الشريفين الذين يبدون ويعيدون أمام حجاج البيت الحرام وزوار الروضة النبوية عن فقر الحجاز تعدياً منهم ، ليستزيدوا بر الحجاج بهم ، ويستندروا عوارف العالم الاسلامي عليهم

وحقيقة الحال انه لو كان سكان الحجاز ثمانية او عشرة ملايين نسمة لكانت ثمة مكان لهذا القول . ولكن بدون أن نعرف بالتدقيق عددها في الحجاز نقدر ان نقول انهم جميعاً بدأوا وحضراً لا يزيدون على مليون نسمة وربما لا يناهزون هذا العدد . وان من عرف جزءاً من الحجاز - لا كله - علم ان الحجاز إذا قام أهله على فاحه وزرعه حق القيام أعاش منهم ملايين بالراحة التامة ، واصار اليهم من خيرات ما لا يذكر موسم الحج في جانبه شيئاً

ولقد رأيت على مقربة من مكة وادي فاطمة الممتد إلى وادي الليمون مسافة خمس عشرة ساعة فرأيت جنة من جنان الله في أرضه لا تنفضها بقعة لافي الشام ولا في مصر ولا في العراق .

ولما كنت في المدينة المنورة قبل الحرب العامة وجوات في عواليها والبقاع التي تليها وشاهدت زكاء تلك الارضات وسمعت خريراتك المياه قدرت ان البلدة الطيبة وحدها إذا كانت سكة الحجاز الحديدية متصلة بها وبقيت المهاجرة اليها من الآفاق قد تحمل نصف مليون نسمة ولا يتكادها أمر معيشتهم . وقد كان بلغ عدد سكان المدينة قبل الحرب العامة نحو خمسين ألف نسمة وصار المتر المربع من الارض الفضاء في وسط المدة يباع بعشرة جنيهات وفي الضواحي بجنيه واحد وكانت الناس مقبلة على الشراء من كل جانب فلما انقطعت السكة الحديدية الحجازية الواصلة بين المدينة والشام بسبب استئثار دولتي فرانسة وانكلترة اللتين وضعتا أيديهما على قطع هذا الخط التي في سورية وفلسطين والبلقاء، وجهلتا بل هضمتا حقوق المسلمين الخاصة فيه، تقلص عمران المدينة المنورة ونزل عدد سكانها من الخمسين ألفاً إلى ١٥ ألفاً، كما ان جميع القرى التي كانت على جوانب الخط مثل معان وتبوك ومدائن صالح والملا وغيرها قد تراجعت إلى الوراء بعد أن كانت السكة قد بدأت تعبد اليها غابر عمارتها . ولعل التخوف من عمران الحجاز كان من جملة الاسباب التي حدثت دولتي انكلترة وفرنسة على المعارضة في تسليم السكة الحجازية الحديدية المسلمين .. فان هاتين الدولتين اللتين تسلطتا على نحو ١٥٠ مليون مسلم تكرهان أن يكون لهم ماجاً تهوي اليه أفئدتهم ويكون معموراً وتتوافر فيه أسباب الراحة وينتهي الامر بازدهام السكان فيه (ولا سيما الحجاز ولا سيما الحجاز ولا سيما الحجاز)

ولكن استئناف عمران الحجاز أمر لا مناص منه مهما وضع الاجانب أعداء الاسلام في طريقه من العراقيل والمواثير، لان المسلمين يأرزون إلى الحجاز من كل صوب كما تأرز الحية إلى وكرها . وقد كانوا يشتكون قلة الامنة في السبل فقد أزيحت هذه العلة بتمامها بفضل الله ثم بفضل عبدالعزيز بن سعود . وقد كانت

تضول عليهم المراحل، وتتعهم أكوار الرواحل فالآن قامت السيارات الكهربائية مقام الابرار، وطرت تلك المسافات الطوال طي السجل للكتاب. ولا بد من أن يأتي دور السكة الحديدية يوما فتكمل من المدينة الى مكة ويمتد خط من جدة إلى مكة ثم من مكة إلى الطائف، وإذا كان العرب عربا ساروا به من الطائف إلى ابها إلى صنعاء اليمن إلى عدن. فإن الامة العربية سائرة إلى الوحدة مهما عارض في ذلك اللثام من أعدائها، والمتفلسفون من أبنائها وان هذه الوحدة آتية لا ريب فيها ولو بعد مائة سنة أو أكثر

وطالما قلت: ان من أهم الشروط الأساسية لهذه الوحدة هو مد الخطوط الحديدية بين الشام وجزيرة العرب، والعراق وجزيرة العرب، على أن تكون هذه الخطوط بالعرب وبايدي العرب

وبينما كنت اقرأ ترجمة حياة « كافور » مؤسس الوحدة الإيطالية بقلم المسيو « باليولوغ » سفير فرنسا في بطرسبورغ سابقا إذ وجدته يقول: إن كافور كان يرى الشرط الأساسي لوحدة ايطالية ربط جميع أجزائها بالخطوط الحديدية، وقد ابتداء بذلك من قبل ان أتم الوحدة الإيطالية

* * *

قابلية خير للعمران

ونعود إلى عمارة الحجاز فنقول: إن من البقاع الملائمة مستقبلا - كما يقول الافرنج - بقعة خير، ولم أصل إلى خير ولكني سمعت بها كثيرا. وقيل لي إن بها سبعة أودية سائلة ونحيفا من فوق التصور. وكنت أيام أنا مبعوث الشام في مجلس النواب باستانبول سمعت بمد سبعة من الخط الحديدية إلى خير ينفصل من قبل الوصول إلى المدينة المنورة بنحو ساعتين، ولا تكون مسافة هذا الخط المنشعب من الخط العمودي أكثر من ساعتين فقط، وكان يحزن ذهاب الانسان - الارتسامات

من المدينة إلى خيبر في أربع ساعات لا غير . وكنا قررنا مد هذه الشعبة إلى خيبر كما قررنا مد شعبة أخرى من أذرعات (درعا) إلى عجلون في حوران ، وشعبة أخرى من (ضبعة) إلى الكرك في شرق الاردن، كلها من الخط الحجازي، وجاءت الحرب العامة فوقفت كل هذه المشروعات، ثم جاء احتلال الاجانب للبلاد فاخنى على كل شيء ، بينما هم يدعون أنهم انما أتوا لاجل اسعاد البلاد وترقية عمرانها ! فال ياقوت الحموي في معجم البلدان: إن خيبر سبعة حصون : حصن ناعم، وحصن القموص ، وحصن الشق ، وحصن النظاة ، وحصن السلام ، وحصن الوطيح ، وحصن الكتيبة . ولها كلها مزارع ونخل كثير .

وروي ان غزاة النبي ﷺ لها كانت لست سنين وثلاثة أشهر واحد وعشرين يوما للهجرة، وفتحها وحقق دماء أهلها اليهود وقالوا له يا رسول الله إن لنا بالعمارة والقيام على النخل علما فاقرنا . فاقروهم وعاملهم على الشطر من التمر والحب . فلما كانت خلافة عمر ظهر فيهم الزنا وكان سمع ان النبي ﷺ قال « لا يجتمع دينان في جزيرة العرب » فاجلى عمر رضي الله عنه يهود خيبر إلى الشام وقسم خيبر بين المسلمين ، قال وكان رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن رواحة إلى أهل خيبر ليخبرهم فقال : إن شئتم خرصت وخيرتكم ، وإن شئتم خرصتم وخيرتموني، فاعجبهم ذلك وقالوا هذا هو العدل، هذا هو القسط ، وبه قامت السموات والارض .

وخيبر موصوفة من القديم بالحصى ، وذلك من كثرة مستنقعاتها . وفيها اليوم اكرة من السودانيين الزوج لا يقدر على الإقامة بها لولا ألفتهم للحصى . وأما اذا قبض لخيبر وللحجاز اصلاح وأعيدت السكة الحديدية إلى مجراها وانشعب من عمودها شعبة إلى خيبر وعمرها الناس فللحصى طرق فنية كثيرة تكفل استئصال جراثيمها تدريجاً من اصدار المياه وحصرها في القنى السائلة وغرس

الغياض الكثيرة من شجر الاوكا ليتوس وتجنيف المناقيع واتقاء الحى بالكينا وغير ذلك مما جرى مثله في أما كن أخرى كانت وبنية في الماضي فصارت مصاح الاجسام

انملا ووادي انقرى

ومن الاماكن القابلة جداً للعمارة « العلا » (بضم أوله) وهي على مسافة سبع أو ثمانى ساعات من المدينة المنورة إلى الشمال بسير القطار الباخر

قال ياقوت : هو اسم لموضع من ناحية وادي القرى بينها وبين الشام، نزله رسول الله ﷺ في طريقه إلى تبوك . ولم يذكر ياقوت شيئاً عن جنان العلا ولذة فواكهها ، وجودة ثمارها وتمورها . فهي من أجل المراكز المرجوة لعمران القسم الشمالي من الحجاز . ووادي القرى كله من الاماكن المرجوة لعمران الحجاز نقل ياقوت في المعجم قول ابي المنذر عن وادي القرى قال « سمي وادي القرى لان الوادي من أوله إلى آخره قرى منظومة، وكانت من أعمال البلاد، و آثار القرى إلى الآن بها ظاهرة إلا انها في وقتنا هذا كلها خراب ومياهها جارئة تندفق ضائعة لا ينتفع بها أحد

قال ابو عبد الله السكوني : وادي القرى والحجر والجناب منازل قضاة ثم جهينة وعذرة ولي، وهي بين الشام والمدينة يمر بها حاج الشام، وهي كانت قديماً منازل نمود وعاد، وبها أهلهم الله وآثارها إلى الآن باقية ونزلها بعدهم اليهود ، واستخرجوا كضائماً ، وأساسحوا عيونها ، وغرسوا نخلها ، فلما نزلت بهم القبائل عقدوا بينهم حلماً ، وكان لهم فيها على اليهود طعمة وأكل في كل عام ومنعوها لهم عن العرب ودفعوا عنها قبائل قضاة

وروي ان معاوية بن ابي سفيان مر بوادي القرى فتلا قوله تعالى (أتركون فيما ههنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل) الآية، ثم قال: هذه الآية نزلت في أهل هذه البلدة وهي بلاد نمود فأين العيون ؟ فقال له رجل: صدق الله في قوله

أتحب ان استخرج العيون ؟ قال نعم ، فاستخرج ثمانين عينا . فقال معاوية : الله
أصدق من معاوية

وكان النعمان بن الحارث الغساني ملك الشام أراد غزو وادي القرى فحذره
نابغة بني ذبيان ذلك بقوله :

تجنب بني حن فان لقاءهم كرية وإن لم تلق إلا بصابر
هم قتلوا الطائي بالحجر عنوة أبا جابر واستنكحوا ام جابر
وهم ضربوا أنف الفزاري بعدما أتاهم بمعقود من الامر قاهر
أطعم في وادي القرى وجنابه وقد منعوا منه جميع المعامر ؟
في أبيات

وحن — بضم الحاء المهملة والنون المشددة — هو ابن ربيعة بن حرام بن
ضنة بن عبد بن كبير بن عذرة بن سعد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن
الحاف بن قضاة . وأبو جابر — هو الجلاس بن وهب بن قيس بن عبيد
ابن طريف بن مالك بن جدعاء بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن
سعد بن فطرة بن طيء ، وكان ممن اجتمعت عليه جديلة طيء .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر في سنة سبع امتد إلى وادي القرى
فغزاه ونزل به . وقال الشاعر :

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة بوادي القرى اني اذاً لسعيد ؟
وهل أرين يوماً به وهي أيم وما رث من حبل الوصال جديد
انتهى كلام أبي المنذر وكلام ياقوت .

ووادي القرى اليوم خراب كما كان في أيامها ولا يرجى له استئناف عمران
إلا باستئناف حركة الخط الحديدي الحجازي

ولقد كان وادي القرى معموراً في صدر الاسلام وما يليه ، وبه مات موسى

ابن نصير اللخمي فاتح الاندلس وغازي الارض الكبيرة الاوربية وقاتمها كلها
لو تركه أعداؤه وحساده في دمشق يكمل عمله في الغرب

وقرأت في كتاب « الصلة » لابن بشكوال في تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم
ترجمة احمد بن محمد بن محمد بن عبيدة الاموي الذي يعرف بابن ميمون من أهل
طليطلة: وفيها انه رحل إلى المشرق سنة ٣٨٠ وحين وزار المدينة وانه سمع بوادي
القرى من ابي جعفر احمد بن علي بن مصعب، وبمدين من ابي بكر السوسني الصوفي
وبأيلة من ابي بكر بن المنتصر، وبالقلزم من ابي عبيد الله بن غسان القاضي

فمن ذكره علماء في هذه الاماكن يأخذ عنهم مثل ابن ميمون الطليطلي
بجلالة قدره يعرف انها كانت معمورة مأهولة. والحال انها اليوم خراب، فلا وادي
القرى ولا مدين ولا ايلة ولا القلزم عليها رائحة العارة، أو فيها شيء يشبه القرى
فضلا عن الحواضر او المزارع، فضلا عن الجنان النواضر. أين اليوم وادي القرى
ومدين وايلة والقلزم، وأين العلم والادب والسمع منها؟

اودية العقيق في المدينة واليمامة وغيرها

ومن أجل ما في الحجاز بل في جزيرة العرب الامكنة التي يقال لها العقيق،
ويترونها الشعراء بالشعر المتين الرقيق، والعرب تقول لكل مسيل ماء شقه السيل
في الارض فانهره ووسعه عقيق. فمن هذه الاعقة عقيق عارض اليمامة وهو واد
واسع مما يلي العرمة يتدفق فيه شعاب العارض وفيه عيون عذبة

قال السكوني: عقيق اليمامة لبني عقيل فيه قرى ونخل كثير، ويقال له
عقيق تمر، وهو منبر من منابر اليمامة عن يمين من يخرج من اليمامة يريد اليمن، عليه
أمير، وفيه يقول الشاعر:

ترع إلى بالمضيح فالحمى وتحفر من بطن العقيق السواقيا
ذكر ذلك ياقوت في معجم البلدان، ثم ذكر عن عقيق المدينة ما ملخصه:

انه عقيقان الاكبر مما يلي الحرة ما بين أرض عروة بن الزبير إلى قصر المراحل
ومما يلي الحى ما بين قصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو بن
عثمان إلى قصر المراحل ثم اذهب بالعقيق صعداً إلى منتهى البقيع ، والعقيق
الاصفر ماسفل عن قصر المراحل إلى منتهى العروسة ، وفي عقيق المدينة يقول
الشاعر وهو المدح المرقص الذي ليس وراءه مدح في الكرم :

اني مررت على العقيق وأهله يشكون من مطر الربيع زوراً
ماضركم إن كان جعفر جاركم أن لا يكون عقيقكم ممطوراً؟

قال : وفي هذا العقيق قصور ودور ومنازل وقرى . قال القاضي عياض :
العقيق واد عليه اموال أهل المدينة ، وهو على ثلاثة أميال او ميلين وقيل ٦ وقيل ٧
وهي أعقة (احدها) عقيق المدينة عتق عن حرثها ، وهذا العقيق الاصفر وفيه بئر
رومة . والعقيق الاكبر بعد هذا وفيه بئر عروة . وعقيق آخر أكبر من هذين
وفيه بئر على مقربة منه وهو من بلاد مزينة ، ومنها العقيق الذي جاء فيه
(انك بواد مبارك) هو الذي ببطن وادي ذي الحليفة . ومنها عقيق اليمامة
لبنى عقيل ، وفيه يقول ابن حمير (بضم فتشديد) العقيلي :

يريد العقيق ابن المهر ورهطه ودون العقيق الموت ورداً وأحمرأ

وكيف تريدون العقيق و:ونه بنو المحصنات اللابسات السنورا

ومنها العقيق ماء لبني جمدة وجرم ، تخاصموا فيه إلى انبي ﷺ فقتضى به
لبنى جرم ، ومنها عقيق البصرة واد مما يلي سفوان ، ومنها عقيق آخر يدفع
سيله في غوري تهامة ، وهو الذي ذكره الشافعي رضي الله عنه فقال : لو أهلوا
من العقيق كان أحب إلي (يريد أهل العراق الذين من عادتهم أن يهلوا من
ذات عرق) . ومنها عقيق تمر قرب تبالة وبيشة وقيل عقيق تمر هو عقيق اليمامة .
والعقيق واد لبني كلاب نسبة إلى اليماني لان أرض هوازن في نجد مما يلي اليمن

وأرض غطفان في نجد مما يلي الشام ، وإياه عنى الفرزدق بقوله :

ألم تر أني يوم جو سوقية بكيت ، فنادتني هنيدة : مالياء
فقلت لها ان البكاء لراحة به يشتهي من ظن أن لا تلاقي
قني ودعينا يا هنيء ، فاني أرى الركب قد ساموا العقيق اليمانيا
انتهى ملخصاً من معجم البلدان

وسيد الاقعه كلها عقيق المدينة المنورة ، وهو الذي يدور ذكره على السنة
الشعراء . وإذا قيل العقيق وحاجر ، اشتد الشوق وسالت الدموع من المحاجر ،
وقد تنزهت فيه ونشقت طيب هوائه ، ورشفت من عذب مائه ، وهو على
خسافة ساعة من المدينة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التحية ، وفيه
بئر عثمان بن عفان - رومة - وبئر عروة بن الزبير رضي الله عنهما . وقد كانت لنا
أيام زرت المدينة قبل الحرب العامة بسنة قيلات كثيرة على بئر عروة المشهورة
بخفة ماؤها والتي كان يرسل بمائها إلى هارون الرشيد . قال الزبير بن بكار : رأيت
أبي يأمر به فيغلى ثم يجمله في القوارير ويهديه إلى الرشيد وهو بالرقعة

هذا — وقد كنت أشعر عند بئر عثمان من انشراح الصدر ، وانفساح
الفكر ، ما لا أشعر به في مكان آخر ، حتى اني أردت مقابلة أعيان المدينة المنورة
الكرام على حفاوتهم بي ، والمكارم التي أظهروها ، والآداب التي اتخذوها ، فدعوت
منهم خمسين أو ستين شخصاً إلى مأدبة اخترت لها بئر عثمان التي قال فيها النبي
ﷺ « نعم القلب قلب الزني » وهي البئر التي كانت تسمى من قبل : بئر رومة
(بضم فسكون) كانت لرجل غفاري يقال ان اسمه رومة ، فلما أعجبت رسول الله
ﷺ اشتراها عثمان بخمسة وثلاثين ألف درهم ، وتصدق بها على المسلمين . وقال
مصعب بن الزبير يذكر بئر رومة ويتشوقها وهو بالعراق :

أقول ثابت - والعين تهني - دموعاً ما أنهنها أنحداراً

أعزني نظرة بقرى دجيل تحاييلها ظلما أو نهارا
فقال اري برومة أو بسلم منازلنا معطلة قفارا

ولم تكن جميع المنازل وقتئذ بالعقيق معطلة قفارا، بل كانت تلك الديار عامرة، وكانت حولها الجنان ناضرة، ولا تزال آثار العمارة هناك ظاهرة، ومنها آثار قصر عروة بن الزبير وقصر سعيد بن العاص وغيرهما، وإذا زخر عمران يثرب يوما من الايام فلا بد من أن تتصل المنازل من البلدة الى العقيق^{١)}

سليم المدينة المنورة

واما سليم - بفتح أوله وسكون ثانيه - فهو جبل على طرف المدينة المنورة إلى الشمال الغربي يبضي الشكل شامخ مشرف على جميع البلدة تعلو ذروته عنها نحو ثلاثمائة متر فلو حفل عمران المدينة وعادت اليها السكة الحديدية متصلة بالشام كما لا بد أن يكون ذلك ان شاء الله وجعلت إلى ذروة هذا الجبل مرقة funiculaire كما ترى في سويسرة للجبال العالية القريبة من العمران التي يتوقفون اليها بالسكك الراقية لكان في رأس سليم منزه يعز نظيره في الدنيا ولا يمل الناس الاختلاف اليه. ومعنى لفظة - سليم بالفتح وقد يكسر - الشق في الجبل قال ياقوت : قال ابو زباد : « الأسماع طرق في الجبال يسمى الواحد منها سلعا ، وهو أن يصعد الانسان في الشعب وهو بين الجبلين يبلغ أعلى الوادي ثم يمضي فيسند في الجبل حتى يطلع فيشرف على واد آخر يفصل بينهما هذا المسند الذي سند فيه (سند فيه رقي فيه ، والسند ما قبلك من الجبل وما علا عن السفح ، وفي وطني من جبل لبنان مكان يصعد فيه الانسان من عين عنوب الى عيناب يقال له سند عيناب) ثم ينحدر حينئذ في الوادي

١) في احاديث اشراط الساعة وما يحدث قبها ما يدل على ان منها عمران المدينة وان النبي ﷺ قال « تباع المساكن إهاب إرهباب » رواه مسلم في صحيحه من حديث ابى هريرة وان بعض رواه قال ان إهاب على بعد عدة اميال من المدينة

رابع مهلّ حجاج الشمال وسهولة ميناها وبرها ٢٦

الأخر حتى يخرج من الجبل مسجداً في فضاء الأرض فذاك الراس الذي أشرف من الوادين السلع ولا يعلوه إلا راجل » اهـ

(قلت) في سلع المدينة ذروة تناوحتها ذروة أخرى وبينهما منحدر خفيف من الأرض وكان الانراك قد جعلوا هناك نقطة عسكرية ومدافع ولعلها ناقية إلى اليوم ولقد علوت هذا الجبل راجلا في جماعة من الاحباب بدعوة قائد المدينة قبل الحرب العامة (بصري باشا) الذي دعانا إلى شرب الشاي هناك ، ولكن سيأتي يوم تقرر فيه مدينة الرسول عمرانا حفيلا وبصعد الناس إلى سلع بالمرقة ان شاء الله. قل صفي الدين الحلي :
ان جئت سلما فصل عن جيرة العلم واقرا السلام على عرب بندي سلم
والشعر في سماع كثير .

بنع ورايع وبيشة

ومن الاماكن الحجازية الملائى بالمستقبل - كما يقول الافرنج « ينع » قل ابن دريد « أخذ اسمها من الفعل المصارع الكثرة ينايها » وهي عن يمين جبل رضوى لمن كان منحدراً من المدينة المنورة إلى البحر على ليلة من رضوى وعلى سبع مراحل من المدينة

قال ياقوت « قال الشريف ابن سلمة بن عياش الينبعي : عدت بها مائة وسبعين عيناً » وقل عرام بن الاصغ السلمي « وهي لبني حسن بن علي وكان يسكنها الانصار وجهينة وليث وفيها عيون عذاب غزيرة وواديها بليل ، وبها منبر وهي قرية غناء »

ومنها رابع وهي بلدة على واد من دون الجحفة يقطعه الحاج من دون «عزور» (بفتح فسكون) قال الحازمي : يظن رابع واد من الجحفة له ذكر في المغازي وفي أيام العرب ، ومعنى الرابع العيش الناعم ، وكذلك الرابع الذي يقيم على أمر ممكن له ، وحجاج الشام يحرمون من رابع ^{١١} وإذا كانوا في السفين في البحر الاحمر

« ١١ » وكذا سائر من يحيط من الشمال وشرقيه وغريه فبحر منبر برا وبحرا ولو عمرت ميناء رابع لكانت اولى ب نزول هؤلاء الحجاج منها لان بحرها خير من بحر جدة وبرها خير من برها لكثرة المياه والشجر فيه وان كان ابعد عن مكة

وعلموا انهم صاروا بجذاء رابع أحرموا ولبوا ، ووادي رابع من أخصب أودية الجزيرة يجعل الاهالي هناك له سداً مؤقتاً من طين يحدونه كل سنة ويزرعون عليه ، ولو انتدبت شركة اسلامية وأخذت من حكومة الحجاز امتيازاً ببناء سد من حجر يتكون وراءه خزان مياه ذو مفاجر تسد وتفتح بحسب الحاجة لكانت عملية من أرباح العمليات الاقتصادية لان الزراع وأصحاب الاراضي يتمنون أن يؤدوا شيئاً معلوماً لأصحاب الخزان بشرط أن يأمنوا على قضية ري أراضيهم . ومن مزايا رابع ان ميناءها آمن ميناء في الحجاز . إذ من المعلوم ان مرافيء بحر الحجاز كلها مخوفة لا تقدر السفن أن ترفأ اليها الا بدلالة بحرية من أهل الحجاز يتخللون البحر امامها . وأما رابع فقد عافاها الله من هذه العلة

ومن المواضع الزراعية ذات البال في الحجاز بيشة التي إلى الجنوب من الحجاز نحو اليمن . قال ياقوت « اسم قرية غناء في واد كثير الامل من بلاد اليمن . وعن أبي زياد : خير ديار بني سلول بيشة . وهو واد يصب سبله من الحجاز حجاز الطائف ثم ينصب في نجد حتى ينتهي في بلاد عقيل . وفي بيشة بطون من الناس كثيرة في خشم وهلال وسؤاة بن عامر بن صعصعة وعقيل والضباب وقريش وهم بنو هاشم لهم المعمل » ثم قال ياقوت « وبيشة من عمل مكة مما يلي اليمن على خمس مراحل وبها من النخل والفسيل شيء كثير ، وفي وادي بيشة موضع مشجر كثير الاسد » قال السمهري :

وأنبئت ليلى بالفرين سلمت علي ودوني طخفة ورجامها
فان التي أهدت علي نأي دارها سلاما لمردود عليها سلامها
عديدا لخصي والائل من بطن بيشة وطر فائها مادام فيها حمامها
قلت طخفة جبل ورجام جبل أيضاً ، وأما المعمل الذي أشار اليه ياقوت فهو ملك نبي هاشم في بيشة . والاصل في تسميته « المعمل » هو هذه القصة :

كان في بيشة سلول وخشم يتنازعون : يحفر السلوليون فيضعون الفسيل فيجبيء الخشميون فينتزعونه ولا يزال بينهم اقتال على ذلك ، وسمي المكان الذي كانوا

يتنازعون فيه مطلوباً . فتخوف العجير السلوي من وقوع شر أعظم فأخذ من حطين هذا المحل ومائه ولحق بهشام بن عبد الملك الأموي ووصف له صفته وأتاه بالماء والطين وأخبره بما في بيشة من الأودية وما فيها من الفسيل وقال له إن من الممكن هناك غرس عشرة آلاف فسيلة في يوم واحد ، فأرسل الخليفة هشام من الشام إلى أمير مكة أن يشتري مائة زنجي ويجعل مع كل زنجي امرأته ثم يحملهم حتى يضمهم بمطوب وينقل إليهم الفسيل حتى يغرسوه ، ففعل أمير مكة ما أمره به الخليفة ، فلما رأى الناس ذلك قالوا إن مطلوباً معمل يعمل فيه ، فذهب اسمه « المعمل » إلى اليوم وقال العجير السلوي :

لأنوم للعين إلا وهي ساهرة حتى أصيب بغيظ أهل مطلوب
أو تغضبون فقد بدلت أيكتمكم ذرق الدجاج وتجنف العاقب
قد كنت أخبركم أن سوف يملكها بنو أمية وعداً غير مكذوب

قلت البعاقب جمع يعقوب ، وهو الذكور من الحجل والقطا . وتجنف البعاقب انتفش وتحرك وألقى جناحيه على البيضة . يريد أن يقول لسلول وخشم ما زلت تتنازعون حتى اضطررتموني أن ألبأ إلى الخليفة الأموي وأدعوه أن يملك المحل ، ويحرمه الفريقين ، فبدلتم بالجنان والمغارس ذرق الدجاج وتجنف القطا

ولم أشاهد ينبع النخل ولا رابع ولا بيشة وإنما شافهت كثيراً ممن شاهدوها وكان أكثر من ذكر لي خصب بيشة وخيراتنا الكتاب النمساوي ليوبولد وايس الذي أسلم وتسمى محمد اسد الله . فقد حدثني عنها أن فيها من قابلية الزراعة ما تكفي فيه ميرة مكة وجوارها طول السنة لو كان العمل قائماً فيها كما يجب . وأما النخل فكثيرته تدهش العقل ، وقد سمعت اسد الله يذكر مثل هذا الجلالة الملك ابن سعود في مجلسه الملوحي بمكة

وهذه بعض أمثلة اجتزى بها عن الاستقصاء ، فأقول :

الطريقة المثلى لعمران الحجاز الاقتصادي

ان الحجاز فيه بقاع زراعية هي في الدرجة القصوى من الخصب والزكاء ، ولكن ينبغي لها المال والعلم فلا بد من بناء السدود كما كانت من القديم ، ومن حفر الآبار الارتوازية لاستنباط المياه ، ومن الاعتماد في السواني على الآلات الرافعة البخارية (المواتر) وهناك طريقة رأيتها في الصيف الماضي في جزيرة ميورقة وهي الدواليب الهوائية تدور بهبوب الريح فترفع الماء ويتصبب إلى الصهاريج ، ولا يتكلف عليها صاحبها زيتاً ولا فخاً

فذا وجد الماء وجد من الخصب والخير والمير في الحجاز مالا يوجد في قطر آخر . وأما المال اللازم للمشروعات الزراعية المذكورة فله طريقان

(احدهما) ان تنظم الميزانية المالية لحكومة الحجاز تنظيماً حسناً ويفرز منها جانب واف لمصلحة الزراعة ، فتأخذ هذه كل سنة بمشروع وتقوم بإنشائه من مال الخزانة ثم تستوفي ذلك من الاهالي المنتفعين على أقساط معلومة مؤجلة إلى عدة سنوات بحسب جسامه المشروع

(والثانية) أن تتقدم لهذه الاعمال شركات اسلامية بمحة من حجازيين ونجديين ومصريين وشاميين وهنود واندونيسيين وغيرهم وتعطيها حكومة الحجاز بها امتيازات الى آجال معينة ، وهذه الشركات هي التي تبني السدود وتستوفي على الري شيئاً معلوماً من الزراع ، او تحفر الآبار الارتوازية وتأخذ بدل العمل مع الريج الذي يكون وقع عليه الشرط أو تقدم المواتر لاصحاب السواني وتأخذ منها منتجها على عدة سنوات وما أشبه ذلك (١)

« ١٥ » وفي أخبار أم القرى ان الحكومة السعودية اشدت أحد كبار مهندسي الامريكان لاختبار الارض وأما كن وجود المياه فيها . وانه وجد مياه غزيرة قرب وادي فاطمة من جهة جدة ، وستحفر هناك الآبار الارتوازية لاستخراجها وسقي الارض بها

*
* *

ويوجد عدا الزراعة منبع عظيم الرزق في الحجاز بل في كل جزيرة العرب هو المعادن . فان غنى الجزيرة بالمعادن موصوف معروف عند جميع الامم من قديم الدهر حتى ان المؤرخين أجمعوا على ان حصاره هذه الجزيرة الباهرة في الحقب القديمة انما قامت بامر من (أحدهما) نقل متاجر الهند والشرق الاقصى إلى الغرب بموقع العرب بين الاثنين (والثاني) ثروة المعادن التي تكنها أرض الجزيرة

فيمضي الآن وقد مضى وقت الفتوحات وصرنا لانطمح إلا إلى حفظ الموجود بيدنا، أن نأرّز إلى الجزيرة التي هي مهد العرب المنتشرين في أقطار المعمور جميعاً ونجعلها السكف المناع ، والاصل الجامع ، ونستخرج كل ما فيها من عيون الحياة الكامنة، حتى تصون نفسها، وتنجد أخواتها التي ابسطت عليهن أيدي الاستيلاء الاجنبي، وأصبحن لا يماكن لانفسهن أمراً، فنزح عنهن هذا الرق الذي رسفن في قيوده، وتتم بذلك الجامعة العربية التي هي نكتة الحياة ، ونشيدة آمالنا في هذه الدنيا . ويجب ان لا ننسى ان هذا الامر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله . فقد كانت معادن الجزيرة في القديم من أغزر منابع ثروتها وعزها وارتقاها وهي لا تزال هي هي لا يتقصها إلا الارادة والعمل

ولقد يقال إن استثمار المعادن ليس بامر سهل وانه ان انشبت الشركات الأوروبية مخالفاً في هذه المعادن جنينا منها السيطرة الأجنبية ، والذل ، والندامة، فالأفضل ان نكون فقراء أحراراً ولا نكون أغنياء أرقاء ... ولن نكون أرقاء وأغنياء أبداً، لان الثروة لا تجتمع مع فقد الاستقلال. وهؤلاء أهل المغرب والجزائر وتونس عندهم من معادن الفوسفات وغيرها ما يقوم بالمليارات وليس بأيديهم منه شيء حتى كأن ذلك ليس في أرضهم

كل هذا التعليل صحيح لا اعتراض عليه . وأحسن لنا ان نبقي فقراء مستقلين من ان يبتاعنا الاستعمار الاجنبي بواسطة معادن نرجو في استثمارها اليسر، فبؤول بنا الامر إلى الخسر . ولكن هذا التعليل لا يحل المشكل ، ولا يجوز لامة عاقلة رشيدة أبية تبغي الحياة مثلنا ان تعمل في قضيه ذات بال كهذه على حل سلمي

صرف، نظن أننا قد أجبنا به ضامناً الناشئة، وسكننا به خواطرنا الشائرة، على حين انه الحل الذي يليق بالام التي استوى عندها الماء والخشبة والتي لا تريد ان تعمل شيئاً ، بل تنظر قضاء الاستيلاء الاجنبي ان ينفذ فيها

أقول في تعليل ذلك (أولاً) ان الذين يقترحون استثمار هذه المعادن الثمينة لا يشيرون باعطاء أقل شيء منها لشركة أجنبية او لشركة مؤلفة من مسلمين هم تمنع لدولة أجنبية غير مسلمة ، بل يشيرون باعطاء الامتيازات لاستثمارها إلى شركات اسلامية مرجعها حكومات اسلامية ، ومما لا نزاع فيه ان الشركات التجارية في بلاد الاسلام قليلة وان رؤوس الاموال قليلة أيضاً

فالمسلمون لم يتعودوا أسلوب الشركات في التجارة فضلاً عن ان ثروتهم العامة لانساعدهم على تأليف هذه الشركات . الا ان المبالغة في كل شيء مذمومة فلا يجوز ان نظن أن تأليف الشركات عند المسلمين مستحيل ولا ان المال معدوم تماماً بين أيديهم ، فكلما هذين الاقتراضين مخالف للمحسوس

وفي بلاد الاسلام شركات اقتصادية كثيرة ، ومن المسلمين عدد غفير من ذوي الثروة ، وعدد غفير من ذوي المهارة في الامور الاقتصادية

واذا جربت حكومتنا الحجاز واليمن استثمار المعادن التي في هذين القطرين على أيدي متمولين من المسلمين فلا يبدأ هؤلاء بالربح ولا يتحقق المسلمون ان هذه المشروعات ذات عوائد أكيدة حتى يقبلوا على المساهمة من كل صوب وتجد من رؤوس الاموال عند المسلمين مالا يخطر لك على بال . وذلك لان الرخ جلاب وحيث تحقق وجود الفائدة وجد المال بلا اشكال

اذن يمكننا أن نستثمر معادن جزيرة العرب برؤوس أموال أصحابها مسلمون بل أصحابها مسلمون لا تلي بلدانهم دول غير مسلمة (١) وليس بضربة لازب ان

«١» إن تجار العرب في بمبي «الهند» وأكثرهم من نجد والكويت قد ألفوا شركة بواخر تمخر بين الهند وشط العرب زاحوا بها الشركات الانكليزية فزحواها . ثم كانت الحرب العامة سبب استيلاء الانكليز عليها بصفة قانونية

نستثمر هذه المناجم كلها دفعة واحدة ، بل يمكننا أن نستخرج خيراتها تدريجاً .
ولكن الذي لايجوز أصلاً هو ان نظاً والماء فوق ظهورنا ، او أن نشكو مزيد
الفقر والماء تحت رحالنا

(ثانياً) ان الظن الذي يظنه بعضنا ان السروح باستخراج هذه المناجم يفتح
أعين الاوربيين على الجزيرة لاسيما اذا رأوا الخيرات تدر منها وانهم قد يشنون
الغارات على البلاد لاجل حيازة هذه المعادن هو ظن لعمري بغير محله

فان الافرنج يعرفون مواقع هذه المعادن - ويعلمون ما فيها إن لم يكن تفصيلاً
فاجملاً . وعندهم علم آخر من طبقات الارض يجعلهم عارفين بما يحتوي من المعدن
والفلز كل نوع من هذه الطبقات ، فان كانوا لم يشنوا الغارات إلى اليوم على
الجزيرة فليس لجعلهم بما في بعضها من الكنوز والخيرات ، بل لان الامور
صرهونة باوقتها ، والاستيلاء على جزيرة العرب او على بعض أقسام من جزيرة
العرب ليس بالامر السهل ، بل دونه عقبات من وعورة الجبال ، وحرارة الرمال ،
وتجاعة الرجال ، فضلاً عما بين الدول من التنافس الذي يحمل بعضهم على الوقوف
بالمِرصاد لبعض مما يخشى منه وقوع الحرب بينهم . وعلى كل حال فان جزيرة إلى
الآن سالمة من استيلاء الاجنبي إلا بعض أطراف لا بال لها

فليس من الحكمة ولا من الحزم أن نضيع على أنفسنا ثروة نحن في أشد
الاحتياج اليها تحت ملاحظات ليست صحيحة وأسباب غير واردة
وما يدلنا على كون هذه المعادن معروفة عند الافرنج رسالة بالالمانية أطلعني
عليها مؤخراً مؤلفها المستشرق الالماني الشهير الاستاذ موريتز واسمها « المعادن
في العربية القديمة » die bergwerke in alten arabien

جاء فيها ماملخصه :

يظن الناس إجمالاً ان جزيرة العرب هي من افقر بلاد الدنيا ، وحقيقة .

الحال انها ليست كذلك ، بل إذا نظرنا إلى ما كانت عليه في القرون الوسطى نجد انها كانت ذات ثروة تضرب بها الامثال و كانت تلك الثروة آتية من منبعين (أحدهما) كون الجزيرة طريق التجارة بين الشرق والبحر المتوسط (والثاني) وفرة المعادن التي كانت فيها ، وأخصها الذهب ، فقد كانت هذه المعادن في أواسط عهد الالف سنة قبل المسيح معروفة عند العبرانيين والفينيقيين والاشوريين . وقد كان سليمان بن داود أرسل بعثة على حسابه إلى البحر الاحمر ، وعادت بعثنا ثم تدهش العقول

وذكر سترابون (جغرافي يوناني مات في زمان طيماريوس قيصر) وديودور (مؤرخ يوناني يقال له ديودور الصقلي صاحب تاريخ عظيم ، وكان معاصرا لاغسطس قيصر) انهما في بلاد العرب كان فيها النبر

وقد كانت جزيرة العرب قبل الاسلام وقبل دخولها في الفتوحات النائية ذات ثروة عظيمة بالزراعة والمعادن ، وكانت مكة أشبه بمركز حكومة جمهورية ذي مراكز تجارية عظيمة ذات علاقات مع الآفاق ، وكانت الاخذ والعطاء جاريين بقوة بينهما وبين سائر البلدان ، وكانت فيها صناعة الحلي بالغة درجة الاتقان ، ولا يزال صاغة مكة ، وصنعااء اليمن ، وغنيزة نجد ، الى يومنا هذا مشهورين باتقان الصنعة

أماكن معدن الذهب في جزيرة العرب

فأما الاقاليم التي فيها معادن الذهب من جزيرة العرب فمنها الاقاليم الغربية والذهب يوجد فيها باسناد الجبال الواقعة بين الداخل والساحل أي أسناد الجبال المتدلية إلى التهامم . وكذلك توجد معادن ذهب في أواسط الجزيرة في الاماكن المجهولة الضاربة إلى الجنوب والشرق . وهذه الجوانب الجبلية متكونة من حجر الغرانيت مع كثير من الرخام السماقي ، وهذه الحرات التي في الجنوب

والتي تمتد إلى مكة وإلى غربيها لا شك انها تولدت تحت تأثير التحولات الجيولوجية التي أدت إلى هذه القفار المحرقة وهذه اليموسة في الجزيرة ، وان شكل الغرانيت الصواني هذا يظهر في وسط البلاد وتمتد آثاره الى جهة الشرق اي في جبال نجد . واطرافه الجنوبية تظهر في شمالي اليمن الى أن تحاذي صنعاء من الشمال . واما الجنوب الغربي من الجزيرة والجنوب كله فتشكلاهما الجيولوجية مختلفة عن الاولى ، والذهب انما يوجد في الجهات التي فيها الصوان او الغرانيت وهي ما يأتي :

(أولا) في الشمال الغربي من الجزيرة بأرض مدين القديمة

(ثانياً) في ارض الحجاز الضاربة الى الجنوب

(ثالثاً) في الشرق من الجزيرة نحو نجد

(رابعاً) في الجنوب الشرقي إلى جهة اليمامة

(خامساً) في الجنوب الحض بأرض عسير إلى الشمال من اليمامة

فمدين هي البلاد الواقعة بين البحر الاحمر وقيم الجبال المحاذية للبحر الممتدة من نحو العقبة في الشمال إلى وادي الحض في الجنوب وهي اليوم تابعة للحجاز . وهناك مراكز على ساحل البحر منها (ظبا ، والمويلح ، والوجه)

وفي بلاد مدين معادن مفتوحة من قديم الدهر ، وآثار الشغل في المعدن واضحة جداً . ومعدن مدين هو المعدن الوحيد الذي توصل الاوربيون إلى معرفته جيداً من معادن جزيرة العرب ، فان الكتائب برتون Burton الرحالة الانكليزي قد كان ذهب على رأس بعثة أولى وثانية سنة ١٨٧٧ من قبل اسماعيل باشا خديوي مصر - الذي كانت مدين إذ ذاك تحت إدارته . ولكن لم يستصحبوا معهم في تلك البعثات علماء متخصصين في فن المعدن ، ومع هذا فقد أمكنهم أن يحققوا وجود التعدين القديم في نقاط عدة ، وجاءوا بحجارة مأخوذة كيفما اتفق

من على سطح الارض . ووجدوا ٤٨ غراما من الذهب في الطن الواحد ، ووجدوا فضة ونحاساً وحديداً ، ولكن النتائج لم تكن بحسب المأمول منها لعدم اعتمادهم في التعدين على أرباب الفن ذوي الاختصاص . ثم ان اسماعيل باشا بلغه ظهور معادن ذهب في السودان ، فانصرف عن معادن مدين البها . ولم تلبث أن استرجعت الدولة العثمانية مدين إلى إدارتها ، فبطلت كل حركة بحث في مدين^(١)

وفي جنوبي مدين معدن يقال له « الحراضة »^(٢) ثم إلى الجنوب منه معدن غير الذي ذكره الجغرافي العربي المقدسي وقال انه بين ينبع النخل ومروة . وهذا المعدن المجهول لم يزل بكر ، وأصحابه قبائل صغيرة لا يمكن الاوروبي أن يحول في أرضهم وأما المعادن المهمة في الجزيرة فهي التي في الحجاز واليمن ، وبكثرة فيها الذهب والفضة ، وفيها قليل من النحاس ، وفيها الحديد . ففي جنوبي الحجاز معادن

(١) بعد أن احتل الانكليز مصر بادرت الدولة إلى استرجاع سواحل العقبة والوجه وما يليها من يد الحكومة المصرية حتى لا تجعل الانكليز يداً في الحجاز . ولو لم تفعل الدولة ذلك لكان شطر من الحجاز الآن تحت سيطرة انكلترة ، وبرغم هذا فقد أذاق الانكليز بعد ذلك السلطان عبد الحميد عرق القربة من أجل العقبة وما رجعوا حتى الحقوا « طابة » بنصر لتكون العقبة تحت طائلة قوتهم ثم لما زالت الدولة العثمانية بعد الحرب العامة لم يزالوا حتى ألحقوا العقبة بشرق الاردن بموافقة الملك علي بن الحسين الذي كان سمي ملك الحجاز حينئذ لاختيه الامير عبدالله أمير هذه الجهة ، ويقال بموافقة غيره من أمراء الحجاز . وقد احتج على ذلك المؤرخ الاسلامي الذي انعقد في مكة منذ خمس سنوات ولم يعترف الملك ابن سعود باعتداء انكلترة هذا على العقبة ومعان اللتين كانتا تابعيتين للحجاز مع كل مرادتها له على هذا الامر ومع استظهارها باعتراف الملك علي

(٢) في معجم البلدان ذو حرض - على وزن عنق - وادي لبني عبدالله بن غسان على مقربة من معدن النقرة ولم يقل شيئاً عن هذا المعدن . ولقد جاء ذلك التعريف في تاج العروس وأما الحراضة - بضم أوله - فقد قالوا انه ماء بالمدينة ١٤٠ من هوا مشر

كثيرة شهيرة ، وكانوا في زمن النبي ﷺ يستخرجون منها بمجر درفع الحجارة وما لاشك فيه ان الاستخراج منها وقع بعد المسيح بستمئة سنة وكان حثيثا ومن معادن الحجاز معدن «بحران»^(١) بالضم أو بالفتح - على الطريق السلطاني من مكة الى المدينة .

ومنها معدن القبلية^(٢) في جبل قدس (بالضم) حيث بويغ الرسول ﷺ وكان معدنا عظيم الغلة ، وكانت ثروة الخليفة أبي بكر^(٣) من هذا المعدن ومن

(١) جاء في معجم البلدان: بحران بالضم موضع بناحية الفرع . قال ابن اسحاق هو معدن بالحجاز في ناحية الفرع وذلك المعدن للحجاج بن علاط الهزلي ، قال ان اسحاق في سيرة عبدالله بن جحش - بفتح الباء - فسلك على طريق الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له بحران: أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ميراً لما كانا يتقمانه ، كذا قيده ابن الفرات بفتح الباء ههنا وقد قيده في مواضع بضمها وذكره العمراني والزحشمري وضبطاه بالفتح (٢) القبلية (بالتحريك) من نواحي الفرع (بالضم) سراة ما بين المدينة وينبع . ماسال منها الى ينبع سمي بالفور وما سال منها الى اودية المدينة سمي بالقبلية ، وأقطع رسول الله ﷺ هذه القطيعة بلال بن الحارث المزني وكتب له « هذا ما أعطى محمد رسول الله بلال بن الحارث اعطاه معادن انقبالية غورها وجلسبها « غشية » و « ذات النصب » وحيث صلح الزرع من « قدس » وكتب معاوية « (٣) جاء في طبقات ابن سعد: كان ابو بكر ممروراً بالتجارة ، ولقد بعث النبي ﷺ وعنده اربعون الف درهم فكان يمتق منها ويقوي المسلمين حتى قدم المدينة بخمسة آلاف درهم فكان يفعل فيها ما كان يفعل في مكة . انتهى واما من جهة ما كان يعود عليه من المعادن فجاء فيها ما يلي :

كان قدم عليه مال من معدن القبلية ومن معادن جهينة كثير وانفتح معدن بي سليم في خلافة ابي بكر فقدم عليه منه بصدقه فكان يوضع ذلك في بيت المال . كان ابو بكر يقسمه على الناس نقرأ نقرأ - بضم النون وفتح القاف - فيصيب كل مائة اذنان كذا وكذا وكان يسوي بين الناس في القسم الحر والعبد والذكر والانثى والصغير والكبير له كله من حواشي الاصل

معدن آخر في بلاد جهينة وملحوظ أن كل هذه الجبال التي هناك غنية بالمعادن وقد كانت في زمن الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز يؤخذ عليها رسم من مال الصدقة ثم اخذ منها على وجه الخمس

وأعظم معدن في جزيرة العرب معدن جبل فاران^(١) الذي كان لبني سليم^(٢) وكان فيه ذهب وحديد ،

ولا نعلم انه تأسست نظارة خاصة بمعادن الحجاز في الدولة الاسلامية إلا سنة ١٢٨ للهجرة . وبعد هذا التاريخ بمائتي سنة خربت هذه المعادن أو انقطع الاستخراج منها بحسب رواية الاصطخري ، ولم يذكر ياقوت عن استغلالها شيئاً وليس عندنا عن أسباب ترك العمل في هذه المعادن الا افتراضات ، فيجوز أن نكون نفدت ماداتها ، ويجوز أن يكون إهمالها جاء من قبل الفتح الاسلامي الذي دشر العرب في الاقطار ، فقد كانت مكة قبل الاسلام مركزاً عظيماً للاخذ والعطاء ، ولم يكن ذلك بسبب حركة أهلها وحدهم بل بسبب كونها محط رحال القبائل المجاورة ، فقد كانت القافلة الواحدة نحو ألف جمل تتقدمها البوادي وتحفرها وتأخذ ٥٠ بالمائة من الارباح ، وهكذا كان البدو متعلقين بأهل مكة تابعين لهم فلما فتح الاسلام البلدان وتفرق العرب لم تبق مكة كما كانت من قبل مركزاً كبيراً للاخذ والعطاء لكنها بقيت فيها ثروة غير زهيدة

(١) فاران من اسماء مكة المكرمة وقيل هو اسم لجبال مكة وفي التوراة « جاء الله من سيناء ، وأشرق من ساعبر واستعان من فاران » تفسيره : ان الله كلم موسى عليه السلام من سيناء وانزل الانجيل على عيسى عليه السلام في ساعبر اي جبال فلسطين وانزل القرآن على محمد عليه السلام في فاران اي جبل مكة

(٢) جاء في المعجم معدن بنى سليم هو معدن فاران وهو من اعمال المدينة ، على طريق نجد اه من الاصل

وفي القرن الاول من الهجرة كان في الحرمين يسار عظيم، يستدل على ذلك من انه لما قتل الخليفة عثمان وجد وراءه من الذهب العيين ١٥٠ ألف دينار، يساوى الدينار عشرة ماركات، فإذا ضرب بأربعة لي مطابق حساب النقد اليوم بلغ ذلك ما يساوى ٦ ملايين مارك^١ وقد كانت تركة أخرى مقدره بخمسمائة

(١) كان عثمان بن عفان رضى الله عنه تاجراً في الجاهلية والاسلام وهو الذي جهز جيش العسرة - لفزوة تبوك - من ماله، وترك يوم قتل مائة وخمسين ألف دينار وثلاثين ألف درهم وخمسين ألف درهم وترك ألف بعير بالريذة وترك صدقات كان تصدق بها في براديس وخير ووادي القرى قيمتها مائتي ألف دينار. فانت ترى أن تركة عثمان كانت أعظم مما قال الاستاذ مورتز الألماني

وكان عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه موسراً أيضاً باع أرضاً من عثمان بأربعين ألف دينار، فقسم ذلك في فقراء بني زهرة فأقاربه وفي ذوي الحاجة من الناس، ولما مات ترك ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس ترعى بالبقيع في المدينة، وكان يزرع بالحرف على عثم بن ناضج، وقيل انه ترك ذهباً قطع بالفؤوس حتى مجات ايدي الرجال منه، وكان له نسوة اربع خرجت كل واحدة ثمانين ألف درهم وكان سعد بن ابى وقاص رضى الله عنه غنياً ترك يوم مات مائتي ألف وخمسين ألف درهم

ولكن الثروة العظمى كانت للزبير بن العوام رضى الله عنه، جاء في طبقات ابن سعد: انه بلغ ماله قيمة خمسة وثلاثين ألف ألف ومائتي ألف درهم أي ٣٥ مليوناً و٢٠٠ ألف، وترك اربع نسوة فأصاب كلا منهن مليون ومائة ألف. وحدث ابنه عبد الله بن الزبير انه دعاه يوم الجمل وقال له اني سأقتل اليوم مظلوماً يا بني، مع مالنا واقض ديني واوص بالثلث فان فضل من مالنا من بعد قضاء الدين شيء فثانته لولدك، قال عبد الله بن الزبير فجعل يوصي بدينه ويقول يا بني إن عجزت عن شيء فاستعن عايه مولاي، قال فوالله ما دريت ما أريد حتى قلت يا أبت من مولاك؟ قال الله، قال فوالله ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت يا مولى الزبير، اقض عنه دينه، فيقضيه، وقتل الزبير ولم يدع ديناراً ولا درهما، إلا أرضين فيها الغابة، واحدى عشرة دار بالمدينة، ودارين بالبصرة، وداراً بالكوفة، وداراً بمصر =

ألف دينار أى ٣٠ مليون مارك ، ولكن عند ما ارتفع لواء الاسلام في الآفاق

= واما دينه فكان مليونين ومائتي ألف درهم، وكان سبب هذه الديون ان الرجل كان يأتيه بالمال ليستودعه اياه، فيقول الزبير لا، ولكن هو سلف اني اخني عليه الضيعة وكان الزبير اشترى الغابة بمائة وسبعين ألف درهم فباعها عبد الله بن الزبير بمليون وستمائة ألف، ثم قام فقال من كان له على الزبير شيء فليوافنا بالعبادة فوافاه اصحاب الديون واستوفوا حقوقهم، وقال بنو الزبير اعبد الله اقسام لنا ميراثنا، قال لا والله لا اقسم بينكم حتي انادى في الموسم اربع سنين : ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضينه. فحمل كل سنة ينادى بالموسم، فلما مضت اربع سنين قسم بينهم قالوا كان للزبير بمصر خطط وبالسكندرية خطط وبالكوفة خطط وبالبصرة دور وكانت له غلات كثيرة تقدم عليه الى المدينة

واما طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه فقد ترك يوم قتل في واقعة الجمل تركه عظيمة، جاء في الطبقات قتل طلحة بن عبيد الله - رحمه الله - وفي يدخاذه ألفا ألف درهم ومائتا ألف درهم وقومت اصوله وعقاره ثلاثين ألف ألف درهم، وحدث عمرو بن العاص قال ان طلحة بن عبيد الله ترك مائة بهار في كل بهار ثلاث قناطير ذهب ، وسمت ان البهار جلد ثور «١» وقال ابراهيم بن محمد بن طلحة ، كان قبعة ما ترك طلحة بن عبيد الله من العقار والاموال وما ترك من الناض (المال الصامت العين في اصطلاح اهل الحجاز) ثلاثين ألف ألف درهم ترك من العين ألفي ألف ومائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار والباقي عروض ، وسأل معاوية موسى بن طلحة كم ترك ابو محمد رحمه الله من العين ؟ قال ترك ألفي ألف درهم ومائتي ألف دينار وكان يغل كل سنة من العراق مائة ألف سوى غلاته من الدرة وغيرها، وكان يدخل قوت اهله بالمدينة سنهم من مزرعة بقناة كان يزرع على عشرين ناضجاً ، وأول من زرع القمح بقناة هو ، وكان لا يدع احداً من بني تم أقاربه عائلاً الا كفاه مؤنته ومؤنة عياله وزوج أياهم وأخدم عائلهم وقضى دين غارهم، وكان يرسل الى عائشة كل سنة ١٠ آلاف درهم ، وقضى عن صبيحة التيمي ٣٠ ألف درهم، وطاحنة هو احد اجواد العرب المشهورين، وأحد الطلحات الاربعة المضروب المثل بكرمهم اهن الاصل

أخذ العرب ينساقون الجزيرة لينصووا تحتها ، ولم يبق في الحجاز إلا قبائل
بادية، كبنى هلال وبنى سليم وحرب - الذين بين مكة والمدينة - فصاروا يخلو
البلاد من الساكن إلى فقر شديد حملهم على الارتزاق من نهب الحجاج وقطع
السوابل، وعاد معول الحجاز كله - بدوا وحضرا - في المعيشة على موسم الحج

*
* *

وفي نجد معادن أيضا منها المعدن الذي يقال له «الحليت» في «أم الببل»
أي أم الابل بقرب حمى ضرية^١ وهو مشهور بالتهر . وقد تناقص محصوله من
كثرة ما استخرج منه وترك أخيرا ، ولو أمكنت زيارة تلك الارض لكان
منها فائدة إذ عندها كتابات منقوشة من قبل الاسلام ربما يعرف منها شيء عن
استخراج هذا المعدن

ثم في نجد معدن (المحبحة) ومعدن (الهجيرة) ومعدن (القصاص) وهي
معادن ذهب . والمعمل في (تربة)^٢ وهو معدن ذهب أيضا

(١) قال الاصمعي : حليت - بوزن خريت - معدن وقرية . وقال ياقوت ،
قال نصر حليت جبال من اخيلة حمى ضرية عظيمة كثيرة الفئان كان فيه معدن
ذهب ، وهو من ديار بنى كلاب وقال ابو زياد حليت ماء بالحلى للضبب وبحليت
معدن اه وجاء في معجم البلدان ذكر معدن بقرب حمى ضرية غير هذا قال
ابو عبيدة والخربة (بالتحريك) ارض مما يلي ضرية به معدن يقال له معدن خربة
(٢) جاء في معجم البلدان ذكر « تربة » بضم قمتح - انها واد بالقرب من
مكة على مسافة يومين منها يصب في بستان ابن عامر يسكنه بنو هلال وحواليه من
الجبال السراة ويسوم وفر قد ومعدن البرم اه

قال محمد بن احمد الهمداني تربة وزبيبة وييشة هذه الاودية الثلاثة ضخام
مسيرة كل واحد منها عشرون يوما سافلا في نجد واعاليها في السراة ثم قال وفي المثل عرف
بطني بطن تربة قاله عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب ابو براء ، لاعب الاسنة في قصة فيها
ظول غاب عن قومه فلما عاد الى تربة وهى ارضه التي ولدها الصق به بطنه بارضا
فوجد راحة فقال ذلك اه من حواشي الاصل

وأما معادن الفضة فهي اثنان فقط (أحدهما) معدن (أبرق ختر) ^(١) الذي كان غزيراً جداً، ثم من القرن الحادى عشر (أى الرابع للهجرة) انقطع خبره. ومعدن النقرة «بالفتح» ^(٢) الذى كان مذكوراً كثيراً الى القرن الثانى عشر وأما الحديد فقد ذكر وجوده الرحالة الازراسي هو بر Huber الذى ساح في بلاد العرب ولكنه لم يقل عنها شيئاً، وانما أشار إلى معدن -ديد في تبوك والليمامة غزيرة المعادن. ذكر الجغرافى الهمداني (٣٣٤ للهجرة) معدن الحسن (٣) ومعدن الحفير (٤) والضميب (٥) وثنية ابن عصام والعوسجة وتياس ثم يذكر الهمداني بعد ذلك معدني فضة ونحاس في شام (٦) وكان يشتغل فيها ألف رجل يومياً، وإن صح ذلك فيكون تعددين هذه المعادن من أيام الجاهلية وأما معادن اليمن وعسير فكانت معروفة من زمان الفينيقيين والعبرانيين وهي «شويلة» و «شيبا» و «أوفير» و «فراويم» والمظنون ان «شويلة» هي «خولان» وان «شيبا» هي سبا. وان فراويم هي فروة. وأما «أوفير» فمذكور في التوراة. ويظن انه في المكان المسمى سينباني

-
- (١) ضبطها الاستاذ موريتز، بضم فسكون وهكذا في تاج العروس انه على وزن قنفذ، وقد جاء في معجم البلدان «ختر» اسم موضع لكن بفتح فسكون
 - (٢) جاء في القاموس لغير وزابادي: والنقرة ويقال معدن النقرة وقد تكسر قافهما
 - (٣) جاء في المعجم: الحسن في ديار ضبة. وسنذكر كلام الهمداني نفسه عن هذه الاماكن
 - (٤) الحفير كزير جاء ذكره في المعجم وفي التاج - اسما لمدة مواضع أشهرها موضع بين البصرة ومكة يمر عليه الحاج. ولكن المقصود هنا معدن الحفير بناحية عمارة وسنقل كلام الهمداني نفسه
 - (٥) ضبطه موريتز بفتح فكسراً وير ولم أجده اسم موضع إلا بضم ففتح كزير
 - (٦) سنقل كلام الهمداني عن كل هذه المواضع اه من الاصل

وكثير من المؤلفين العرب لم يكونوا يعرفون من هذه المعادن الا أسماءها ولم يكونوا محققين أما كتبها ، ومن ذلك قول ياقوت : ان معدن البرم (بضم فسكون) بين مكة والطائف^١ وفي الوقت نفسه قالوا انه في وادي تربة . كذلك معدن « العثم » الذي جرى ذكره الى القرن العاشر والحادي عشر قد جعلوه في الساحل جنوبي الليث وفي «تثليث» الى جهة الداخل . ويجوز أن يكون المكان الثاني مقصودا به معدن نجران . وعلى ١٨٠ كيلومترا من نجران الى الشمال بالعقيق الأعلى معدن صعاد^٢ الذي بأرض بني عقيل الذي قال فيهم الرسول ﷺ « بأرض بني عقيل يطر الذهب » وقد كان هذا المعدن غزير الحصول الى القرن العاشر فاقطع ذكره . واشتهر معدن ضنكان (٣) شمالي عسير بجودة التبر الذي يخرج منه ، ثم اقطع خبره أيضا . ويجوز أن تتغير الاسماء بمرور الايام فان ناحية « قانونا » صار اسمها في الحديث قمفزة ، وان التي كان يقال لها ليتوس هاما يوم هي « الليث » اليوم

(١) قال في المعجم : معدن البرم قال عرام : قرية بين مكة والطائف يقال لها المعدن ، معدن البرم كثيرة النخل والزروع والمياه مياه آبار يسقون زروعهم بالزرائيق . قال أبو الدينار : معدن البرم لبني عقيل ، قات وقوله الزرائيق معناه السواني ، والزرائيق حائطان مبنيان على رأس البئر من جانبيها فتوضع عليهما النعامة وهي الحشبة المعلقة عليهما ثم يعلق بها البكرة ، قيل واذا كان الزوائقان من خشب فهما النعامتان ، والحشبة المعترضة هي المعجلة والغرب معاق بالمعجلة

(٢) قال الهمداني في « صفة جزيرة العرب » : العقيق عقيقان ، العقيق الأعلى للعنقيق ، ومنه معدن صعاد على يوم أو يومين وهو أغزر معدن في جزيرة العرب وهو الذي ذكره النبي ﷺ في قوله « مطرت أرض عقيل ذهابا والسفل هو في طيه » (٣) قال في المعجم : هو واد في أسفل السراة يصب الى البحر وهو من خاليف اليمن اه من حواشي الاصل

وفي صعدة من البين معدن الحديد ، وذكر السائح « هاتي » انه شاهد بعينه سنة ١٨٧٢ في خولان وسرواح شمالي صنعاء قطعا من الذهب مع الادلاء الذين كانوا معه من العرب ، وعلمت انهم يجدون هذا الذهب بشكل حبات في الرمل . وفي مجاري الانهر وفي الاودية ، وفي البين أيضاً معادن فضه منها معدن (الحرارح) في أرض همدان .

وختم الاستاذ مورتيز رسالته على معادن بلاد العرب بقوله :

« ان جزيرة العرب هي من البلاد التي عرفها انسياح أقل من جميع أقطار الارض وأكثر ماعرفوا منها السواحل وبعض القسم الشمالي . وفي جوف الجزيرة قطعة يعدل طولها بثمانمائة كيلو متر وعرضها بستائة كيلو متر لا يعرف عنها شيء لا من أي شكل هي ولا إذا كانت صحراء مبيدة او مسكونة ؟ وان عدم الاطلاع على حقائق هذه المجاهل ليس ناشئاً من طبيعة الارض كما هو ناشئ من طبيعة السكان » انتهى ملخصاً .

* * *

الدين النصيحة!!

فأنت ترى من هذه الرسالة المنشورة سنة ١٩١٧ أي منذ أربع عشرة سنة ان الاوربيين يعرفون ما في جزيرة العرب من المعادن ان لم يكن تفصيلاً فاجملاً ، وانه ليس عدم سماعهم بثروتها المعدنية هو الذي ثبطهم حتى اليوم عن احتلالها ، بل لذلك أسباب سياسية مرجعها حفظ التوازن الدولي ، وعسكرية مرجعها صعوبة مراس أهلها .

فالاولى بنا أن نفتح هذه الفرصة ونستغل ما أمكننا من هذه المعادن لنقوي بها جيوشنا ، ونصاح إدارتنا ، ونبت الحمارة في بلادنا ، وأن لا نأخذ

هذه الامور بالتسويق والمطاولة حتى يصيبنا ما اصاب تركيا في مطاولاتها باستخراج الكنوز التي كانت تحت يدها إلى أن جاء الاجانب واستولوا عليها ، فقد كانت قادرة أن تستفيد من زيت الموصل من عهد طويل ، فلم تبت في أمره شيئاً ، ولم تزل تماطل إلى أن أضاعت بهذه المماطلة ثروة تقوم بالمليارات الكثيرة من الجنيهات لامن الفرنسكت ، وكان عندها البحر الميت فلم تصنع في استخراج ثروته شيئاً ، ولا أبدت ولا أعادت إلى أن جاء الانكليز بعد الحرب العامة فخللوا مياهه وقوموا بما يمكن أن يستخرج منه ، فمالوا انه يمكن أن يستخرج منه قيمة خمسة آلاف مليار جنيه ، وعشرون الف مليون طن من الفوسفات وهلم جرا مما تعجب العقول عن تصوره ، وليس في جزيرة العرب شيء من الخيرات التي تقوم بهذه المليارات من الجنيهات ولكنه بدون شك فيها كثير من المعادن التي يمكن كلاً من حكومة الحجاز ونجد السعودية وحكومة اليمن الامامية أن ترتفق به وتستعين به على اصلاح بلادها وتعزيز أجنادها ، وذلك على شرط أن لاتلجأ في هذا الموضوع إلا إلى رؤوس أموال اصحابها مسلمون ليسوا من تبعة الاجانب . وهذا ممكن إذا ارادته هاتان الحكومتان وبدأتا بفحص في هذه الاماكن حتى تعلمتا تحت ارجلهما قبل مباشرة العمل

*
* *

﴿ كلام الهمداني في معادن جزيرة العرب ﴾

ولنذكر الآن مقاله الهمداني في كتابه المنقطع النظير « صفة جزيرة العرب » المطبوع في « ليدن » من سبع وأربعين سنة وذلك عن معادن الجزيرة

« معادن اليمامة وديار ربيعة التي توطنتها اليوم عقيل بن كعب : معدن الحسن والحسن قرن أسود مابيح وهو معدن ذهب غزير ، ومعدن الضبيب عن يسار هضب القلب ، ومعدن الثنية ثنية ابن عصام الباهلي معدن ذهب ، ومعدن العوسجة (١) من أرض غني فويق المغيرة بطن السرداح ، والمغيرة الماء الذي يقال انه رمي عليه شاس بن زهير بن ثعلبة بن الاعرج الغنوي ، ويقال المغيرة قرن يقال له الوتدة في بطن الوادي ، ومعدن شام الفضة والصفرة ، ومعدن تياس ذهب مخف بتياس (٢) ومعدن العقيق (٣) معدن العقيق بين العمق وبين افيعية ومعدن بيشة (٤) ومعدن الهجيرة (٥) ومعدن بني سليم (٦) فهذه معدن نجد » ثم ذكر الهمداني الإملاح وهي مما يجب أن يحال تحليلاً فنياً ليعرف ماذا يحتوي وما يمكن أن يستخرج منه من الاجزاء التي قد تقوم بالذهب كما جرى بالبحر الميت . قال الهمداني :

« الدليل أملاح من أوله الى آخره . الخديقة والرابعة وصيب والهوة ومياه الشرية ، وفيها يقول الحارث بن ظالم :

فلو طاوعت عرك كنت منهم وما ألفيت أنتجع السحابا
ولا ضفت الشرية كل عام أجد على أباثرها الذبابا
أباثر ملححة بحزير سوء تبيت سقاتها صردى سغابا

-
- (١) ورد ذكر العوسجة في المعجم انه معدن فضة ببلاد باهلة
(٢) ورد ذكر تياس في المعجم ولم يذكر معدناً بل قال انه جبل بقرب اليمامة
(٣) عقبى عارض اليمامة ذكره ياقوت
(٤) تقدم ذكر بيشة
(٥) لم يذكر ياقوت عن الهجيرة الا انها موضع
(٦) تقدم ذكر معدن بني سليم . من حواشي الاصل

ومن أملاح العُصْق المنهلة والنعجاوي ، ومن أملاح العبامة واشعل والبقرة
واحساء بني جوية، وينوفة حنتل، وناضحة، والبقرة، والنجلية، والنقرة، والحجارة
بجيزة الطريق سوى بجيزة اليمامة بين إجلة وبين الفرعة . مياه الحمادة أملاح
ونجيل ونجلة، والاباط، والحفيرة، والحامضة وشعبع مياه منيم الا الحداء وماء
يُفاء وبرك واوان، والخياءية، والنهيقة والقيضة، وما احتازته بدران فقبة إرام
الى خلفه، وعماية عذاب كله ، وانقطانية ملح بيطان السرة . فأما الملح الذي يمتلح
فصباح ملح الحاجر ، وملح المظلفية ، وملح القصبية، وملح يبرين ، وملح بناحية
البحرين ، وفي رؤوس الجبال ملح نحيث أحمر عروق . وهذه ملححات أهل نجد ،
فأما ملح اليمن فن جبل الملح مأرب ، وملح بالقمة من تهامة بناحية مَور ،
والمهجم ونشير من مياه تهامة أملاح، فمنها المعجر والجبال والحويثية، وجوحي،
وكل ما قارب الساحل جميعاً أملاح الا اليسير »

ثم يعود إلى المعادن في موضع آخر فيقول :

قد ذكرنا معادن الذهب ، فأما معدن الفضة فالرَضْرَض (بفتح أوله) فَمَا
لا نظيره وبها معادن حديد غير معمولة مثل نَقَم (بضم تين) وعُمدان (بضم أوله)
وبها فصوص البقران (محرّكة) ويبلغ المثلث بها مالا^(١) وهو أن يكون وجهه
أحمر فوق عرق أبيض فوق عرق أسود ، والبقران ألوان ومعدنه بجبل أنس
(بفتح أوله وكسر ثانيه) وهو ينسب الى أنس بن أهان بن مالك ، والسعوانية
من سعوان (بفتح فسكون) واد الى جنب صنعاء وهو فص أسود فيه عرق أبيض

(١) قال يا قوت في معجمه البقران بثلاث فتحات وقد تكسر القاف وربما
سكنت من مخاليف الين لبنى نجيد يجلب منه الحزق البقراني وهو اجود انواعه
قالوا وقد يبلغ القص منه مائة دينار قلت لعل هذا كان قديماً فأما في زماننا فما
رأيت ولا سمعت فص جزع بلغ دينار قط ولو انتهت غايته في الحسن الى اقصى مداها
أهـ من هوامش الاصل .

ومعدنه بشهارة (بضم أوله) وعيشان (بفتح أوله) من بلد حاشد الى جنب
هنوم (بكسر فسكون ففتح) وُظْلَيْمة (بضم ففتح) والجش (بفتح أوله) من
شرف همدان ، والعشاري (بضم أوله) وهو الحجر السماوي من عشار بالقرب
من صنعاء ، والبلور يوجد في مواضع منها ، والمسنيّ الذي يعمل منه نصب
السكاكين يوجد في مواضع منها ، والعقيق الاحمر والعقيق الاصفر العتيقان
من ألهان ، وبها الجزع الموثني والمسير وهو في مواضع منها منه النقي وهو
خل العرف والسعواني والزهري منه أجش والحولاني والجرتي (بضم فسكون)
من عذيقه ، والشرب (بفتح فسكون) يعمل منه ألواح وصنماخ وقوائم سيوف
ونصب سكاكين ومداهن وفحفة وغير ذلك ، وليس سواه إلا في بلد الهند ،
والهندي بعرق واحد »

ثم ذكر الهمداني معدن الرضراض في موضع آخر صفحة ٨١ من النسخة
المطبوعة بليدن فقال :

وأودية الرضراض وحريب نهم ومشاربها من جبال السرضرع ، وسامك
ومساقط بلد عذر مطرة ، وبلديام وهيلان ، وتحت سامك الرضراض ، واليه ينسب
معدن الرضراض ، وثم قرية المعدن معدن الفضة وهو معدن لا نظير له في الغزر
وخرّب بعد قتل محمد بن يعفر . اهـ

وقد تقدم ذكر الهمداني معدن البرام بقرب الطائف ، وقد ذكر أيضاً
في كلامه على بلد حرام من كثانة معدن ضنكان (بفتح فسكون) وقال عنه هو
معدن غزير ولا بأس بتيهه ثم ذكر معدن عشم (محرّكة) أيضاً

ولقد كان الملك حسين بن علي في أثناء ولايته انتدب بعض متخصصين في
الزراعة وفي علم طبقات الارض للبحث في أراضي الحجاز وإبداء آرائهم فيما يمكن
عمله لاستثمارها فجالوا في الاراضي ونظروا ودقّوا ورفّعوا اجلّالته تقريراً نشر

الخيز الزركلي خلاصته في كتابه « مارأيت وما سمعت » ومنه يظهر ان أراضي المنطقة الطائفية صالحة جداً للزراعة وانه ينبت فيها أكثر الاشياء النافعة كالشوندز والبطاطا والتبغ والقنب والسهم والارز والقطن والورد وغيرها. فأما عن تشكيلات الارض الجيولوجية فقد قررت البعثة الفنية المذكورة مايلي نأثره بحرفه :

تقرير علمي فني في صفة أراضي الحجاز وصخورها

« الاراضي التي في منطقة الطائف هي من أقدم طبقات الاراضي الجيولوجية جميعها من الصخور الاندفاعية الصلبة وهي لا تمتص المياه ولذلك يقل وجود الماء في الجبال إذ تتسرب عنها وترسب في الاودية .

« وهذه الصخور مركبة من « غنايس » رمادي اللون فيه ذرات سوداء و يتركب من « ميغا » و « كورانس » « وفلدسبات » ثم تليه طبقة صخور « الغرانيت » وهو على الغالب أحمر اللون فيه حبيبات رمادية لدعة وتركيبه أكثر كيب « الغنايس » وتليه طبقة صخور « البازالت » وهو صخر بركاني كحلي او أسود اللون مثقب كالاسفنج . وقد تتغير هيئة الصخور في منطقة الطائف ويكثر فيها صخر « الميكاشيت » وهو صخر أسود اللون مصفح ذو طبقات بعضها فوق بعض و « الكوارس » وهو صخر أبيض لماع وقد يوجد بصفة متباورة ويتركب منه « السيليس الصلبي » ويعلو هذه الطبقة القديمة طبقة مركبة من « الكلسيت » اجتمعت في الاودية ومجاري السيول ، وعلى مرور الزمان تألفت الطبقة العليا التي هي من تفتت الصخور الممتدة فوق الارض . ومن خصائص هذه الطبقات القديمة انها تحتوي على معادن من الجنس الجيد ومن حملتها معدنان

(أحدهما) رمل مركب من حديد « مؤكسد » ممزوج به قليل من النحاس

ويبلغ مقدار الحديد نحو ٦٠ في المائة ولا بد من تحسن المعدن في العمق

(والثاني) حديد مؤكسد أيضاً إنما هو صاف من الجنس الجيد يصلح

للاستخراج ويحتوي على نحو ٧٠ في المائة حديداً صرفاً، وفي منطقة الطائف خصوصاً ما بين عين الحضرة والطائف - مقادير وافرة من المرمر الاحمر الجليل الذي من فوائده انه يعمل أعمدة للابنية الجميلة وتوضع منه أشكال عديدة المزخرف «
ثم جاء في ذلك التقرير :

« وعلى بعد أربع ساعات من الطائف محلة تدعى « المعدن » فيها جبل مرتفع ٥٤٠ قدماً به حفريات قديمة تنبئ باستخراج معدن منه، وفيه آثار معدنية تحتوي على شيء من الحديد وقليل من النحاس ، وإذا حفر هذا الموضع فلا بد من وجود أشكال معدنية غير الشكل الظاهر على السطح ، ومما يبرهن على استخراج هذا المعدن قديماً آثار بيوت مبنية في قمة الجبل وبوادي من حفر يحرق فيها المعدن بنار الحطب أو الفحم ويستخرج منها الحديد ، وإذا أريدت متابعة استخراجها الآن لم يكف له الحفر على وجه الأرض ، بل ينبغي حفر آبار تتفرع منها سرايب تحت الأرض

وفي جبل الوهط جنس صخر يدعى « ميسا » أبيض اللون ، تتجزأ منه صحف رقيقة كالورق، شفاقة كالزجاج ، وهو غير قابل للذوبان في النار مهما بلغت حرارتها . ومن فوائده انه يستعمل الآلات الكهربائية ، وللمواقد الحديدية ، المتخذة للدفء . وفيه من الحجر الكلس المتبلور الصافي ، الصالح لاستخراج الكلس ، الصافي اللون » انتهى

(قلت) قد رأيت في بلاد الطائف أشكالا وألوانا من الحجارة وأتذكر اني رأيت في العقبة المسماة « بكرا الصغير » التي يصعد بها الانسان من وادي المحرم إلى الهده حجراً أخضر كثيراً . وقد جاء في معجم ياقوت عند ذكر حرة بني سليم ان بها معدن « الدهنج » وهو حجر أخضر يحفر عنه كسائر المعادن

رسالة قريظة في معادن اليمن

ولقد جردنا ذكر المعادن إلى نقل رسالة صغيرة عن معادن اليمن وجدتها في آخر الجلد الذي فيه الجزء العاشر من كتاب «الأكلیل» للهمداني من النسخة التي في المكتبة الملوكة في برلين ، وليس الكلام للهمداني ولا هو من عبارته وإنما فيه شواهد أحياناً من كلام الهمداني

قال : « حجري وترابي في الخلقة معدن في الجبل فضة وذهب . وفي خرابة ذي ح ب معدن ، وفي أب (١) معدن ، وفي أفیق (٢) معدن ، وفي بلد عنس (٣) معدن ذهب في وسط الجروف فوق المزارع ، فوق الحجر معدن رصاص أسود

(١) قال ياقوت أب بالفتح والتشديد هي بلدة باليمن ، ونقل عن عمر بن عبد الخالق الابني أن أب بالكسر وان أهل اليمن لا يعرفون الفتح ، وجاء في تاج العروس عن أبي طاهر السلفي أنها بكسر الهزة ، وجاء أن أب بالكسر من قرى ذي جبلة باليمن ، وقال الصغاني هي من خلاف جعفر

(٢) لم نجد له في الأصل مضبوطاً فلا نعلم هل هو بفتح فكسر أم بضم ففتح فسكون — وياقوت يذكر « أفیق » على وزن أمير — البلدة ذات العقبة المشرفة على بحيرة طبرية ويذكر بلدًا بالتصغير — على وزن سميل — يقول عنه موضع ببلاد بني يربوع ولا يقول غير ذلك إلا أن تاج العروس يقول إن أفیق — على وزن أمير — بلدة بين حوران والنور ومنه عقبة أفیق وبلدة لبني يربوع أو بلدة بنو حادي دمار . وقد اغفله ياقوت والصغاني والمفهوم من كلام القيروزبادي والزبيدي أن جميعها — على وزن أمير — وليس فيها ما هو بالتصغير ولم يذكر منهم أحد معادن لافي أب ولا في أفیق

(٣) بفتح أوله وسكون ثانيه قال ياقوت هو خلاف باليمن وجاء في تاج العروس أن عنس لقب زيد بن مالك بن أدد أبو قبيلة من اليمن وخلاف عنس ماضاف اليه ولم يذكرها ما معدناً (بالحاشية) أهكل ما تقدم وما سيأتي في هذا الفصل من حواشي الأصل

في جرشة عنس في الشعب الذي ينزل الى ورقة في الاكمة السوداء على الشمال اذ انت نازل الى ورقة وهي حجارة سود تشبه السكل ، تكسر الحجارة ويوقد عليه زبل الدجاج إلى أن يصير كلاء ، وفي بلد بني غصين (١) معدن فضة عند خشران بالطراة العالية عند الخربتين الكبيرتين وهو تراب لونه أصفر مرجع إلى خضرة يؤخذ منه ويخنط عليه فراز الخل وعضة (٢) الكشر (٣) واللبن. الحامض ستة أيام ويطبع فانه يصير ماء فيطالع الزبد في أعلاه

ومن المعادن المشهورة معدن فضة جيد في موضع يقال له الرضراض حد ماين خولان وحمدان كان لبني يمقر ، وقد خرب فوقه الآن جبل ذكره صاحب جزيرة العرب (٤) ولعله في حوزة نهم (٥) معادن يابسة من نهم مشهورة منها ماهو رصاص اسود جيد ، ومنها ماهو فضة . معدن فضة في بلد سارع (٦) في المغرب كان يعمل منه الامام شرف الدين عليه السلام ، وربما انهدم عليه جبل على ما وصفه أهل الخبرة

(١) قال ابن دريد واحسب أن بنى غصين بطن ، قال الزبيدي قلت وهم اليوم بفضة وشرذمة بالرملة . منهم الامام المحدث الشيخ عبد القادر بن غصين الغزي الشافعي ولم يذكر ، هل هي بالتشديد أم لا ؟

(٢) العضة القطعة (٣) الكشر الحيز اليا بر (٤) يريد أن يقول صاحب كتاب صفة جزيرة العرب وهو الهمداني

(٥) نهم - بالكسر - ابن عمرو بن ربيعة بن مالك بن معاوية بن صعب بن دومان بن بكيل أبو بطن من حمدان قال الزبيدي صاحب تاج العروس : ومنهم بقية اليوم بصنعاء اليمن (٦) لم نجد ذكر سارع في تاج العروس وإنما وجدنا فيه ذكر شارع بالمجمة وقال بلدة . ولم يذكر أين هي أما الهمداني في « صفة جزيرة العرب » فيذكر سارع الأعلى بخلاف شبام مغرب صنعاء

معادن جبل نغم (١) كثيرة فيه، معدن ذهب جيد ومعدن حديد كانت حمير تعمل منه السيوف الخيرية التي تسمى البرغشية، صنعت في زمن الملك برغش المشهور، قال صاحب جزيرة العرب: وفيه معادن الجواهر: الزمرد والياقوت والبلور والزجاج والجزع. وفي سعوآن (٢) معدن ذهب ومعادن حجارة منها الحجر المرجمي معدن صرواح (٣) ذهب جيد، وفي بيجان في الجوف (٤) معدن ذهب

(١) انعم بضمين قال في القاموس: نغم بالضم بلدة باليمن. قال الزبيدي: قلت قد أجهف المصنف في ضبطها وبيانها لإجفافاً كلياً والصواب في ضبطها بضمين وفتحين. وكعضد - كما صرح به ياقوت. وأما الضم وحده مع تسكين القاف فلم يذكره أحد، قال ياقوت هو جبل مطل على ضياء قرب غمدان قال فيه زياد بن منقذ:

الأحبذا أت يا صنعاء من بلد ولا شعوب هوى مني ولا نغم

(٢) قال الهمداني جبل عيبان وجبل نغم وما بينهما من حقل صنعاء وشعوب ووادي سعوآن ووادي السر ومطرة وفيها أودية كثيرة وأورد مثلاً يمانياً: أحلك الأرض مسور (يفتح فسكون) وأخذها تبوعر (بضم فضم) وأحور، فأحور (على وزن أقمل) وسعوآن لو غمطر

(٣) صرواح حصن باليمن ذكره في التاج. وقال ياقوت: والصرواح في اليمن قرب مأرب وأنشد له جملة شواهد من الشعر منها:

أبوا الذي أهدى السروج بمأرب فأبى إلى صرواح يوماً نوافله

ومنها:

تشبوا على صرواح خمسين حجة ومأرب صافوا ريفها وتربوا

(٤) قال ياقوت عند ذكره لفظة جوف والاماكن المسماة بها. قال أبو زياد الجوف جوف المحورة ببلاد غمدان ومراد. وقال الجوف من أرض مراد واستشهد عليه بشعر:

فلو أن قومي أنشدتم رماحهم نطقن ولكن الرماح أجرت

شهدنا بأن الجوف كان لا مكم فرال عمار الأم منها فمرت

سيمنكم يوم الله فوارس بطعن كأفواه المازاد استكرت

وقال الهمداني: الجوف منفق من الأرض بين جبل نهم الشمالي الذي فيه أنف اللوذ وأوين الجنوبي الموصل هيلان من يمد، وذكر الهمداني أن سكان بيجان مراد

وذكر صاحب كتاب التيجان معادن الجبل الابلق وهو بالقرب من سد مأرب (١)

(١) همزة ساكنة وكسر الراء، قال ياقوت: هي بلاد الازد باليمن. وقال السهيلي مأرب اسم قصر كان لهم، وقيل اسم لكل ملك كان يلي سبأ كما ان تيمناً اسم لكل من ولي اليمن والشجر وحضر موت . وروى ياقوت عن المسعودي ان سد مأرب من بناء سبأ بن يشجب بن يعرب وكان سافله سبعين واديا ، فأت قبل أن يستتمه فأمنه ملوك حمير بعده ، وقال انه حدثه شيخ فقيه محصل من ناحية شبام كوكبان وكان مسنيناً متنبأ فنبأ بحكي قال له انه شاهد مأرب بعينه وهي بين حضر موت وصنماء وبينها وبين صنماء أربعة أيام، وهي قريبة ليس بها عامر إلا ثلاث قرى يقال لها الدروب الخ، قال ، وسأله عن سد مأرب فقال هو بين ثلاثة جبال يصب ماء السيل الى موضع واحد ليس لذلك الماء مخرج إلا من جهة واحدة، فكان الاوائل قد سدوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة والرصاص فيجتمع فيه ماء عيون هناك مع ما يجتمع من مياه السيول فيصير خلف السد كالبجر فكانوا اذا أرادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة وحركات مهندسة، فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدونه اذا أرادوا ، قال عبيد الله بن قيس الرقيات

يا ديار الحباب بين صنما ومأرب
جارك السعد غدوة والثرى بهائم
من صريم كأنما برمي كالقواضب
في اصطفاق ورنه واعتدال المواكب

وأما قصة خراب سد مأرب فطويلة ، والمؤرخون على ان قبائل اليمن تفرقت في البلدان من بعده، وهم يقولون ان جرذانا حمراً حفرن السد بأنبائها حتى اقتلعت الحجر الذي لا يستقله مائة رجل، ثم أخذت تدفعه بمخالب وجليها الى غير ذلك من الاقاريل. وما أراه إلا خرب من قلة التعاهد وانقطاع الترميم الذي يجب استمراره لانه، وان نهاية الامر انه لا وقع فيه الحرق انهار وغرق ماؤه البلاد وأذهب الكروم والجنان والحدائق والبساتين والقصور والدور، وجاء السيل بالرمل فطمها وذهب أكثر عمران اليمن وتفرقت عربيه عبايد في الاقطار ، وقال الاعشي
ففي ذاك للمؤسي أسوة ومأرب عفى عليها العرم
رخام بنته لهم حمير اذا مانأى مأوهم لم يرم

كان كل من بني قحطان وحير وعاد يعرف معادنه، والابلق جبل متصل بالجبال الزرق، وأما قبل له الابق لانه في ارض سوداء فيها معادن الاجين متصل بالسد وأرض غبراء فيها معادن العقيان، وأرض زرقاء فيها معادن الزرجد وانجزع، كان يقال له الباذخ ولأرب الشامخ، فأرب متصل بجبال عمان، والابلق متصل ببهر لبحه

قال الحسن الهمداني: وفي بلد الهان بن زيد بن مالك معادن البقران الجيد وكذلك في جبل أبي أنس^(١) بن الهان بن زيد بن مالك وهو جبل صوران^(٢) الحجر العتيق من العتيق اليماني والبقراني، ويقال ان في بلد يسمى دهم في حد بني قشيب معدن، وفي رأس جبل الشرق معدن فضة. وفي وادي «مونا» بموضع خربة «الساوة» معدن فضة

قال الهمداني في كتاب جزيرة العرب

وفي جبل عشار معادن البقران وهو جيد، وفي جبل هزان^(٣) قبلي مدينة ذمار معادن الحجارة النفيسة اليمانية من العتيق الاحمر والابيض والاصفر والورد وفي قرية ملص^(٤)

فأروى الحروث وأغنامها على ساعة ماؤم أن قسم

وطار الفيول وفيهم يهمل فيها سراب بطم

فكانوا بذلك حقبسة قال بهم جارف منهمدم

(١) الهمداني لا يقول جبل أبي أس بل جبل أنس بن الهان بن مالك،

هكذا في النسخة المطبوعة من «صفة جزيرة العرب» ويعيد ذلك مرة ثانية في صفحة

١٠٥ فيقول جبل أنس وفيه معدن البقران

(٢) هذا الجبل مذكور في «صفة جزيرة العرب» لالهمداني

(٣) جاء في التاج وهزان بن الحارث الحولاني شهد فتح مصر ولعل هذا

الحيل منسوب اليه او الى رجل آخر اسمه هزان

(٤) قال في التاج وملص اسم. موضع

من مغرب ذمار (١) معادن العقيق اليماني والجواهر النفيسة وذلك مشهور معائن . وعما رواه بعض حكمة العقيق من أهل ملص ان في بلد زيد (٢) معدن الزمردالعال وانه لما ظهر هدموا عليه أهل البلاد جبلا خشية أن تعيرهم

«١» قرية باليمن قيل على مرحلتين من صنعاء وقال قوم ذمار اسم صنعاء وصنعاء كلمة حبشية اى حصين وثيق قاله الحبش لما تدبروا مع ابرهة ورأوا صنعاء ورواها بعضهم بالكسر . وقال ابن دريد بالفتح قيل انه وجد في اساس الكعبة لما هدمتها قريش مكشوب بالمسند «لن ملك ذمار؟ لمحير الاخير، لن ملك ذمار؟ للحبشة الاشرار . لن ملك ذمار؟ لفارس الاحرار، لن ملك ذمار؟ لقريش التجار، ثم حار عمار» اى رجع مرجأ . واما الهمداني فقد قال في « حفة جزيرة العرب » عن ذمار ما يلي: بخلاف ذمار قرية جامعة فيها زروع وآبار قرية يئال ماؤها باليد ويسكنها بطون من حمير وانفار من الابناء (قات: الابناء ابناء الفرس الذين كانوا احتلوا اليمن) ورأس مخاليفها بلد تنس وساكنه اليوم بعض قبائل عنس بن مذحج ، ثم ذكر ذمار القرن وقال: قرية قديمة خراب وقال ان ذمار الحدر غيرها قال واما مخاليف ذمار من غربها فهي مصنعة اتيق الغيثيين - قبيلة - وجمع والموفدوسربة ووادي القصب لبني عبد كلال - الى ان يقول - ويسكن هذه المواضع من بطون حمير: اوزاعي ومغني وغير ذلك «٢» من اشهر مدن اليمن بل مدنت العرب، ذكر السبدي مرفى الزبيدي صاحب «تاج العروس من جواهر القاموس» زيد فقال - كابر - بلد باليمن مشهور اختطه محمد بن زياد مولى المهدي في زمن الرشيد العباسي إذ بعثه الى اليمن فاختر هذه البقعة واختط بها هذه المدينة المباركة وسورها وجعل لها ابواباً، ثم مات سنة ٢٤٥ ثم خلفه ابنه ابراهيم بن زياد واستمر الى سنة ٢٨٩ وخلفه ابنه زياد بن ابراهيم ومات سنة ٢٩١ ثم ابنه زياد وهو طفل فتوزر له حنين بن سلامة وهو باني السور، ثم ادار عليها سوراً ثانياً الوزير ابو منصور الفاتكي ثم ادار عليها سوراً ثالثاً سيف الاسلام طفتكين ابن ابوب في سنة ٥٨٩ وهو الذى ركب على السور اربعة ابواب، قال ابن الجاور عدت ابراج مدينة زيد فوجدتها مائة برج وسبعة ابراج بين كل برج وبرج ثمانون ذراعاً قال ويدخل في كل برج عشرون ذراعاً فيكون دور البلد عشرة آلاف ذراع وتسمائة ذراع وقد تكفل بتفصيل اخبارها =

القبائل وتسميهم الحسكاكين (١) بلاد برط (٢) كثيرة المعادن يوجد فيها معادن الرصاص الاسود في مواضع كثيرة صلب صاف جيد ، وفيها معادن ذهب وفضة ، ويوجد فيها معادن المرقيشيا الذهبية والفضية وما شابهها . وفي بلاد صعدة (٣)

= ابن سمره الجسدي في تاريخ اليمن وكذا صاحب المفيد في تاريخ زيد « اه قلت اذكرك اني قرأت ان احد خطباء الجوامع كان يدعو لاحد الملوك واطنه صلاح الدين الايوبي قائلاً عنه صاحب مصر وصيدها ، واليمن وزبيدها ، والحجاز وعبيدها ، والشام وصناديدها . ولعل قائلاً يقول هذه جرتها السجعة قاقول له لا يحسن وقع السجعة الا اذا جاءت في محالها

(١) قات ما احد سلم من التعبير . وقولهم عن اهل زيد « حكاكون » اهلون من قول بعضهم عن اهل اليمن ، دايع جلد ، وناسج برد ، وسائس فرد ، وراكب عرد ، اي حمار . ولعمري ان دايع الجلود ونسج البرود لما يتنافس فيه اليوم ، وان حمير اليمن لا نظير لها في تسلق الجبال والمشي على الصخور التي قد يزل عنها الماعز ، عرفها في الطائف جيداً ، ولما صعدنا الى الجبال المسماة بالشفاء التي لا تكاد تسلكها الطير لم يكن لنا حيلة بدون هذه الحمار اليمنية

(٢) برط (محرقة) من بلاد همدان قال الهمداني جبل برط ساكنه دومة من شاكرين بكيل وزروعه اعقار ، وعلى المساني واهله انجد همدان وحماة العدو ومنعة البحار

(٣) قال الهمداني اما حقل صعدة فانه مخترل من بلد همدان ولذلك خبر في كتاب الايام ، ومدينة خولان العظمى صعدة واهدت قرية القبل من قرب صعدة وصعدة بلد الدباغ في الجاهلية الجاهلاء (قات من هنا جاء دايع جلد عن اهل اليمن) وهي في موطن بلد الفرط ربما وقع فيها الفرط من اقب رطل الى خمسمائة بدينار مطوق على وزن الدرهم القفلة (درهم قفلة بفتح فسكون اي وازن) وقال ياقوت صعدة بخلاف باليمن بينه وبين صنعاء ستون فرسخاً وبينه وبين خيوان ستة عشر فرسخاً قال الحسن بن محمد المهلبى : صعدة مدينة طامة آهلة بقصدها التجار من كل بلد وبها مسابغ الأدم وجلود البقر التي للتعال وهي خصبة كثيرة الخير ، وهي في الاقاليم الثاني عرضها ست عشرة درجة وارتفاعها وجميع وجوه المال مائة الف دينار

معادن الحديد يدخه أهل البادية تراباً الى مدينة صعدة وبخاص فيها ، والكثير منه في بلاد بني جماعة (١) وأجود ما كان من بلاد باقم (٢) معدن الهندوان (٣) والمرقيشيا في الشام (أي الشمال) كثير موجود ، وفي قلعة وادي ظهر (٤) معدن حديد ومعدن فضة . قال الهمداني في كتابه هذا : كان بنو يعفر يحملون الفضة من شبام (٥) سحماً الى صنعاء ، وهي بالقرب من صنعاء على ساعتين قريب من ذي مرمر ، فظاهر قوله ان فيها معدن فضة .

وذكر بمض الفقهاء انه وجد بجبل صبر (٦) معدن ذهب وعمل منه عملاً إلا انه كان يقسى عليه ولعله لم يحكم تدبيره

«١» قال الهمداني وادي نجران فروعه من ثلاثة مواضع من بلد بني خيف من وادعة ومن بلد بني جماعة من خولان ومن بلد شاكر

«٢» ذكر في تاج العروس البقوم قبيلة من الازد وقال ان واحدهم باقم

«٣» لا أعلم ما يريد بالهندوان فلعله يختصر من الهندواني وهذا في منسوب إلى الهند.

«٤» اهله منسوب إلى ظهر بطن من حمير

«٥» شبام بكسر أوله حي من همدان من اليمن وجبل همدان باليمن وبه سميت.

القبيلة المذكورة لتزولهم فيه على مافي تاج العروس وأيضاً بلد تحت جبل كوكبان. وأيضاً بلد لبني حبيب عند ذي مرمر والارجح أن شبام المقصودة هي هذه . والهمداني يقول ان شبام هي أول بلاد حمير وهي مدينة الجميع الكبيرة وبها ثلاثون مسجداً لكنه يذكر أن نصفها خراب خربت كندة

«٦» قال ياقوت: صبر - بفتح أوله وكسر ثانيه - بلفظ الصبر من العقابر اسم

الجبل الشاخ العظيم المطل على قلعة « تمز » فيه عدة حصون وقرى باليمن وقال ابن أبي الدمينه جبل صبر في بلاد المعافر وسكانه الركب والحواشب من حمير وسكسك.

وفي بلاد المعافر (١) من اليمن الاعلى والاسفل معادن كثيرة إلا اننا لم نطلع على شيء من أخبار مواضعها

١ «معافر أبو حي من همدان لا ينصرف لانه جاء على مثال ما لا ينصرف من الجمع واليه تنسب الثياب المعافرية ويقال ثوب معافري فتصرفه لأنك أدخات عليه ياء النسبة ونسب على الجمع لأن معافر اسم اشيء كما تقول لرجل من كلاب كلابي وجاء في كتاب «صفة جزيرة العرب» للهمداني خلافا للمعافر أما الجوة من عمل المعافر قال رأس فيها والسلطان عليها إلى آل ذي المغاس الهمداني ثم المراني من ولد عمير ذي المران قيل همدان الذي كتب اليه الرسول ﷺ وأما جبا وأعمالها وهي كورة المعافر فهي في فجوة بين صبر وجبل ذخ وطريقها في وادي الظبات ومنها اودية ذخ وباشعة ويسكنها السكاسك ورسمان ويسكنه الركب وبنو مجيد وجبرة لهم من بني واقد ومن الركب النشورة وملوك المعافر آل الكرندي من سبأ الاصفر ينتمون إلى ولادة الايض بن حمال منازلهم بالجبل من قاع جبا، ومنثرب الجميع من عين تنحدر من رأس جبل صبر غزيرة يقال لها «أف» أخف ماء وأطيه ويصلح عليه الشعر ويكثر، وأهل المعافر وما والاها يستعملون السكينية في الرأس وتحسن في بادهم «فات السكينية طرة مذوبة إلى سكينة على وزن جبرينة وهي بنت الحسين بن علي رضي الله عنهما شهدت مع أبيها ألطف ولما رجعت إلى المدينة خطبها أشراف قريش فأبى وترفت وبقيت تبكي على أبيها حتى ماتت كمد أَرْضَى الله عنها) ويفضي قاع جبا في المنحدر إلى ناحية بلد بني مجيد إلى كثير من قرى المعافر مثل حرازة وصحارة وعزازة والدمينة وبزداد وساكن هذه المواضع من بطون حمير من ولد المعافر بن يعفر اه

(قلت) وكانت معافر كثيرة العدد في جالية العرب إلى الاندلس وقد جاء أمامي ذكر «المعافري» كثير أ في كتاب الصلة لابن بشكوال والنكلة لابن الأبار البنسي وبقية المتلس لابن عميرة ونفع الطيب لامقري وناهيك أن محمد بن أبي عامر الملك المنصور الشهير الفاتح- المعدود من أعظم رجال الاسلام بل رجال العالم الذي غزا ستاً وخمسين غزوة في الافرنج لم تنكس له في واحدة منها راية- هو معافري ونسبه محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري وعبد الملك جدّه هو إلفاقد مع طارق بن زياد على الاندلس

ووصف بعض أهل الصناعة في صيغة الفضة انه وجد معدن فضة فوق مدينة جبلة (١) ومعدن رصاص أسود في الشعب المدني . وذكر أيضاً ان في جبل بني سبأ (٢) قبلي ضرية (٣) عمرو ، وفي رأس نفيل سمارة (٤) ، وفي بني سيف معدن نحاس وقد أخذ منه وعمل عملاً وهو بالقرب من الطريق الذي ينزل منها إلى بني سيف ، وفي مكان يسمى حوبر (٥) قفر حاشد (٦)

(١) جبلة (بكسر فسكون) مدينة باليمن تحت جبل صبر وتسمى ذات النهرين وهي من أحسن مدن اليمن ، وأزهارها ، وأطيبها . قال عمارة جبلة رجل يهودي كان يبيع الفخار في الموضع الذي بنت فيه الحرة الصليحية دار العروبة وسميت باسمها . وكان أول من اختطها عبدالله بن محمد الصايحي . ويقال لها ذو جبلة أيضاً . ويقوت . قال انها مدينة ، وصاحب تاج العروس قال انها قريبة - ولعلها في زمن الزبيدي أي منذ نحو ٢٠٠ سنة - كانت المحطت الى قرية (٢) بفتح أوله وتأتيه وهمز آخره وقصره - أرض باليمن مدینتها مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام - على قول ياقوت - سميت سبأ باسم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وكان اسم سبأ عامراً ولم تسمى سبأ لانه أول من سبى السبي ولما كان سيل العرم تفرق أهل اليمن فقبل ذهبوا إلى يدي سبأ أي طرائق سبأ ، فاليد الطريق ومتى قيل تفرقوا إلى يدي سبأ لا ينبغي الهمز لأنه كثير في كلامهم فاستقلوا الهمزة (٣) الضرية بفتح فكسر وياء مشددة مأخوذة من الضراء وهو ما رآك من شجر . ويقال للأرض المستوية إذا كان فيها شجر ضراء فإن كانت في هبطة فهي غيضة . (٤) النقبل بلغة أهل اليمن العقبة وفي اليمن نقبل بين مخلف جم فروين حقل خمار وعمل فيه سيف الاسلام عباً سهل به طلوعه وفي رأسه قلعة تسمى سارة قاله ياقوت (٥) لم نعرف هل هو حوبر بالمهمل أو حوبر بالمعجمة أو هو مصحف عن حوبر بالياء أو حوبر أو عن غير ذلك وقد وجدنا حوبر اسم نهر بالحاء المعجمة في أرض حاشد (٦) حاشد حي من همدان يذكر مع بكيل قال الهمداني أما بلد همدان فإنه أخذ لما بين الغائط ونهامة من نجد والسرارة في شمالي صنعاء ما بينها وبين صعدة من بلد خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاة وهو منقسم بخط عرضي ما بين صنعاء وصعدة فترقيه لبكيل وغيره لحاشد وفي قسم بكيل بلاد لحاشد وفي قسم حاشد بلاد لبكيل ثم شرح الهمداني أناس كل من حاشد وبكيل ومدن الفريقين وقرأها وأوديتها وأسواقها فن شاء معرفة ذلك فعليه بمطالعة « صفة جزيرة العرب »

هو عتمة (١) معدن ذهب، وفي بلد سماه معدن فضة، وفي واد من بلد حراز (٢) معدن ذهب هو في ذمار القرن معدن نحاس أحمر جيد، وكذلك اثنان من المعادن في رداع (٣)

(١) حصن من حبال وصاب من عمل زبيد ولفظها بضمين

(٢) بالفتح وتخفيف الراء وآخره زاي - مخلاف بالين قرب زبيد سمي باسم بط من حمير وهو حراز بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن تيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن النوث بن أيمن ابن الهيمسع ابن حمير ويقال لقريتهم حرازة وها تعمل الاطباق الحرازية قاله ياقوت في المعجم وذكر الهمداني أيضا الاطباق الحرازية وربما نقله ياقوت عنه

وأما قول الهمداني عن حراز فهو مايلي : مخلاف حراز وهو وزن سبعة أسباع أي سبع بلاد: حراز المستحجرة، وهو وزن وكرارا وإليها تنسب البقر الكرادية، وصنفان، ومشار، ولهاب، ومجيج، وشبام، ويجمع الجميع اسم حراز وهو وزن وها بطان من حمير الكبرى وها ابنا القوث بن سعد بن عوف بن عدي

(٣) ذكر الهمداني رداع في وادي اليمن الشرقي وقال ياقوت: رداع بضم أوله - وأصله التنكس من المرض وقيل وجع الجسد اجمع - هو مخلاف من مخاليف اليمن وهو مخلاف خولان بين نجد وحمير الذي عليه مصانع رعين وبن نجد مذحج الذي عليه ردمان وقرن، قالوه وادي النمل المذكور في القرآن المجذب وخبرني بعض أهل اليمن انه بكسر الراء . ومنها أحمد بن عيسى الخولاني له ارجوزة في الحج تسمى الرداعية قتلت هذه الارجوزة استوقاها الهمداني في آخر كتابه «صفة جزيرة العرب» أولها

أول ما أبدا من مقالي	فالحمد للنعم ذي الجلال
والمن والآلاء والافضال	والملك والجود الرفيع العالي
عذخيلي كم مضت ليال	من شهر ذي القعدة مع شوال
ثم انم بالكور على شمال	عديدة او قطم ذبال
قد دق منه موضع الجبالي	ت نادى القوم بارتحال

قوله «الجذ الرفيع العالي» أي العظيمة قال في تاج العروس الجذ العظيمة وفي التنزيل

(وانه تعالى جد ربنا) قيل جده عظيمته وقيل غناه وقال مجاهد جد ربنا جلال =

= ربنا وقال بعضهم عظمة ربنا وهما قريبان على السواء وفي حديث دعاء الاستفتاح في الصلاة «تبارك اسمك وتعالى جدك» اه قال لي السيد جمال الدين الافغاني . تعالى جدك أي سريرك والجده هو معرب «ككد» وهو السرير بالفارسية ولكن غاب عن علمائنا أصلها ثم منها

فتيان صدق من بني أييكا	فانهم أولى بما يعينكا
واسرع القوم لما يرضيكا	لاني سأصفيك الذي أصفيك
فاسمع الى قولي إذ أوصيكا	أو امرأ أضاف ما يوليكا
من يره يرغب ويزدد فيكا	ثم ادع رباً مالكا مليكا
فانه أجدر ان بكفيكا	وقل صحابي ارتحلوا وشيكا

وهي نحو ٥٥٠ بيتاً مقسومة إلى مقطوعات كل مقطوعة خمسة أبيات يذكر فيها جميع منازل الحج إلى البيت الحرام برجز ساس مئين بغاية الانسجام ويقول عند الوصول الى البيت

بعقبه في الحرم الحرم	ألتي به يا ناق رحلي واسلمي
في منزل كان لرهط الاقدم	ثم عن الحججون لا ناعمني
الى جوايها العظام العظم	ثم امر بي ان شئت او تقدي
منها لردم السوداء المردم	ردم بني مخزومها الخزم
حتى تناخي عند باب الاعظم	وتشر بي رباباً بحوض زمزم

والحمد لله الذي قد انما	سيرنا في ارضه وسلمنا
حتى اتينا بيته المحرما	منا فمظمناه مع من عظمنا
ثم هدانا نسكا وعلمنا	كما هدى قبل ابانا آدمنا
ثم تطوقنا به محرما	وسنة يفعها من اسلمنا
ثم استلمنا ركنه المكركمنا	ثم ركعنا ووردنا زمزمنا

ويقول في الاقاضة

حتى اذا ضوه النهار ادبرنا ، وغابت الشمس استطاروا جهرا

واثنان ذهب وحديد في القانع (١) وكذلك معدن في البيضاء (٢) نحاس
ومما وجد في بعض الكتب المكتوم سرها وتركيبها من معادن الاجساد
الترايبية التي بين يشة وذمار خمسة وعشرون موضعاً مشهورة ، ولا يصلح منها

يدعون ذا العز الذي تحضرا ثم مضى إمامهم وكبرا
افاضة لم يك فيهم منكرا قد لزموا التودة والتوقرا
حتى أتوا جماعاً وجاءوا المشعرا ثم اناخوا ساهمت ضمرا
بها يخافون العذاب الاكبرا حتى إذا ضوء الصباح اسفرا

وانحجاب ليل ودنا النهار سار إمام الناس ثم ساروا
مع كل مرء منهم احجار سبع لطاف صنع صفار
ثم مضوا عليهم وقار لجرة من دونها جمار
ثم رموها ولهم كبار وحلقوا وذبحوا وازدادوا
يوماً به للبدن مستطار من طول ما يشحذها الشفار

واخر مقطوعة منها

فالحمد لله على احسانه وفضله المعروف وامتنانه
سيرنا ذو اللطف في بلدانه في رزقه العفو وفي امانه
حتى اتينا البيت في مكانه ثم قضينا شائنا من شأنه
من طوفه والمسح من اركانه ثم هدانا الله في ضلالتنا
كلا الى المحبوب من اوطانه مع الذي يأمل من غفرانه

« ١ » لم نعر على ذكر القانع او هي مصحفه

« ٢ » ذكر ياقوت في المهجم ستة عشر موضعاً باسم البيضاء لكنه لم يذكر

ولا يضاء في الهن :

الإستة : واحد منها بنجران ، الثاني بشرس (١) في مكان يسمى القروات ،
الثالث بسحر من نواحي هجرة عريمان (٢) الرابع في بلاد بني شداد (٣) يسمونه
كحال ، الخامس بردمان بني النمرى (٤) في مكان يسمى العنقفير ، السادس في
جبل الاحزم (٥) في سارع وهو أفضل هذه لكن قد نزل قدر ثمانين ذراعاً (وفي .
الاصل ثمانون وصاحب هذه الرسالة لا يقيم النحو كثيراً) وحلف عليه من عرضه
وهو رطب لا يحتاج لدواء .

(والثاني) مما يذكر يخرج قاسيه . يحتاج إلى مليئات . ثم خرج واحد في .

١) ذكر الهمداني شرس هذه وضبطها بفتح فكسر وذلك عند كلامه على أسواق .
حاشد قال : فأولها وأقدمها سوق حمل ، وهمل (بفتحيتين) من الحارث وهي سوق جاهلية .
والكلايح المرانيين من الحبر (بفتحيتين) ونارى للفائشين من الجبر . وسوق صافر ،
وسوق الفاقعة ، وسوق الاهنوم وسوق الظهر ، وسوق قطابة « بضم أوله » والعراقة « بفتح
فكسر » لقرس بن قدم « بضم ففتح » عيان سوق قديمة من همدان وادران وحجة .
ونمل وقيلاب « بفتح فسكون » وشرس ، وحملان « بضم فتكون » وينذ الح

٢ « أورد الهمداني ذكر سحر وهجرة

٣ « ذكر الهمداني بني شداد وقال إن لهم أودية كثيرة النخل مثل البجاجة .

ولحية والعلوب والنتكا

٤ « ردمان مشرق صنعاء الذي يقع بينها وبين مأرب وهو مغلاف خولان بن
عمرو . وهم خولان العالية الذين ذكرهم رسول الله ﷺ فقال « اللهم صل على
السكاسك والسكون وعلى الاملوك املوك ردمان وعلى خولان العالية » وقال
الهمداني مغلاف رداق القرينان رداق واثا والمروش وبشران « بضم فسكون » وأذنة
« محركة » ورجبتها وبلد ردمان « بفتح فسكون »

٥ « جبل الاحزم قال الهمداني انه الجنوبي من جبلي لاعتي غربي صنعاء

قرب سوق (كذا) (١) فوق قرية المهجر (٢) من بلاد الاهنوم (٣) في زمن الامام شعوف الدين عليه السلام وضع منه ولده شمس الدين بن الامام وهو جيد يماثل الذي في أحزم بالصلاح.

• وحكي ان في سارع بادية تسمى السواد فيها مكان يسمى بني سعيد فيها مكان يسمى عدة الزعلا مقابل لمكان يسمى القتال فيها جنس يفرح القلب

ومما حكي ان جبل شاييه جبل الصلب (٤) في شرقيه لون شمسي والمليح الذي يناله الشمس. والثاني غربي الجبل مشهور كثير بمجدوه (?) يظهر في فضاء مليحة طيبة. وأما المواضع التي تكثر شهرتها فواحد بجبل الشرق من بلاد أنس بمكان يسمى الركن، والاشهر في اسمه ابو صلاح بن علي، وواحد بمكان يسمى البونين (٥) مستور، وواحد في اكام بني الاقري في مكان يسمى السهر تحت القدرة لونه عجيب يفرح القلب، وواحد في ملتقى وادي مزهر ووادي صيحان (٦)، يقرب الجود يعرفوه البداوة وبعض المحادين» انتهى

- «١» هنا كلمة لم نقدر ان تبينها فوضعنا بحماها لفظة كذا
- ٢ الذي عثرا عليه هو أن المهجر في بلد حكم بتهامة فهل هي هذه أو قرية أخرى بهذا الاسم؟ لا نعلم فقد ذكر الهمداني أن معنى هجر القرية بلغة حمير والعرب العاربة فنها هجر البحرين وهجر نجران وهجر جازان وهجر حصبة من مخلاف مأذن .
- ٣ ورد ذكر الاهنوم في اسواق حاشد وقال الهمداني في محل آخر جبل لاهنوم من همدان ثم من حاشد بطن من خولان بن عمرو بن الحاف وهو قبالة «نخلى» من شماليه وعلى وصفه من جبال السراة وهو أحصن وأتلع وأوسع
- ٤ نظمه الصلب بضم ففتح مشدد أي حجر المسن
- ٥ قال ياقوت بون مدينة باليمن وزعموا انها ذات البر المعطلة والقصر المشيد المذكورين في القرآن العظيم قال وحدثنني أبو الريع سليمان المكي والمفضل بن أبي الحجاج انها بونان وهما كورتان ذاتا قرى البون الاعلى والبون الاسفل. ولا يقوله أهل اليمن الا بالفتح وهي مذكورة هنا بالثنية
- ٦ (وادي صيحان بأرض نجران

عمران جزيرة العرب

﴿وما يجب على الحكومتين السعودية والامامية من استئناف﴾

هذا ما أثرنا ذكره على وجه الاختصار عن معادن جزيرة العرب التي يجب على حكومة الحجاز ونجد من جهة وحكومة اليمن من جهة أخرى ان تبادرا فيها إلى مباحث فنية دقيقة عميقة بدون أن يثبطهما عن ذلك ملاسفات سياسية كالتي تقدم ذكرها . فإن هذه الملاحظات غير واردة ، وان استثناف عمران جزيرة العرب متوقف على أمرين

(أحدهما) ترقية أحوال الزراعة باستعمال الآلات الرافعة الحديثة واستنباط المياه وبناء السدود ، وحفر الآبار الارتوازية وما أشبه ذلك مما يزيد كمية مياه الري (والثاني) تعدين المعادن التي في الجزيرة واستخراج افلاذ هذه الارض التي طالما كانت تغني الاهالي في الاعصر اقدمية ، وما صلح به أول الامر يصلح به آخره

فاذا دأبت الحكومات العربية المستقلة في هذه السبيل من الآن وسارت تدريجاً وجدت من العرب الآخرين الذين بالشام ومصر والعراق والمغرب وغيرها من يأخذ بأيديها . وذلك لان جميع العرب في الدنيا يهتمون بتقوية الجزيرة العربية وصيانتها واصلاح أمورها كما يهتمون ببلدانهم ومساقط رؤسهم ، إن لم نقل زيادة ، لانها هي دار العروبة ، وعقر الأمة الناطقة بالضاد ، والمركز الذي تفرقوا منه إلى سائر البلدان ، والمالجا الذي يلجأون اليه اذا نبا بهم الدهر ، وأدبل من المد بالجزر . وحسبك أنها هي أيضاً دار الاسلام ومبعث الدين ، ومهوى أفئدة المؤمنين ، وان فيها المثابة التي تحفق عليها قلوب ثلاثمائة وخمسين مليون نسمة

من العالمين وهي البيت الحرام - حماه الله - مركز الحجاج ومقصد المسلمين من كل فج .
فلا يوجد مسلم على وجه البسيطة إلا وقلبه مشغوف بهذا البيت وجواره ، مشغول
بنصرة حماه وعمارته .

ولقد صادفت كثيرين من مسلمي الامة غير العربية - اذكر الان منهم
كثيرين من اعيان التتر وفضلائهم لقيتهم في موسكو بعد صلاة الجمعة - فرأيت من
اهتمامهم بامر الجزيرة العربية والحجاز الشريف واحفائهم في الاسئلة عنه ،
وتواجدهم الشديد ، مالا يمكن ان يكون أكثر منه عند العرب أنفسهم

دمضى سبيرة على قابلية الجزيرة للمعمار

وما يذهب اليه بعض الناس أن جزيرة العرب لا يتهيأ لها أن تكون ذات مستقبل
باهر ، وان تكون ميدن عمل للعرب ، وذلك لحرارة اقليمها التي تزيد على درجة
الاحتمال ، وتمنع العرب الذين في الديار الشمالية من الدأب في اطراف الجزيرة
ولا رأي أعرق من هذا الرأي في الوهم

لو كانت الحرارة تمنع العمل لمنعت الاوربيين الذين نجدهم في الهند والجاوى
ومادغشكر وزنجبار والاوغاندة وموزامبيق ، وبلاد الرأس ، والكونغو ، وغينية
والسنغال وامريكا الجنوبية وغيرها مما لا يحصى ، وقد صاروا فيها كالجراد
المنتشر ، وعمرها فيها أوطانا ، وأدركوا أوطاراً ، وهم أقل منا تحملاً للحرارة ،
وأف منا للبلاد الباردة ، ولكنهم قاتلوا حرارة القيط بالوسائل الفنية ، وباسالة
المياه ، وغرس الاشجار ، وبث الحضرة حول المنازل ، بحيث تجدهم بواسطة الفن
في نعيم مقيم في وسط ذلك السعير

على أن الحرارة الشديدة انما هي في أشهر معدودات من الصيف ، وفي
سواحل الجزيرة وبتهايمها التي إن ارتفع الانسان عنها مسافة بضع ساعات في

الجبال رق الهواء وطاب الاقليم ومن هناك كلما ارتفع صار إلى الاهوية اللطيفة والاماكن التي لايفضلها في الصيف مكان من المعمور كله

جبال جزيرة العرب أطيب هواء من لبنان وسويسرة

إن في جزيرة العرب سلسلة جبال عالية لايتجد أحسن منها هواء ولا أطيب اقلها لافي جبال لبنان ولا في جبال سويسرة ولا في غيرها

ولاجل أن تعلم ارتفاع هذه الجبال أريد ان أذكر لك علو بعض المدن والقرى العربية عن سطح البحر مما أمكنني الاطلاع عليه في كتب من تأليف ضباط من أركان حرب الجيش التركي أطالوا الاقامة باليمن وكتبوا عنه

فالطائف تعلو نحو ١٦٠٠ متر عن سطح البحر على حين عين صوفر أبدع مصيف في لبنان لاتعلو أكثر من ١٠٥٠ ولا يوجد في جبل لبنان مكان مسكون يعلو عن سطح البحر أكثر من ١٥٠٠ متر

وان علو « ابها » — مركز حكومة عسير — عن سطح البحر ٢٢٧٥ مترا وأعلا منها «سوغا» فهي تعلو ٢٣٦٠ مترا . وهناك بلدة غامد وعلوها ٢١١٠ أمتار . ومحائل وعلوها ١٦١٠ أمتار .

ثم ان صنعاء اليمن تعلو عن سطح البحر ٢٣٤٢ متراً . وجبل 'نقم' — الذي تقدم ذكره — يعلو ٢٩٤٢ متراً، وكوكبان ٣٠٠١ متر، وتعز ١٣٤٧ متراً وعمران ٢٣٠٢ وصعدة ٢٢١٦ والروضة ٢٣٠٦ وتلا ٢٨٦١ وذمر — تقدم ذكرها في بحث المعادن — ٢٦٩٨ وشبام — تقدم ذكرها أيضا — ٢٦٣٥ وذمار ٢٤٣١ وبوعان ٢٩٣٦ وسوق الخميس ٢٣٧٢ ومناخه ٢٣٢١

فارتفاعات مثل هذه مهما يكن من وجودها في منطقة جنوبية لا يمكن الا أن تكون المثل الاعلا في رق الهواء وطيب المناخ، والملاءمة للصحة . وهذه الجبال

هي عندي أوتاد البيت العربي لافي منعتها الطبيعية ومواقها الحربية فحسب، بل في بيئتها الصحية ، ونقاوتها الجوية ، إذ ذلك من أعظم العوامل التي تعتمد عليها الأسرة العربية في صيانة نفسها

وهذه السلسلة العجيبة العالمية ممتدة من بلاد الشام، ومن أهم أقسامها وأطيبها نجمة جبال الشراة التي كانت معمورة جداً في صدر الاسلام، والتي لها مستقبل كبير للعرب ومستأنف باهر لوخلصت من أيدي الانكليز

ولقد أقيمت بقصبة معان شيع شهر في أثناء الحرب العامة سنة ١٩١٥ إذ كنت ذاهباً ومعى ١٢٠ مجاهداً من جماعتي إلى حرب الترة منقماً إلى الجيش العثماني الحجازي الذي كان يقوده وهيب باشا، وسرنا من معان هبوطاً مستمراً إلى قلعة النخل في صحراء التيه . ولقد قطعت في تلك الرحلة جانباً من جبال الشراة وعرفت أى جبال هي وأى نجمة طيبة هنالك

ومن حول وادى القرى في الحجاز جبال وأودية وعيون تقدم الكلام على شيء منها ، وفي جهات المدينة المنورة جبل رضوى الشهير ، قل أبو زيد وقرب ينبع جبل رضوى ، وهو جبل منيف ذو شعاب وأودية ، ورأيت من ينبع أخضر ، وأخبرني من طاف في شعابه ان فيه مياهاً كثيرة وأشجاراً ، ومن رضوى يقطع حجر المسن ويحمل إلى الدنيا كلها ، قال النبي ﷺ «رضوى رضي الله عنه ، وقدره الله [قدس بضم فسكون جبل بتلك الناحية] وأحد يحبنا ونحبه» (١)

(١) اما جبل احد فحديثه في الصحيحين وأما رضوى وقدره فلا يصح فيها ما ذكر وقالوا ان المراد بحب احد لنبي ﷺ حب اهله وهم الانصار رضي الله عنهم وجوز بعضهم حمله على الحقيقة ليعني غيبي واما قوله ﷺ « ونحبه » فجواز الوجهين فيه اظهر فان الناس يبرزن بلادهم واوطانهم ويفضلون بعض جبالها ومواقعها الجيلة في الحب على بعض واحب ما يحبون منها اهلها ولا سيما الآل واصحاب الاحباب قال الشاعر

امرني الديار ديار ابلي اقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

قلت وحدثنا من يعرفون رضوى أنه مصيف كأحسن ما يوجد من مصايف الشام ماء وهواء ، وهو على مقربة من المدينة ومن ينبع وعلى ليلتين من البحر فلا يلزم لرضوى إلا تعبيد طريق تسير عليها السيارات ليعمر وتسكنه الناس وتقصده في أيام القيظ

وقال الهمداني : الجبال المشهورة عند العرب المذكورة في أشعارها : أجأ وسلمى جبلاطي ، وابان (بفتح أوله) وتعار (بفتح أوله) وابن (بضم فسكون) وقدس ورضوى وعروان ويسوم وحراء وثبير والعارض وقنان « بفتح أوله » وافرغ (على وزن افعل) والنير (بكسر النون) وعسيب وبندبل والمجير ولبنان واللكام ومن أزه الجبال في الجزيرة : أجأ وسلمى جبلاطي . قيل إن أجأ اسم رجل وسلمى اسم امرأة ، وقيل أجأ علم مرتجل وقيل بل منقول معناه الفرار ، يقال أجأ الرجل إذا فر

قل الزمخشري : أجأ وسلمى جبلان عن يسار السمراء وقد رأيتهما شاهقان ونقل ياقوت عن أبي عبيد السكوني : أجأ أحد جبلي طيء وهو غربي فيد . وبينهما مسير ليلتين وفيه قرى كثيرة . قال ومنازل طيء في الجبلين عشر ليل من دون فيد إلى أقصى أجأ إلى القريّات من ناحية الشام . وبين المدينة والجبلين على غير الجادة ثلاث مراحل . قال امرؤ القيس :

أبت أجأ أن تسلم العام جارها فمن شاء فلينهض لها من مقاتل
أى أبت أهل أجأ ، حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، مثل قالت
انكثرة لفرنسة كذا ، واحتجت ألمانية على كذا ، وعقدت أمريكا معاهدة
كذا الخ . وقال عارق الطائي :

ومن أجأ حولي رعان كأنها قنابل خيل من كميت ومن ورد
وقال العيزار بن الاخفش الطائي :

ألا حي رسم الدار أصبح بالياً وحي وإن شاب القنديل الغوانيا
تحمّلن من سلمى فوجهن بالضحى إلى أجأ يقطنن بيذا مهاوياً
وقال زيد بن مهلهل الطائي :

جلبننا الخيل من أجأ وسلمى نخب نزائناً خبب الركاب
جلبننا كل طرف أعوجي وسلمة كخافية الغراب

وكان يحدثني عن هذين الجبلين وما فيهما من الريف والخصب والودودة
والعيون الاخ رشيد باشا النجدي الذي كان معتمداً لابن رشيد في الاستانة العلمية
أيام السلطنة العثمانية . وسمعت أخبارهما من نجديين آخرين ، وطالما تمنيت لو
أمكنني الرحلة إلى نجد والتزّه فيهما

والسلسلة الجبلية من الحجاز الى اليمن متصلة ، وعن يمين الذهاب من الشام
إلى مكة التهاّم الواصلة الى سيف البحر الاحمر ، وعن اليسار بلاد نجد وهي من
أطيب البلدان نجمة وأنظفها هواء يضرب امثل بمجودة هواها فيقال بلاد
نجدية الهواء (١)

واذا سار الراكب من الطائف إلى صنعاء اليمن لم يصل اليها الا في مسيرة
شهر كما في الجبال العالية ، والاهوية اللطيفة ، والمناظر البديعة ، والمناهل العذبة ،

(١) للشعراء من المدح لهواء نجد والحنين الى صبا نجد ما يكاد يفوق نسبيهم
وتشبيهم بغواني الحسان ، ولعل أمير البيان لو تذكر هذا هنا لروي لنا من
محفوظه الواسع من الشعر الرائع ، هو اشد تشويقاً لجزيرة العرب من سرد اسماء
المواقع ، فان ذكر تلك الصبا ، يكاد يكون ارق من ذكرى ايام الصبا ، وحيي في
هذه الحواشي التي اكتبها باذن الامير لتكون ذكرى لا خائناً الذي لا يلزبه نظير ،
قول الشاعر الشهير

خذنا من صبا نجد أماناً لقلبه فقد كاد رياها يطير بلبه
ولإياك ذاك النسيم فانه اذا هب كان الوجد أيسر خطبه

ما شاهدنا من الاماكن النزهة بحوار الطائف

وأما ما تيسر لي مشاهدته من الاماكن النزهة بجوار الطائف فهو وادي محرم
 أى قرن المنازل الذى ينتهي إلى وادي السيل ، ومنه يحرم الحجاج الذين هم
 آتون من الشرق ، ولا يبعد وادي محرم عن الطائف أكثر من ساعة ونصف
 وهو على طريق الكرا ، وهو وادٍ يحف في الصيف إلا أن البساتين منتظمة بجانبه
 على مسافة ثلاث أو أربع ساعات ، تشرب بالسواني وفيها من جميع أصناف الفواكه
 وألذها ، ولم أصادف عنباً أشهى ولا أكبر حباً من عنب وادي محرم . ومن
 هذا الوادى يصعد الانسان إلى الهدة مرتقياً العقبة المسماة « الكرا الصغير »
 وخمنت علوها بثلاثمائة متر ومرتقاها صعب

وقد كان الواجب على الحكومة وعلى أهالي القرى الكثيرة المجاورة ولاسيما
 وادي محرم أن يصلحوا هذا المرتقى الذي يترجل فيه كل الركبان من وسط العقبة .
 وإذا وصل الانسان إلى سفح الجبل وجد يقاعاً منبسطة ينشرح له الصدر ،
 وشاهد جنانا ناضرة تشرب بالسواني أيضاً يقال لها بستان المغربي وبستان البني
 وغيرهما . ولقد بتنا ليلتين بوادي محرم ، وليلة واحدة في بستان المغربي ضيوفاً
 على صاحب البستان وهو مغربي تونسي الاصل أبوه جاء الى هذا المكان وتمكن
 به . وهناك جبل عال جداً ربما يعلو ٢٥٠ متراً عن البساتين يقال له جبل الهندي
 وهو نائي من الارض صعداً أشبه بالثدنة وكان في إحدى ذراه حصن بقيت
 فيه مدافع وجنود إلى آخر أيام الملك حسين ، وقد طلعتنا هذا الجبل إلى قنته
 فظهر لنا جانب كبير من الحجاز وبدت لنا خضرة ونضرة وأودية لا يأخذها
 الاحصاء ، وكان منظراً يبهر العقول

وبإزاء هذا الجبل جبل آخر أقل منه ارتفاعاً اسمه « جبل الكمل » بمحاذاته
 قرية بل قرى وبساتين تسقيها النواضح . ومن الكمل الى قرية الهدة مسيرة

خصف ساعة لا غير ، والهدة قرية من أشهر قرى الحجاز تعلو ١٧٦٠ متراً عن سطح البحر ، وفيها جنان ومنازه وبعض مصايف لاهل مكة ، ولها منظر على وادي فعيان لا مثيل له في بلاد العرب لان الناظر يشرف منها على شفير الوادي المسمى « السكرا الكبير » ذي العقبة الشهيرة التي تأخذ ثلاث ساعات على الصاعد وهي من الوقوف في مثل الحائط ، واذا أشرف الرأي على حافة هذا الشفير لم يكن أمامه العمق الهائل فقط ، بل العمق الهائل والمعرض المدهش ، فلننظر هناك حد ليس له حد

وتكتب « الهدة » بتشديد الدال لكن غلب عليها التخفيف ، وقد ذكرها ياقوت في المعجم وقال انها مكان بين مكة والطائف فيه القروء (١) قلت والقروء توجد في جبل الكمل الذي فوق الهدة وتقدم ذكره وتكثر في بعض جبال الحجاز ولكنها في جبال اليمن أكثر جداً ومن كثرة ما توصف اليمن بالقردة صار الذين يريدون أن يتنادروا على أهل اليمن يقولون ان أباهم قرد .

روى ياقوت ان زياد بن عبيد الله الحارثي خال الخليفة أبي العباس السفاح اجتمع بابن هبيرة الغزاري - وكان الاول يمانيا وكان الثاني قيسيا - فقال ابن

(١) اقتصر الأمير هنا على هذا خلافاً لمعادته في الاستقصاء وقد ذكر ياقوت في حرف الهاء ثلاثة مواضع (١) الهدى المقصود قال (الهدى) بالفتح منقول عن الفعل الماضي من هدى يهدي اذا ارشد - موضع في نواحي الطائف (٢) (الهدة) بالفتح ثم التشديد وهو الحسفة في الارض ، والهد الهدم - وهو موضع بين مكة والطائف والنسبة اليه هدوي ، وهو موضع القروء وقد خفف بعضهم داله (٣) الهدة بتشفيف الدال من الهدى او الهدى بزيادة هاء - بأعلى مر الظهران بمدة أهل مكة ، والمدرطين ايض يحمل منها الى مكة تأكله النساء ويدق ويضاف اليه الاذخر يسلمون به ايديهم اه وذكر هذه في التاج وزاد ان بعضهم يزيد فيها ألف فيقول الهدية . اقول ولم أسمع من نطق أهل مكة الا (الهدى) بالفتح والقصر

هيرة لزياد : ممن الرجل ؟ فقال زياد : من اليمين . فقال ابن هيرة : فاخبرني عنها . فقال زياد : اما جبالها فكروم وورس ، واما سهولها فبر وشعير وذرة . فتغير وجه ابن هيرة وقال : او ليس ابو اليمين القرد ؟ فقال زياد : انما يكنى القرد بولده وهو ابو قيس فيوجب أن يكون ابا قيس عيلان ، فاصفر لون ابن هيرة من هذا الجواب

فمن هنا يظهر ان مذهب داروين كان ملحوظا في الغابرين ، وكان خاطر ابوة القرد لابن آدم وارداً ، الا ان ما كان يقال في الماضي مزاحا صار اليوم جداً بحتاً ، وحقيقة علمية . اقول حقيقة علمية بحسب رأي بعضهم ، والا فليس بصحيح ان الجمهور كلهم في اوربة تلقوا هذا الرأي بالتسليم ، بل العلماء في اوربة لا يزالون فيه مختلفين . وقد كثر في السنين الاخيرة العلماء القائلون بنقضه ، والا كثيرون على عدم الجزم لعدم كفاية دلائله ، ولوفرة نواقضه ونواقصه ، ومن العلماء من يقف موقفاً وسطاً في النظرية الداروينية فيحكم بصحة بعضها ويرد البعض الآخر مما ليس هنا موضعه

ناحية الشفا من جبال الطائف

ومن أنزه الجبال التي عهدتها في حياتي وأبدعها مصيفاً وأطيبها نجمة وأنقاها اقباماً الناحية التي يقال لها « الشفا » (بفتح أوله) وهي جبال المسكون منها يعلو عن الطائف نحو ألف متر وربما أكثر . وسكان هذه الناحية السفائية من ثقيف ولا تبعد عن الطائف أكثر من أربع أو خمس ساعات بالسير المعتدل

قصداً اليها من الوهط والوهيط في رفقة من اخواننا الدكتور محمود بك حمدي . رئيس الصحة الحجازية ، وفؤاد بك حمزة مستشار الخارجية ، وفوزي بك القاوقجي قائد القوة النظامية الحجازية ، والسيد الطيب الهزاز من رجال المعية المالوكية ، ورشدي بك ملحس محرر جريدة « أم القرى » فبتنا ليلة في الوهط

وليلة في الوهيط، ثم أصبحنا قاصدين شقرا صاعدين اليها في عقاب، فباغناها بعد مسير ساعتين من الوهيط، ومررنا في طريقنا بخربة ذات جبانة متسعة يستدل منها على أن القرية كانت ذات شان. وفي تلك الاودية سدر كثير وطالح وأشجار غيرها، وفي الجبال عرعر كثير.

وأما شقرا ففي واد لطيف عن جانبيه البساتين تسقيها النواعير أو السواني وهي حارتان : شقرا العليا وشقرا السفلى . وقد كان نزولنا عند مختار شقرا السفلى ، وشعرنا من النشاط ورقة الهواء في شقرا ما لم نهده لا في الطائف ولا في مكان آخر . ولغة أهل تلك الديار فصيحة ، سمعتم يقولون : خصر الماء ، أي برد ، فخطر ببالي قول شاعر قريش في الحجاز عمر بن أبي ربيعة :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشي فيخصر

ومن شقرا صعدنا عقاباً أوعر وأعلى من التي توقلنا فيها بين الوهيط وشقرا ثم انحدرنا من رأس العقبة الى واد هو مبدأ وادي لية الشهير . وكنا كما تقدمنا في السير رأينا الحراج تزدد ولا سيما العرعر والعفص . ومن ذلك الوادي عدنا الى التصعيد فوصلنا الى قرية صغيرة اسمها (مسيمير) فبتنا فيها وشممنا هواءاً عطرأً ، وشربنا ماءً خالصاً^(١) وشاهدنا منظرأً ناضراً

قرية الفرع وموقعها من أفضل مصايف الدنيا

ومن مسيمير تسلقنا في عقبة أوعر من كل ما مضى أخذت أكثر من ساعة ونصف أفضنا في متنها الى بفاع أفبح عليه قرية كبيرة متفرقة الحارات اسمها (الفرع) هي من أعلى المعمور في جبال الحجاز ، ومعنى الفرع في اللغة أعلى الشيء .

(١) خصر الماء وغيره فهو خصر (كتمب فهو تعب) أي برد

ومن محاسن هذه القرية انها مع علوها - ولا أظنه أقل من ٢٥٠٠ متر
تحت سطح البحر - واقعة في بسيط من الارض تحيط به الهضاب الخضراء المغطاة
بالحراج من الارز والعرعر ، وهذا البسيط المطمئن في الوسط منه ما هو مزارع
للحبوب ومنه ما هو مباقل للخضر ومنه ما هو جنان للفواكه ، وكل ما ينبت هناك
يأتي بغاية الزكاء والفكاهة ، والجنان تسقى بالسواني والماء غزير

ولما صرت في الفرع تمنيت أن يكون لي هناك مصيف ، ورجحته على أي
مصيف آخر حتى على عين صوفر التي هي أنزه مصايف جبل لبنان مع كثرتها
والتي قضيت مدة شبابي أقيظ بها ، ولي فيها الاراضي الواسعة والعقارات ، نعم لم
أجد أعلى ولا أهنأ ولا أعزل من الفرع

وإلى الغرب من الفرع على مسافة ٢٠ دقيقة فقط شفير عال يشرف منه
الانسان على واد عميق قد حذرت انحطاطه عن الفرع بنحو ألف متر، وقد ذكر
لي أهل الفرع انهم في فصل الشتاء ينحدرون من الفرع الى هذا الوادي بمواشيهم
ويشتون فيه ولا يبقى في القرية سوى بعض الحراس

وأمام هذا الوادي الى جهة الغرب - أي الى البحر - جبل عال أيضاً لكنه
ليس بعلو جبل الفرع ، ووراء هذا الجبل أودية أخرى ثم جبال أقل ارتفاعاً
وهكذا الى أن تصل الى البحر بين جدة والليث ، وقد سألتهم : كم مرحلة من
الفرع الى جدة ؟ فقالوا ! انهم يصلون الى جدة في ٨ أيام بسير البعير

والى الجنوب الغربي من الفرع جبل متصل بالفرع له قمة شاهقة تعلو نحواً من
ثلاثمائة متر عن أرض القرية يشرف منها الانسان على البحر الاحمر ، وقد حدثني
صديقي الشيخ عبد القادر الشيباني انه رأى بناظوره من تلك القمة المراكب
الشراعية ماخرة في بحر الليث ، وشعفات الجبال هناك كلها شاهقة في السماء أينما
وقف فيها الراي رأى منظراً عجبا

وإلى الشرق الشمالي من الفرع قرية يقال لها «الشرف» (محركة) هي على مساواة الفرع . ولم يقدر لنا الذهاب إلى هذه القرية وما جاورها من القرى التي هي في جبال هذيل . وجبال هذيل ممتدة من هناك إلى تهامة أي إلى ساحل البحر قال الهمداني في (صفة جزيرة العرب)

« منازل هذيل عُرنة (بوزن همزة لمزة) وعرفة وبطن نعمان ^(١) ونخلة ^(٢) ورجيل وكبك ^(٣) (بفتح فسكون مرتين) والبوابة ^(٤) (بفتح فسكون) وأوطاس ^(٥) »

« ١ » عرنة واد بجذاء عرفات وعرفة وبطن نعمان تقدم ذكرهما من الاصل
« ٢ » نخلة واديان لهذيل الشامية واليمانية على ليلتين من مكة يجتمعان يصن حمر وسبوحة والوادي الشامي يصب من الغمير واليماني من قرن المنازل من الاصل
« ٣ » هما كبكبان احدهما من ناحية الصفراء وهو نقب يطالعك على بدر

والاخر يطالعك على العرج وهو نقب لهذيل . قاله ياقوت اه من الاصل

« ٤ » قال ياقوت : البوابة صحراء بارض تهامة اذا خرجت من اعلى وادي النخلة اليمانية وهي من بلاد بني سعد بن بكر من هوازن . قال رجل من مزينة خليلي بالبوابة عوجا فلا ارى بها منزلا الا جديب المقيد
نذق براد نجد بعد ما لعبت بنا تهامة في حمامها المتوقد

فكلامه يختلف عن كلام الهمداني الذي يجمعا من بلاد هذيل . ولعل منها ما هو لهوازن ومنها ما هو لهذيل

« ٥ » اما اوطاس فيقول ياقوت انها في ديار هوازن وبها كانت غزوة حنين وبها قال النبي ﷺ «حى الوطيس» فارسلها مثلاً قال ابن شبيب النور من ذات عرق الى اوطاس واطاس على نفس الطريق ونجد من حد اوطاس الى القريتين ولما نزل المشركون باوطاس قال دريد بن الصمة - وكان مع هوازن شيخاً كبيراً - بأى واد كنتم ؟ قالوا باوطاس ، قال نعم بحال الخيل ، لاحزن ضررس ، ولا سهل دهس ، وقال لاحد بن فارس في اماله

(بفتح فسكون) وعروان ^(١) (بفتح فسكون)

(قلت) ان جبل الفرع وجبل الشرف وجميع الشفاف والشناخيب التي هناك هي داخلة تحت اسم عروان . واقد سألت الاهالي عن درجة البرد في الشتاء والربيع في تلك الجبال الشاخنة فقالوا: ان الماء يجمد فيها دائماً ، ولكنه لا ينزل.

= يادار اقوت باوطاس وغيرها من بعد مأهولها الامطار والمور
كم ذالاهلك من دهر ومن حبيج واين حل الدى والكنس الحور
ردي الجواب على حران مكنث سهاده مطلق والتوم مأور
فلم تبين لنا الاطلاع من خبر وقد تحلى العمايات الاخابر

«١» واما عروان فقد جاء في المعجم انه جبل بمكة وهو الجبل الذي في ذروته الطائف وتسكنه قبائل هذيل وليس بالحجاز . وضع اعلى من هذا الجبل ولذلك اعتدل هواء الطائف وقيل ان الماء يجمد فيه وليس في الحجاز موضع يجمد فيه الماء سوى عروان قال ابو صخر الهذلي

فألحقن محبوبا كان نشاصه مناكب من عروان يبيض الاهاضب
المحبوك الممتلىء من السحاب ونشاصه سحابه

(قلت) مراده بقوله في ذروته الطائف : بلاد الطائف كلها لأن جميع هذه الجبال يطلق عليها اسم الطائف . واما الماء فيجمد في اكثر هذه الجبال واحياناً في نفس قسبة الطائف . واما ما يرى من الاختلاف بين قول الهمداني وياقوت — والهمداني عاش قبل ياقوت بثلاثمائة سنة — بقول هذا ان ديار كذا لهذيل وقول ذلك انها لهوازن، فعلم السبب فيه تغير الايام، والهمداني نفسه يقول بعد ان ذكر منازل هذيل ان بني سعد اخرجوهم منها في وقته ذاك بمؤونة عجب بن شاخ سلطان مكة . ثم يقول الهمداني ان عروان منع الحجازواكثرهاصيداً وعسلاهم من الاصل

بها الثلج المعروف ببلادنا الشامية (١) وذكروا انه ينزل عندهم صقيع أبيض يجدونه
حباحا قد غطى الارض

لغة ثقيف وهذيل في هذا العهد

وأما عربية الاهالي ثقيف وهذيل فتنقية ، وكيف لا وثقيف مضرب المثل
بفصاحتهم يقال : شاعر ثقيفي ، ويقال مثل آخر : أكثر من شعراء هذيل . وكان عمر
يقول : لا يملي مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف ، وكان عثمان يقول عند جمع القرآن :
اجعلوا المملي من هذيل والكتاب من ثقيف

ومررت بسانية في الفرع يدبرها شاب لا يتجاوز العشرين فأخذت أحادثه
وأسأله عن الفرع فقال لي : سقى الله الفرع فيها من فضول الله مالا يحصى . أعجبنى
جداً كلامه ، وقوله «سقى الله الفرع» هذه العبارة الشعرية ثم قوله : فضول الله . ولو
كان من أهل بلادنا الشامية لقال : افضال الله . فجمع فضلا على افضال وهو خطأ
وصوابه فضول كما قال الشاب الفرعي الثقيفي . وحسبك أن أدباءنا وقعوا في هذا
الخطأ فضلا عن عوامنا ، وانتقد احمد بن فارس الشدياق على ناصيف اليازجي
... وكلاهما من مفاخر سورية -- قوله

مضى يجمع الافضال وهي عبيده

ولكن عند ثقيف وهذيل لغة لم أقرأ عنها في كتاب ولا سمعت بها في مجلس
وهي أن يتلفظوا بالضاد والظاء كاللام المفخمة فيقولون مثلاً : الليف ، في الضيف
وصلاة اللهر ، في صلاة الظهر ، وقرية الليق في قرية الضبق ، وهلم جرأ
وقد لحظت أنا ذلك ولحظه جميع الرفق وقضينا من هذه اللغة العجب ، ولم

(١) السبب في ذلك ان بلاد الشام يكثر فيها بخار الماء المتصاعد من البحر
والانهار وجبال الطائف بعيدة عن البحر وليس فيها انهار كأنهار انشام

نسمع هذه اللغة في بلدة الطائف ، ولا في وادي محرم ، ولا في الهدية ، ولا في وادي لية ، وإنما سمعناها من الوهيط فصاعداً أي في الشفا عند هذيل ، وهذا الحي من ثقيف

ولما كنت في الصيف الغائم في الاندلس سمعتهم يقولون في كل بلدة «الرابال» يعنون به ضاحية البلدة فأردت ان أعرف مأخذها فقرأت في كتبهم اللغوية انها لفظة عربية محرفة عن «الربض» ففكرت حينئذ في قلب الضاد لاما عند هذيل ومن جاورهم من ثقيف ، وقلت من يدري؟ فلعل أول من تلفظ «بالربض» هنالك تلفظ بها باللام (١) فقد كان في غزاة الاندلس كثير من هذيل وثقيف وبقنا ليلة واحدة في الفرع ، ولكن لم نقدر ان ننام إلا بعد ان أشعلوا النار في الموقد وأكبروها وبعد أن التحفنا أسماك الاغطية

وكنّا في صلاتي المغرب والعشاء نتوضأ بالماء الساخن ، وجلسنا بعد الظهر

(١) مخرج الضاد العربية الفصحى قريب من اللام المفخمة فهو بينها وبين مخرج الظاء فلهذا تشبه الضاد تارة بالظاء في نطق أكثر العرب الى عهدنا هذا وتارة باللام المفخمة في نطق هؤلاء الهذليين والثقفين، ومثل هذا الاشتباه يكثر في النطق ولا سيما نطق الذي يعجل بالكلام فيلتقاء بهض السامعين محرقاً فيصير التحريف اصلاً متبعاً

وذكر علماء اللغة انه سمع ابدال اللام من الضاد فقالوا الضجيع أي اضطجع كهكسه في قولهم رجل جضد أي جلد . وبعد كتابة ما تقدم راجعت مادة ضجع في التاج فاذا هو يقول قال المازني ان بهض العرب يكره الجمع بين حرفين مطبقين فيقول «الطبيع» ويبدل مكان الضاد اقرب الحروف اليها وهي اللام زاد في اللسان وهو شاذ وقال الازهري وربما ابدلوا اللام ضاداً كما ابدلوا الضاد لاما قال بعضهم الطراد واضطراد لطراد الخيل اهـ. واورد شاهد الكلمة الطجمع .

على سطح بيت فلما كان عند أذان العصر شعرنا بالبرد ودخلنا إلى الداخل وكان مبيتنا في الفرع ليلة ٢٢ أغسطس أي في إبان الفيض ، فاذا كان هذا في الصيف فما ظنك بالربيع والشتاء والخريف ؟

ثم انحدرنا من الفرع إلى واد لطيف ملآن بالشجر اسمه « الضيق » (بفتح أوله) أو على رأيهم « الليق » بتعظيم اللام ، وتماولنا الغداء في قرية بهذا الوادي ثم انتهينا إلى الوادي الذي ذكرنا انه مبدأ لمياه وادي لية وصعدنا منه عقبة أفضنا منها إلى أراض منبسطة جيدة للزرع وفيها السواني والبساتين والقرى ، وأبينة جميع القرى هناك وفي جميع جبال الحجاز كلها بالحجر وبغاية المتانة ، ومنها ما يحاله الانسان أبراجا وحصونا ، وفي كل قرية أو دسكرة برج للحصار مستدير الشكل عال متين البناء معمم الرأس بمدماك من الحجارة البيض

وكانوا في أثناء غزوات بعضهم لبعض والوقائع التي تحصل بينهم اذا هاجمت القرية قوة تفوق قوة أهائها الجأوا إلى هذا البرج واعتصموا به ، وجعلوا يرمون بالبندق من أعلاه

أما اليوم فقد مضى كل هذا وأينما سرت يقولون لك ذلك القول الذي روينا من قبل وهو : ان الامن في زمن ابن سعود خيم تخيما تاما على جميع البلاد ، وان الدماء والاشارات كلها انقطعت ، وصار الجميع يسبرون في كل مكان بدون سلاح . وقيل لنا ان لاودية التي سلكناها ، والفروع التي فرعناها ، لم يكن أحدي الماضي ليسلكها إلا برفقة شائكة السلاح ، وان الحكومة في أيام الاتراك لم تصل ولا مرة إلى الفرع والشفا ، ولا قدر أحد من الترك ان يطأ تلك الارض .

ومن هنك سرنا إلى قرية يقال لها « الأمت » (بفتح فسكون) هي أدنى قرى الشفا إلى مدينة الطائف لا تبعد عنها أكثر من ثلاث ساعات وقد كان مبيتنا بتلك القرية وهي قرية في واد تشرف عليه جروف جبال كثيرة الصخور والجنادل.

والأمت بالعربي معناها المكان المرتفع ، ومعناه الروابي الصغار ، ومعناه مسايل
الادوية ، ومعناه الوهدة بين نشزين ، ومعناه الانخفاض والارتفاع ، ومنه قوله
تعالى (لا ترى فيها جوعا ولا أمتاً) أي لا انخفاض فيها ولا ارتفاع . وأصح معنى
ينطبق على الامت الذي نحن في صدده « مسايل الادوية » او « الوهدة بين
نشزين » لان القرية هي في مسيل واد وهي منخفضة بين نشزين ، ويجوز أن
يكون من باب الانخفاض والارتفاع لاننا هبطناها بعقبة ثم بعد أن وصلنا اليها
وجدنا عقبة ثانية على مقربة منها إلى ناحية الطائف

ومن « الامت » إلى الطائف مررنا بواد كانت فيه سدود عدملية قديمة
تجري منها المياه باقية منحوتة في الصخر إلى بساتين خاوية الآن على عروشها .
ثم اننا ملنا إلى بستان اسمه بستان القصر في نفس هذا الوادي عليه سائبة غزيرة
الماء تخص رجلا من القبيلة التي يقال لها قريش فتناولنا فيها الطعام وبعد القيلولة
ركبنا عاندين إلى الطائف

وأقول بالاختصار ان مسافة الانتقال من حرارة مكة بالصيف الى برودة
الشفاء التي وصفناها للقاريء لا تزيد اليوم على نهار واحد ، فن مكة الى الطائف
بالسيارة الكهربية خمس ساعات (١) ومن الطائف الى الفرع خمس الى ست ساعات ،
ولو كان للشفا طرق معبدة لكان المصطاف يركب السيارة من مكة صباحا
فيكون في الفرع وقت أذان العصر

(١) بلغنا في العام الماضي انهم وجدوا او عبدوا طريقنا آخر يقطع في ثلاث
ساعات او اقل

سكان الطائف وما حولها

أما سكان الطائف فهم شتى شواطيط من عرب من ثقيف وعتيبة وغيرهما ومن ترك وهنود وأجناس أخرى

وأما اقليم الطائف فسكان وادي لية من أوسط الوادي الى أسفل الزوران فخذ من عتيبة أي هوازن، ومن وسط الوادي الى أعلاه الغفور وهم أشراف تقدم ذكرهم ، وأما الذين هم بأعلى الوادي - ونزلنا عندهم لما ذهبنا الى وادي لية - فهم عوف بطن من حرب ، حرب من بني هلال

وأما ركة الشهيرة التي تقع الى الشرق الشمالي من الطائف ففيها عدة أخاذ من عتيبة أهمها : العصماء ، الشيايين ، الروقة ، المقطاء ، الجعدة ، الودانين ، السوطة ، العمار ، القثمة ، الثبته

وأما وادي محرم فعلموه ثقيف ووسطه النمر وأسفله الى وادي السيل طويرق وأما الهدية فأهل وادي الاعمق الذراوة ، والزنان ، وآل أبي شذب ، والمعالوه ، وكلهم من ثقيف .

ونفس قرية الهدية فيها الغشامرة والقصران وبنو صخر ومرجمهم أيضاً الى ثقيف والرج وهو عدة قرى على واد ينصب الى وادي وج الى الشرق من لقيم سكانه الاشراف ذوو ناصر الذين منهم حمود وشاكر

وكانت ثقيف ممتدة الى ركة لكن هوازن أرجعتهم الى جبال الحجاز ثم ان ثقيفا تنقسم الى عدة أخاذ اكبرها سفيان وثماله ، ومنها قريش بني سالم والغشامرة والقصران . وبنو سفيان سكان الشفاء ينقسمون الى بني عمر آل حجة والى آل ساعد وآل عيشة وآل حسن

ونمالة تنقسم الى المشايخ الحدادين (يقال انهم من سلالة الشيخ الحداد)
والضباعين والسودة وآل زيد وآل مقبل وآل ساعد وآل عمر
وجميع قبائل الطائف وبلادها ماعدا الاشراف وما عدا العدوان تفزع مع
ثقيف ضد هوازن، وتسمى ثقيف يوم الفرزة خندقا، وتسمى هوازن أو عتيبة شعبة
ولا تنحصر عتيبة في هوازن بل قد دخلها بطريق الحلف قبائل أخرى
وهذيل يسكنون في جبل برد وما يليه وتسمى هذيل الطامحات

استطراذ

(في قبائل الحجاز بين الحرمين وشمالى المدينة المنورة)

لما كنا قد ذكرنا قبائل هوازن وثقيف وهذيل وغيرها من سكان جبال
الطائف فلا بأس بذكر سائر قبائل الحجاز ممن ينزلون بين الحرمين ،ومن المدينة
إلى الشمال ، وقد كنا يوم زرنا المدينة النبوية قبل الحرب العامة بسنة أخذنا
جدول هذه القبائل من سجلات الحكومة ، وأطلعنا على معلومات ذات قيمة بشأنها
فأرأينا إلحاقها بهذا الكتاب إتماما للقائمه

فأهم هذه القبائل حرب . وهم بنو حرب بن هلال بن عامر بن صعصعة
من العرب العدنانية وحرب خلف أربعة أولاد : سالم ومسروح وعبدالله وعمرو.
فسروح أكثرهم ولداً ، وقد دخلت بطون بني عبدالله وبني عمرو في مسروح.
أما صبيح الاعشى فيقول نقملا عن الحمداني : انهم ثلاثة بطون : بنو مسروح
وبنو سالم وبني عبيدالله، وقال ان من حرب يزيد الحجاز وذكر ان منهم بني عمرو.
ومنازل مسروح من مكة إلى المدينة المنورة وعددهم يزيد على ستين ألف نسمة
وأما بنو سالم من حرب فمنازلهم من مكة إلى المدينة إلى وادي الصفراء إلى

الجديدة إلى ينبع البحر وهم يزيدون على خمسين الفا . فحرب إذا اجتمعت تزيد على مائة الف نسمة ، وكان شيخ مشايخ حرب خلف بن حذيفة الاحمدي . وكان ناصر بن نصار الظاهر ومنصور الظاهري من مشايخ المارواحة من بني سالم من حرب . وبني مزينة الذين باطراف المدينة والذين منهم زهير بن أبي سلمى المزني صاحب المعلقة داخلون الآن في بني سالم من حرب . والحل ان مزينة في الاصل هم بنو عثمان وأوس ابني عمرو بن اذ بن طابخة واسمه عمرو بن الياس بن مضر على ما في صصح الاعشى . فقد دخلوا اليوم في بني سالم من حرب وكان شيخهم حجاب بن نجيت معدوداً من مشايخ المارواحة من بني سالم . وكان من مشايخ حرب يوم زرت المدينة المنورة أو قبل ذلك بقليل بجيت ابن بنيان شيخ اللمبة من عوف من مسروح ، والشيخ ابراهيم بن فهد شيخ قرية قبا والشيخ احمد بن معين من مسروح . وكان محارب بن موقد شيخ الصواعد من عوف من مسروح ، ومرزوق بن عمر شيخ بئر الماشي من عوف من مسروح أيضاً . وكان أحمد بن مزيع بن ربيدق شيخ بني عمرو من مسروح بوادي الفرع ، ومريع بن محمد شيخ قبيلة جهم من بني عمرو بوادي الفرع أيضاً ، وكان عبدالله أبو ربعة شيخ قبيلة السهلة من عوف ثم قبيلة صبح ببدر وشيخها ابن حصاني الصبحي . وقبيلة صبح تنقسم الى اللدة ، وبني عبدالله وذوي مرزوق . ويوجد فرقة من الاشراف ببدر كان شيخهم الشريف محمد بن سالم بن عبدالله بن نامي ثم قبيلة زبيد بين ينبع وجدة . ومن زبيد هذه في الجزيرة الفراتية وفي الديار الشامية وفي بلدان أخرى مما نزل العرب . وزبيد بضم الزاي وفتح الباء الموحدة هو ابن معن بن عمرو بن عنيز بن سلامان بن عمرو بن العوث بن طيء . ومنهم بساحل الحجاز الشمالي عدد كبير يقال ان منهم نحواً من ثلاثين ألف رجل يعملون في البحر ، يحملون الصدف ويغوصون على اللؤلؤ . وكان الشيخ حسين

ابن مبيريك شيخ رابع هوشبخت زبيد . ومن مشايخهم الكبار محمد بن حسم والى المشرق منهم بنو سليم وبنو عبد الله والروقة . وبنو سليم (بضم السين) من أشهر قبائل العرب وبقول الحمداني أنهم أكبر قبائل قيس، وهم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان من العدنانية . ومن منازلهم جرة سليم وحره النار بين وادي القرى وتيماء . وأكثر عرب بركة والجبل الاخضر من بني سليم بن منصور وهم هم الذين ابتلاهم الله بالظليان في هذا العصر ولم يزالوا يجاهدون عن دينهم ووطنهم منذ عشرين سنة . وفي عرب مصر كثير من بني سليم بن منصور ، ومشايخ الاحامدة الذين هم مشايخ حرب في الحجاز يقال انهم من سليم وإن جدهم العباس بن مرداس السلمي

ثم قبيلة جهينة المنتشرة من ينبع الى الوجه . وهم بنو جهينة بن زيد بن ليث ابن سود بن أسلم بن الحافي بن قضاة من العرب القحطانية ، وهم من أكبر القبائل، قيل ان إبراهيم باشا أحصاهم فبلغوا في أيامه ٤٠ ألفاً ، وسمعت من يحزرم اليوم بسبعين ألفاً وبمائة ألف . وهم فئتان : موسى ومالك . وكان أمير جهينة من قبل العرب الشريف جابر بن حمد العياشي يقيم بينبع النخل ، ومن جهة الدولة العثمانية لآخر أيامها بالحجاز الشريف محمد بن علي بن بديوي الهجاري يقيم بينبع البحر . والروان فرقة تابعة لجهينة . وكان من شيوخ جهينة أحمد بن حماد الشطيري في ينبع النخل وصالح بن حامد الصريصري . وكان حنیشان بن سليم شيخ قبيلة عروة من جهينة . وكان من مشايخهم في ينبع النخل عبد الرحمن أبو رقية ومطلق المشرق . وأشهر فرق جهينة العياشي وهم أشراف ، والصبيحة ، والعلوين ، وذبيان ، والعقبى ، والحجوري ، والمحياوي ، والفايدي ، والمرابين ، والزايدي ، والعامري ، وهم من قبيلة موسى . وعروة وأشراف ذوي هجار ، والموال ، ورفاعة ، والحصينات ، وبنو كليب ، والحمة ،

والاساوردة، والسنانى، والصيدى، والرباوى، والقضاة، وغيرهم. وهؤلاء هم بنو مالك
ثم قبيلة بلي من الوجه الى ظبي ومن البحر الى مدائن صالح شرقا. وبلي (بفتح
الباء) بن عمرو بن الحافى بن قضاة. وقد ذكر القلقشندي ان من بلي ومن جهينة
قبائل في صعيد مصر. وقيل لي في المدينة المنورة ان عدد بلي قريب من عدد
جهينة وهم عدة فرق، المعاقلة، والعريفات، والرموث، والهلبان، ووابصة، والسحمة
والقوا عين، والمواهب، وذباله. وكان شيخهم سليمان باشا بن رفادمت في
أثناء الحرب العامة

وإلى الشرق من بلي قبيلة الفقير وهم من عنزة، ومنازلهم من المدائن الى تباه، وهم
فرق : الشفقة، والجميعات، والمغاصيب، والحجور، والخاعلة، وعدد هم نحو ١٠ آلاف
وولد علي وهم من عنزة أيضا، ومن هؤلاء قبيلة في بر الشام هي فرقان :
(إحداهما) شيخها ابن سمر (والثانية) شيخها الطيار، وأما الذين من ولد
علي بالحجاز فنمازلهم بين الملا وخيبر، وقديلمعون ٢٠ ألفا وهم : المسعد، والسند،
والشراعية، والعطيفات، والرميلات، والخالد، والركاب، والطلوح، والدبحان،
وجبارة، والطواعة، وكان أشهر رمشاخ ولد علي يوم زرت المدينة فرحان اليدة
وأولاد سليمان وهم كذلك من عنزة. ومنازلهم بأطراف خيبر من جهة
الشمال والشرق وهم من ٥٠ الى ٧٠ ألفا وهم الشمالان، والسبعة، والجمافرة،
والجبارة، والخشة، والسلمات، وشيخهم العواجي

ثم ان من قبائل الحجاز مطير وهم أربع فرق : الاولى ميمون وهم العيايين،
والهويات، والسكان، والهيطات، والسميحات، والرمائية، والمدخال، والحرشان
وغراية، والجمافرة، ويبلغون نحو ١٠ آلاف

ثم الصعبة ومنازلهم بقرب الحناكية الى الشرق وهم : المهالكة، والشطار، والحشوش
والشتيات، والعضبات، والمشاريف، والوطاين، والهجلة، وهم في العدد نظير ميمون

ثم ذوو عوز ومنازلهم من الصفية إلى السوارقية وهم: الحجيلات، وذوو ميزان، والسقاين، وذوو شطيط، وذوو بدر، والحلف، وذوو عزيز، وعددهم كمديد ميمون أو الصعبة

ثم الرياحين ومنازلهم باطراق السوارقية وهم: الوسمي، والوارض، والعنائرة، والكركرة، والعقاسي، والعتال، والمطارقة، والهبور، وعددهم أقل من إحدى الفرق الأخرى ومجموع عدد مطير قد يناهز ٤٠ ألفا ويقال إنهم أكثر

ثم إن من قبائل الحجاز الحويطات. ومنازلهم من ظُبَى إلى المويلح إلى العقبة وكان أكبر شيوخهم ياسين بن عليان . ويبلغ الناس في عددهم فيقولون ١٠٠ ألف ويقولون ٢٠٠ ألف ولهم كثير من الراسي على البحر . ويتصل محلهم ببني عطية الذين في جبال الشراة التابعة اليوم لشرقي الاردن

ومن خير إلى الحائط، والحويط إلى الحرة قبيلة هتيم وليست من القبائل المعروفة بالأصالة في العرب ولكنها كثيرة العدد تصادم شمر، وتصادم حرب وتصادم أية قبيلة كبيرة . ويقال إنها نحو ٢٠٠ ألف نسمة . وشرقي هتيم حرب الشرقية أي حرب نجد ومن شرقيهم شمر وهي من أعظم قبائل العرب نسبها في طيء فيما أتذكر

وأما منطقة الجوف فهي تابعة لنجد والجميع الآن في مملكة ابن سعود وعرب الجوف هم من عنزة، والشرارات، والحوازم، ويبلغ عدد أهل الجوف ١٠ آلاف ولكنها تسم أضعاف هذا العدد لكثرة مياهها ونخيلها وخصب أرضها وهي تبعد عن دمشق مسيرة ستة أيام وعن بغداد سبعة أيام وعن المدينة المنورة ثمانية أيام وعن حائل سبعة أيام . فلا يوجد بلدة أوسط منها في بلاد العرب. وعلى مسافة ١١ ساعة من الجوف مدينة سكاكة وقد تكون أكثر سكانا من الجوف وأقرب نقطة إلى الجوف من المعمور النربى هي الكرك لأن من الجوف إلى محطة

القطرانة مسيرة يومين ، ومن محطة القطرانة على سكة حديد الحجاز إلى الكرك مسيرة ست ساعات لاغير

وفي منطقة الجوف الطوير وفيها ٤٠٠ مقاتل وقارة وفيها ٧٠٠ مقاتل ويتبع هذه المنطقة قريات الملح وهي: الكهف، واثرة، والقرقر، والوشواش، والعقيلة ، وأم الاجراس، وفيها كلها نحو ٤٠٠ مقاتل . وهي واقعة في وادي السرحان ومركز عامل ابن سعود فيها قرية كهف . وعلى مسافة ساعتين منها النبك الذي نزل به بقية المجاهدين السوريين لما أجلاهم الانكايز بالاتفاق مع الفرنسيين هن الازرق منذ ثلاث سنوات . وأقام أخي عادل بالنبك نحو سنتين، ولا يزال فيه محمد باشا عز الدين الحلبي ومعه بضع مئآت منهم، كما ان سلطان باشا الاطرش ومعه بضع مئآت نازلون بالحديثة وعين كرم على مقربة من النبك

وعلى مسافة ثلاثة أيام من مدينة الجوف إلى القبلية بلدة تيماء وهي عن سكة الحجاز الحديدية على مسافة يوم الى الشرق . ويقول ياقوت ان الابلق الفرد حصن السموأل بن عادياء مشرف عليها .

وشرقي تيماء قرى متعددة هي: موقد ، وقبة ، وقنا ، وأم القلبان، وطوية ، والجدامية ، والوزيد . وبين المدينة وحائل الحائط والحويط

خاتمة الارتسامات

(في صفة موقع الطائف الجغرافي والعسكري ومكانه من البلاد العربية كلها وما كانت شرعت فيه الدولة العثمانية من جعله مركز قوتها في بلاد العرب وما يجب على الامة العربية من ذلك)

ألا إن مدينة الطائف مركز عظيم في بلاد العرب لأنها لمكة من قبيل لازم وملزوم، ولأن اقليمها من أبداع الاقليم، ونعماتها من أشهى الثمرات، ولكونها متوسطة في الجزيرة الحجاز محيط بها، واليمن جنوبها، ونجد والعراق شرقها، والمدينة المنورة والشام شمالها. فأختم كتابي ببيان ما يجب على الامة العربية في موقعها لحظت الدولة العثمانية هذه الاهمية لموقع الطائف فكان السلطان عبد الحميد الثاني العثماني عزم على مد الخط الحديدي من الشام إلى المدينة ثم إلى مكة فالطائف فمسير فصنعاء اليمن، ولم يقر ذلك بمجرد رأيه، بل جمع الوزراء وكبار رجال العسكرية، وبعد مذاكرات طويلة استمرت عدة ساعات أصدر ذلك المجلس قراره بملزوم انشاء هذا الخط وقاية لجزيرة العرب من عوادي الاعداء، وتقريباً لها من مركز السلطنة (١)

ولقد تمكن السلطان من إيصال الخط من دمشق إلى المدينة المنورة، وسارت عليه القطر التي لم يكن في كل أوربة إذ ذاك قطر أجل منها، وكان المسافر يقطع ما بين دمشق والمدينة أي زهاء ألف وأربعمائة وخمسين كيلومتراً في ليلتين، ولولا مصادفة خلع السلطان أيام العمل بهذا الخط لكان أكله إلى مكة وإلى الطائف وشار به حتى صنعاء

(١) نزيد على هذا اعتقاد الترك ان سلطانهم على جزيرة العرب لا يتم ولا يدوم الا بذلك فكان اهم غرض لهم منه ان لا يتمكن العرب من تجديد دولة لهم في معقل وطنهم وعقد دارهم.

فمن واجبات الامة العربية السعي في اكمال مشروع السلطان عبد الحميد هذا . فقد كان السلطان ووزراؤه يرونه ضروريا للوحدة العثمانية وكان ذلك حقاً ، ولكن العثمانية قد ذهبت وذهبت وحدتها ، وانطوى بساطها ، وأما العربية فلن تذهب ، ووحدتها لن تزال نشيدة آمال العرب ، وان من أركان هذه الوحدة وأعمدها الكبرى هذا الخط الحديدي ، الذي لا يقف الانكليز والفرنسيين في وجه استئناف اتصاله بالشام وفلسطين إلا خوفاً من نقطة هذه الوحدة

نعم ان الدولة العثمانية كانت قد شيدت في الطائف ثكنة عسكرية من أعظم ثكن الجنود في العالم . طولها ثلاثمائة متر ، وعرضها ما يقرب من ذلك ، وأمامها سهل منبسط مستو كخذ الحصان لا يجتازه الماشي من باب القشة إلى آخره في أقل من عشرين دقيقة . وقد جعلت في جانب من هذه الثكنة العظيمة مستشفى متقناً ، وفي وسط ميدان الثكنة الفسيح قعراً لاجتماع أمراء الجيش ، وجميع هذه الابنية لا تزال ماثلة لا ينفني لها الا بعض ترميمات غير ذات بال

ولقد علمت من حديث دار بيني وبين سمو الامير المهنذب الكامل فيصل ابن عبدالعزيز - ثاني انجال جلالة الملك ونائب جلالته في الحجاز - ان ترميم المستشفى واعادته كما كان من الامور المقررة ، وكذلك ترميم القصر الذي في وسط الميدان بحيث يجلس فيه الملك عند ما يجيء الى الطائف ، وانهم ينوون نقل جميع دوائر الحكومة في الصيف الى الثكنة ، وكذلك دوائر امانة الطائف . وهذا لعمري من الامور التي تنبغي المبادرة اليها - وقاية للثكنة من التداخي ، لأن كل بناء مهجور ، محكوم عليه بالدثور ، ولقد كلف بناء هذه الثكنة الدولة العثمانية مبالغ طائلة ، فكما تأخرت اقامة الحكومة بالثكنة ازدادت على الحكومة الحجازية النجدة كلفة تجديداتها

وأما الجند النظامي السعودي الذي في الحجاز فانه يقيم في مكة بالثكنة التي في

جروول في أول البلد الحرام للقادم من جدة، ويقم في جدة بشكنة جدة المناوحة للبحر،
ويقم في الطائف بقلمة الطائف وهي قلعة بنيت منذ نيف ومائة سنة، قيل لي بناها
الوهابيون قدمتهم الأولى في القرن الماضي . ولقد زرتها وسررت بانتظام الجند
الذي فيها بقيادة ضابط تركي باق من أيام الملك حسين اسمه تحسين بك من خبرة
الضباط ، ولقد ازدادت الثقة الآن بحسن قيادة الجيش الحجازي بعد أن عهد بها
الملك عبد العزيز (أيده الله) إلى المجاهد المناضل ، والعالم الفاضل ، فوزي بك
القاقوجي من نخبة ضباط العرب، وفقه الله لتحقيق آمال الملك وآمال العرب في
القوة النظامية السعودية

ولما زرت القلعة جلسنا في الغرفة التي كان يسكن بها مدحت باشا أبو الدستور
العثماني والتي قتل فيها ، وأمامها غرفة كان يسكن فيها محمود باشا الداماد ، وهناك
غرفة ثالثة كان يسكن فيها خير الله أفندي شيخ الاسلام ، هؤلاء الثلاثة الذين
نقام السلطان عبد الحميد إلى الطائف من أجل خلع عمه السلطان عبد العزيز

صفة قتل مدحت باشا ومحمود باشا الداماد

ولقد استقصيت من تحسين بك المذكور ومن الشيخ محمد بكر كمال رئيس
بلدية الطائف ومن غيره من المعمرين فيها عما يملونه من كيفية قتل مدحت
ومحمود الداماد ، فقليل لي ما خلاصته : جعلوا إقامتهم من البداية في القلعة لكن مع
الترفيه والاعتناء ، وكان لهم طاه خاص يصلح لهم طعامهم ، لكن بعد أن مضت
على ذلك مدة شرعوا بالتضييق عليهم ، وأبوا أن يطعموهم إلا من غذاء العسكر .
وبعد عدة سنوات من حبسهم بالقلعة وفي أيام الوالي المشير عثمان نوري باشا قرروا
قتل مدحت باشا ومحمود باشا الداماد ، وكان مدحت في الغرفة التي جلسنا فيها
وهي محل استقبال الزائرين اليوم ، فدخل عليه ملازم تركي اسمه اسماعيل
فخيل لي يوم كنت بالطائف (صيف سنة ١٢٤٧) انه لا يزال حياً يرزق وانه مقيم

مجدة ، ولم يكن قتل هذا الضابط لمدحت خنقا كما كنا نسمع ، بل قبض على أنثيه واستلها بقوة عصبه ، فبرد مدحت في مكانه ، ثم عادوا الى الداماد فحاول أن يجاحش عن خيط رقبتة ، ولكنهم صرعوه وأزهقوا روحه ، ولم يستسلا للوت بدون صراخ ، بل استغاثا بالجيران الذين بيوتهم مجاورة للقعة ، فصاح النساء بالذين في القعة ووبخهم ودعوا عليهم ، واشتدت الولولة ، إلا أن ذلك لم يمنع قيام القتلة بانفاذ الامر ،

وأما خير الله افندي شيخ الاسلام فلم يمسه وبقي في القعة الى أن مات ، وتزوج وهو بالقعة وولد أولاداً وعاش طويلاً ، ودفن مدحت ومحمود الداماد بترية الحبر ابن عباس ، ولكن رئيس البلدية قال لي انهم لا يعلمون في أية زاوية من الجبانة كانت مراقدهما ، وقد جاء بعض الاتراك بعد اعلان الدستور العثماني وبحسوا عنهما هوبوا لهما قبرين حيث رجح الناس انه وقع دفنهما

وأما قطع رأس مدحت وارساله الى السلطان عبد الحميد في الاستانة كما هو شائع فلا يعلم هؤلاء الرواة شيئاً عنه

ذكرنا هذه الواقعة لانها تاريخية مهمة

وكان الفراغ من تبليص هذا الكتاب بمدينة لوزان من بلاد سويسرة
 لأربع خلون من ذي الحجة سنة ١٣٤٩ الموافق ٢٢ أبريل سنة ١٩٣١
 والحمد لله أولاً وآخراً . وصلى الله على سيدنا محمد
 وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

﴿ وقد تم طبعه في شهر المحرم سنة ١٣٥٠ والله الحمد ﴾

استدراكان

(بعد ان تم طبع الرحلة الا هذه الكراسة (الملزمة) الاخيرة جاءنا
من مؤلفها الامير هذا الاستدراكان لاجل إلحاقهما ببحث المعادن فذشرناهما
هنا لما فيهما من المناسبة للخاتمة في الحظ والحث على المبادرة الى عمران
الجزيرة)

الاستدراكان الاول

أرجو منكم اذا وصلتكم الى بحث المعادن أن تضيفوا الى المتن أو تضيفوا
بالحاشية الجملة الآتية :

« ومن المعادن المعروفة في الحجاز معادن السوارقية وهي على ثلاث مراحل
من المدينة إلى الشرق منها وهي ذهب وفضة ورمال وهناك طواحينها وافرانها .
ومن الغريب اني لم أجدها في معجم ياقوت إلا اذا كان قد ذكرها تحت اسم آخر .
وبحثت في القاموس وانتاج عن « السوارقية » فرأيت يذكّر بلدة بهذا الاسم بين
الحرمين الشريفين ولم يذكر ان فيها معادن ويقول انها « بضم أولها »
واذا وصلتكم إلى ذكر خيبر أن تضيفوا إلى كلامي عليها الجملة الآتية :
« ولما كنت في المدينة المنورة سنة ١٣٣٢ قيل لي ان خيبر هي عن المدينة
على مسافة ثلاثة أيام إلى الشمال بسير الجبل وانها كانت آتلة الى الخراب فبعد ان
كان ابن رشيد يأخذ منها في السنة ١٢٥ ألف ريال أصبحت الدولة لا تأخذ منها
إلا ألف ريال »

واذا وصلتكم الى ذكر الفرع أن تضيفوا الجملة الآتية : « وقيل لي في المدينة
١٣٣٣ ان بالفرع ستين عين ماء

الاستدراك الثاني

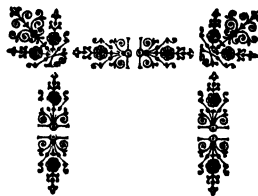
بينما نحن مباشرون طمع هذا الكتاب إذ حدث حادثان مهمان يتعلقان بالمعادن وأمر التنقيب عنها في الجزيرة العربية وفقاً للاماني التي تجول في صدور مفكري العرب من استثمار هذه الخيرات العظيمة والاستعانة بها على اصلاح أحوال العرب. وهذان الحادثان أولهما ان الامام عبدالعزيز بن سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها قد انتدب المستر توتشل المهندس الاميركي المتخصص بالمياه والمعادن للتنقيب عن المياه التي يقرب انبساطها والمعادن التي يتحقق وجودها من ممالك الحجاز ونجد، وان المهندس المذكور قد بدأ بالعمل وسار إلى سواحل الحجاز الشمالية ورافقه في رحلته الاخ السري الفاضل خالد بك القرقي الطرابلسي الغربي من سلالة بني هود الجالين من الاندلس وقد جاء في العدد ٣٣٥ من جريدة أم القرى الرسمية تاريخ ٢٠ ذي الحجة سنة ١٣٤٩ ما يفيد ان المهندس المذكور تجوّل في سواحل الحجاز الشمالية ودأب هناك في الفحص والبحث مدة ثلاثة أسابيع قطع خلالها مسافة ٣٥٠٠ كيلو متر وانه رأى ان المياه في تلك المنطقة لا تنقل غزارة عن مياه المنطقة الواقعة بين وادي فاطمة وجدة ، وانها قريبة جداً من سطح الارض لا يتجاوز أقصى عمق لها عشرة أمتار كما ان اماهة المياه في هذه المنطقة لا يحتاج فيها إلى حفريات ارتوازية

قالت الجريدة وانه عثر على منجم بترول غزير بين اللبانة والمويلح في ساحة لا يقل طولها عن ٣٥٠ كيلو متراً تقريباً . وكنا نسمع دائماً ان في ذلك الساحل زيت بترول يسيل إلى البحر ، فعسى أن لا يبطيء الملك عبدالعزيز في استخراج هذا المنبع الغزير القريب من البحر الذي لا يلزم له مد أنابيب على مسافات طويلة جداً كما هو الشأن في منابع باكو و منابع الموصل مثلاً

ثم قالت الجريدة ان هذا المهندس قد عثر أيضاً على منجم ذهب غزير في ضواحي الوجه مؤلف من عروق ذهبية عديدة ، وعلى منجم رصاص بالقرب من الوجه أيضاً

فمضى أن يطوف هذا المهندس في جميع مملكة ابن سعود وأن يردف بمتخصصين آخرين ويبحثوا في الاماكن كلها مما سبق العهد بالمعادن والزيت والاملاح فيه وما لم يعرف عنه شيء إلى اليوم

وأما الحادث الثاني فهو ان الاخ الفاضل السيد رشدي الصالح ملحق النابلسي محرر جريدة أم القرى أخرج رسالة في المعادن بالحجاز ونجد، وملحقتهما ذكر فيها ما فيها من مناجم مختلفة واملاح ، مما وصفه الحمداني وياقوت والقدسي والزغشري وبعض رجال الانراك الذين سبقت لهم ولايات في جزيرة العرب وغيرهم . وقد أهدى اليها نسخة من هذه الرسالة التي يقول انه انزعه من كتاب هو شارع في وضعه تحت اسم « معجم البلدان العربية » فزصفحتها ووجدناها رسالة قيمة ثمينة كأنها هي بذاتها معدن من معادن العلم والتحقيق ، ورأينا فيها ذكر معادن كثيرة أوردنا الخبر عنها في كتابنا هذا ، وربما جاء فيها ما فاتنا ذكره ، كما ان في هذا الكتاب عن معادن اليمن ما ليس في تلك الرسالة واستيفاء البحث عن معادن الجزيرة العربية يستجلب على كل الاحوال أنظار العرب اليها ، ويستشير هم الناهضين منهم الى استخراجها ، وافاضة خيراتها على هذه الامة . فنسأله تعالى تعجيل هذه الامنية . آمين



جدول خطأ الطبع

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٤	١٧	يوم	يوما
٢٠	٣	العلوج	العسلوج
٢١	٦	يتطوفون	يطوفون
٢٩	١	لاءة	اللاءة
٣٢	١١	قذف	قذف
٤٦	٢	الى الطل	الى الظل
٥٢	١٢	وقد سعدت	الا وقد سعدت
٥٤	١٦	ذكري	ذكر
١٠٠	٤	كان	كانا
١٠٣	١٩	وتعبرها	وتعبدها
١٠٨	٢	بها	بها
١١٥	٢٤	انها	فيها
»	٢٦	وبنت الجبال بنا	وبست الجبال بسا
١١٧	١٠	الكهرباء	الكهرباء
١٣٦	١٦	الحجبار	الحجراز
١٤٤	٢١	القبور	قبور
١٤٥	١	مساحة (برأس الصفحة)	مساجد
»	١٥	بالمين	بالفين
١٤٩	٢٢	طرفيها	طرفها
١٥٠	١٨	الاوزعي	الاوزاعي
١٥٢	٢	رأيت ما احدا	مارأيت احدا
١٥٨	١٥	اتنوني	اثنوني
١٦٥	١٨	لماء كان له ومال عليه. بالمرج	لمال كان له بالمرج

صواب	خطأ	سطر	صفحة
بن	بن	١٣	١٦٦
اسماعيل	اسماعيل	٢	١٦٨
قيس عيلان	قيس بن عيلان	٥	»
الدا	لدال	٣	١٧٣
فيه	فيها	٤	»
الاودية	الوديان	٢٢	»
الرفيق	الرفيق	٢٠	١٧٤
اني	التي	٣	١٧٦
السفانية	السفانية	٨	١٧٩
أخذته	خذه	١١	١٨٩
زياد	يزيد	١١	٢٠١
الدعار	الادعار	٦	٢٠٤
المال	الماء	٣	٢٢١
فتش كلاهما	فتش كلاهما	٥	٢٢٣
المحبة	المحبة	١٠	٢٢٩
العم	العم	٤	٢٣١
ها لقي	ها لقي	١	٢٣٢
ديناراً	دينار	٢٢	٢٣٥
وأخذها بتوعر	واخذها بتوعر	١٣	٢٤١
بيجان	بيجان	٢٧	»
من شاكر بن	من ساكر بن	١٦	٢٤٥
ثقل	ثقل	٣	٢٤٨
المرض	المرض	٦	٢٦١
عوجا	جوعا	٣	٢٧٠

فهرس الار تسامات اللطاف

أهمية المياه في الحجاز	٣٣	تصدير الكتاب لناشره	
لذة الماء والخضرة في البلاد الحارة	٣٦	صفحة	
أثر السيدة زبيدة والوصف التفصيلي لعمل هذا الأثر	٣٨	مقدمة او فاتحة الرحلة	
مخالفة الشيعة لاهل السنة في موقف عرفات	٤١	٦ من السويس الى جدة	
روعة موقف عرفات، ومواكب الحج فيها أيام دول الاسلام، ووصف ابن جبير لها	٤٢	٧ وصف جدة وغرابة أو ان بحرها وتعليله	
محلة أمير الحج العراقي في عرفات وواكبه في القرن السادس	٤٣	٩ مباني جدة وعمرانها	
الوزير الجواد الاصفهاني وآثار العمرانية في الحجاز	٤٦	سُورَى القومى	
العبرة بتعبير السلف وتخريب الخلف	٥٠	١٠ في جدة والحجاز	
الاسلام		١٢ لقاء الملك ابن السمود وكله في جلالته	
دين العمران، بريء من تبعة انحطاط مسلمي هذا الزمان	٥٢	٥ الطريق من جدة الى مكة	
(شفق بعض ملوك الاسلام بالعمران)		١٤ ﴿الكلام على مكة المكرمة﴾	
آثار عبدالرحمن الناصر في الاندلس ووصف الزهراء	٥٥	صفحتها الحسنية والمعنوية، وكتبها البهية وهوي القلوب اليها من جميع البرية، ورزقها من جسيم الاغذية والثمار	
عمران قرطبة العجيب في عهد الناصر	٥٨	استجابة لدعاء ابراهيم عليه السلام	
(مثال آخر من النظام عند المسلمين)		١٦ مياه مكة في الجاهلية والاسلام	
خبر عبد المؤمن صاحب دولة الموحدين	٦١	١٧ عين زبيدة وعين الزعفران	
﴿مثال آخر من حب العمران﴾		١٩ الحر في الحجاز واقتضاؤه لكثرة المياه	
سيرة المنصور السعدي القاتح	٦٥	٢٥ عرفة في القديم وخبر عبد الله بن عامر الصحابي العمراني	
		٢٩ المناهل في مكة	
		٣٢ سوء تصرف المسلمين في أوقاف بيلهم	

٦٦	سيرة مولاي اسماعيل سلطان المغرب	١١٧	الانسان هو غير العمر الحقيقي
٦٩	تعميره العجيب ونجريب خافه	١٢٢	قرية لقيم وكرومها ومياها
٧١	كتب الافرنج في فن المعمار الاسلامي	١٢٣	السامل في بمرر الملك العادل
٧١	خبر المطوفين بمكة المكرمة	١٢٤	الامام عبد العزيز بن السعود
٧٩	والمزورين بالمدينة المنورة (وهو من أهم فصول هذه الرحلة)	١٢٥	أمير الطائف الملقب بالصحابي
٨٦	اقتسام المطوفين والمزورين لحجاج الدنيا كلها بامر الحج والحجاج	١٢٥	الكلام على الطائف وفضل صيفها
٨٩	اعتداء الحكومات الاسلامية على أوقاف الحرمين	١٢٥	شرفاء مكة وامراؤها
٩٣	طمس الدول المستعمرة لاوقاف المسلمين	١٢٥	واستثنائهم باحسن أراضى الحجاز وأملأها ولا سيما الطائف
٩٣	مرض في مكة وتأثيره في أثناء أداء المناسك	١٢٧	عين سلامة وعين المثانة في الطائف
٩٨	الكلام على ازاهر من ضواحي مكة	١٣١	الكتب والرسائل المؤلفة في الطائف
١٠٠	الصعود الى عرفة في شدة المرض	١٣١	حديث « الطائف قطعة من الشام »
١٠٠	الالتجاء إلى الطائف	١٣٣	تشبيه وهو غير صحيح
١٠٢	الكلام على ذات عرق	١٣٣	رواية الحديث وكتابه
١٠٤	الكلام على سوق عكاظ	١٣٤	حديث « من كذب علي متعمدا »
١٠٧	ذكر أسواق العرب في الجاهلية (استطراد)	١٣٥	الح متواتر
١١٠	في قطع بعض الافرنج في تحليل الحوادث، والتشكيك في الحقائق .	١٣٥	الآثار في فضل الطائف
١١٢	الكلام على صخور الطائف والحجاز	١٣٦	موقع الطائف وهوؤها وماؤها
١١٣	كيفية تشكل الصخور	١٣٧	حدود الحجاز ووجه تسميته
١١٤	العمر الطبيعي المقدر للحياة على الأرض كالعمر الطبيعي الذي بقدر	١٣٨	الشام : هوؤها وماؤها ووباؤها
		١٤٠	عمران الطائف وتقلصه بعد الحرب
		١٤١	فتكة الملك ابن السعود بسلطان بن بجاد وفصل الدويش من غلاة قواده التجديدين
		١٤٣	مسجد ابن عباس بالطائف وقبره وبعض ترجمته
		١٤٤	هدم الوهاية لقباب البهور

١٤٥	حكم الصلاة الى القبور وفي	١٨٣	عرض الطائف الجغرافي وسبب تأسيسه
١٤٦	المساجد المبنية عليها	١٨٦	خبر فتح النبي ﷺ الطائف
١٤٨	مسند ابن عباس وغلط بعض العلماء	١٩٠	دعوة النبي ﷺ أهل الطائف الى الاسلام ودعاؤه بالبلغ هنالاه
١٤٩	في عدد أحاديثه	١٩١	خبر إيمان عداس النصراني بالنبي (ص)
١٥١	الموضوعات في العباسيين ،	١٩٢	وجوب اتخاذ آلات الحرب الحديثة
١٥٣	ترلف العلماء الملوك بخلود ملكهم	١٩٥	وفنون صناعتها
١٥٤	اثارة تاريخية في اماره آل ارسلان	١٩٦	آثار حضارة العرب في الطائف
١٥٥	علي لبنان	١٩٨	كتاب الاكيل ،العامد المثل
١٥٦	فوائد تراجم العظماء	١٩٨	الخطوط والرسوم الاثرية الطائف
١٥٧	اسلام عروة ابن مسمود وقتله	١٩٩	الشيخ عبدالقادر الشيبني وآله سدة الكعبة أقدم وظيفة وأقدسها في الاسلام
١٥٨	كما أخبر النبي ﷺ	٢٠٣	اشراف الحجاز على العمران بشمول العدل والاحسان
١٥٩	وفود ثقيف على النبي ﷺ كما بعد فتح الطائف	٢٠٧	قابلية خير للعمران
١٦٠	من كان في الطائف من علماء السلف ومن فيه من شهداء الصحابة أشهر الرجال المولودين في الطائف	٢٠٩	العلی ووادي القرى
١٦١	الحجاج بن يوسف الذهني و. بعض ترجمته المظيعة	٢١١	أودية العقيق في المدينة والجمامة وغيرها
١٦٢	سفر الطائف	٢١٤	سملع المدينة المنورة
١٦٣	المرجعي الشاعر	٢١٥	ينبع ورايح وييشة
١٦٤	أمية بن أبي الصلت	٢١٨	الطريقة المثل
١٦٥	طريح بن اسماعيل الثقفي	٢٢٠	لعمران الحجاز الاقتصادی
١٦٦	غيلان	٢٢٢	وهو من ام فصول هذه الرحلة
١٦٧	تخطيط الطائف	٢٢٣	أما كن معدن الذهب في جزيرة العرب
١٦٨	وسبب نزول ثقيف بها		
١٦٩	الوسيلتان لاستئناف عمران الطائف		
١٧٠	واحد لبة وواحد جلدان		

- ٢٣٢ الدين النصيحة (وهذه الحقائق في وصف جزيرة العرب وقابليتها لأعلى العمران لا توجد في كلام الهمداني في معادن جزيرة العرب غير هذه الرحلة فعلى كل عربي التأمل فيها)
- ٢٣٣ تقرير علمي فني في أراضي الحجاز ٢٦٧ لغة نقية وهذيل في هذا العهد
- ٢٣٧ وصخورها ٢٦٩ قرية الاوت
- ٢٣٨ رسالة في معادن اليمن ٢٧١ سكان الطائف وما حولها اليوم
- عمر أن جزيرة العرب استطراد
- ٢٥٤ وما يجب على الحكومتين السعودية والامامية من استئثافه
- ٢٥٥ دحض شبهة على قابلية الجزيرة للعمران
- ٢٥٦ جبال جزيرة العرب وكونها أطيب هواء من لبنان وسويسرة
- ٢٥٧ حديث « أحد جبل يحبنا ونحبه » والمسكري ومكانه الوسط من البلاد العربية
- ٢٥٨ أجاً وسلمى جبلاطي بنجد كلها ، وما كانت الدولة العثمانية شرعت فيه
- ٢٥٩ هواء نجد ، ووصف الشعراء له من جملة مركز قوتها ومواصلاتها في بلاد
- ٢٦٠ الاماكن النزهة بجوار الطائف العرب وما يجب على الامة العربية من ذلك
- ٢٦٢ ناحية الشفان من جبال الطائف ٢٨٠ صفة قتل مدحت باشا ومحمود باشا
- ٢٦٣ قرية الفرع وكون موقعها أفضل الداماد في قلعة الطائف
- ٢٨٢ استندرا كان مصايف الدنيا

